

د. محمد عمار

الصحوة الإسلامية
والتحدي الحضاري

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100

الصَّحُوةُ الْإِسْلَامِيَّةُ
والتَّحْدِي الْخَضَارِي

طبعة دار الشروق الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

طبعة دار الشروق الثانية

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دارالشروق

أسسها محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع ميسويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

د. محمد عمارة

الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري

دار الشروق —

تمهيد

بالإسلام خرج الانسان العرى من إطار القبيلة وضيقها وتشرذم القبلية وضياعها إلى رحاب الدولة والأمة والإنسانية ..

وبالإسلام انتقلت الجماعة العربية من ظلمات الجاهلية إلى نور الحضارة وتنويرها .. وبالإسلام تحولت هذه الأمة من طائر مهيب الجناح ، تتخطفه الجوارح والكواسر ، من الروم والفرس والأحباش ، إلى عملاق بهر الدنيا بالقوة والعقل والسيف والقلم على حد سواء ..

ولذلك ، فنحن لا نبالغ إذا قلنا : إن هذه الأمة ، بتكوينها ، وحضارتها ، وعطائتها التاريخي .. هي « هبة الاسلام » عندما تحول « بالايان » و« الحركة » إلى طاقة خلاقة جعلت الأعراني الأشعث الأغبر : راهب الليل وفارس النهار .. مناضلا ربانيا .. إذا أقسم على الله أبره الله ؟ ..

ولا نبالغ إذا قلنا : إن هذه الأمة قد خرجت بالاسلام من « الموت » إلى « الحياة » ! .. فأحيّاؤها وحياتها قد ارتبطا ، صعودا وهبوطا ، بعلاقتها الحقيقية والصادقة والصحية بالاسلام .. فهو رسالتها الخالدة في هذه الحياة ! ..

بل إننا إذا ذهبنا نستقرئ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فسنجدهما يستخدمان مصطلح « الحياة » و« الإحياء » في وصف أثر الاسلام وفعله الذي خرجت به هذه الأمة من كفر الجاهلية إلى إيمان الاسلام ... فكما أن الله ، سبحانه وتعالى ، قد ﴿ أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾^(١) .. كذلك يصنع « نور الحكمة » ، الذي جاء به الاسلام ، وكذلك صنع « الإحياء » لهذه الأمة بعد « الموت » ... وقديما أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال : « يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ، فإن الله يحى القلوب بنور الحكمة ، كما

يحیی الأرض الميتة بوابل السماء» (٢) ..

وهذا «الإحياء» الذى صنعه الاسلام لهذه الأمة لم يقف عند حدود «الإحياء الروحى» الإيمانى الذى صنعتته عقيدة التوحيد ، عندما حققت للمؤمن «الانتهاء» ، وحالت بينه وبين «الاغتراب» .. ذلك أن التوحيد ، الذى تمثل فى ﴿ لا إله إلا الله ﴾ كان — فى الجانب الدنيوى — ثورة تحريرية ، متجددة العطاء ، عميقة الأغوار .. فلقد ألفت بين الناس عندما رفعت عنهم إصر الطواغيت ، وأحيت طاقاتهم الخلاقة والمبدعة عندما حررتهم من الضغوط والقيود والأغلال .. ثم قذفت بهم شهابا منيرا طريق العقل وحارقا قوى الطغيان التى تحول بين هذا العقل وبين حريته فى الاختيار ! ..

والقرآن الكريم يتحدث عن دعوة الإسلام ، ورسالة محمد ، ﷺ ، باعتبارها مصدر «الحياة» لهذه الأمة ، وسبيل خروجها من الضعف إلى القوة والنصر ، فى الصراع الذى كان قائما بين الانسان العربى وبين القوى التى فرضت عليه سيادتها وهيمتها قبل الاسلام .. وخاصة الفرس والروم .. ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحییكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب . واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأوأمكم وأبدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ (٣) .. فالإحياء الإسلامى يتعدى النطاق الروحى إلى حيث قد أصبح السبيل إلى حياة الأمة سياسيا وقوميا واجتماعيا ، الأمر الذى هيا لها النصر على أعدائها التاريخيين ، الذين طالما ناشوها فنهشوها نهش الجوارح والكواسر مستضعف الطير ذى الجناح المهيض ! ..

والإحياء بالإسلام ، كان السبيل الوحيد لصنع المعجزة .. معجزة الوحدة التى صنعت من القبائل المتناحرة والشراذم المتنافرة والأعراب الذين احترفوا الإغارة وقطع الطريق .. معجزة الوحدة التى صنعت من هؤلاء : خير أمة أخرجت للناس .. يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ... أشداء على الكفار ، رحماء بينهم .. تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود .. رقت ضمايرهم من خشية الله حتى بلغت درجة «التقوى» ١٩ فى ذات الوقت الذى جعلوا فيه «الجهاد» رهبانيتهم لله ١٩ .. ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أبدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف

(٢) رواه مالك فى الموطأ .

(٣) الأنفال : ٢٤ - ٢٦ .

بينهم ، إنه عزيز حكيم ﴿٤﴾ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴿٥﴾

فالبعث والإحياء الذى حدث لهذه الأمة إنما كان بالإسلام ، بل هو [نعمة الله] ، وآية من آياته ، سبحانه وتعالى ، فيها ! ..

ولذلك ، فلم ولن يكون غريبا أن تتخذ هذه الأمة من الاسلام سبيلا للبعث والإحياء والنهضة والتجديد ، كلما طرأت عليها الطوارئ التى باعدت بينها وبين جوهر الاسلام فابتعدت بها عن فعاليات « الحياة والأحياء » ١٩ ..

فهذه الأمة تدرك ، بالفطرة وبالتجربة التاريخية معا ، أن « حياتها وإحياءها » إنما كانا : هبة الاسلام وصنيع الذين آمنوا به عقيدة وحركة ... وأن هذا الاسلام قد كان السلاح الذى تسلمت به ، وانطلقت — تحت أعلامه — لتواجه ما فرضه عليها أعداؤها الكثيرون والمتنوعون من تحديات :

● فبالجهاد الإسلامى حررت أرض الشرق من سيطرة البيزنطيين الغزاة ، ومن الظلم الطبقي للأكاسرة الفرس ، ذلك الذى أعجز الإنسان عن أن يكتشف الطاقات التى أودعها الله فيه .. وبتحرير الأرض تحرر العقل والضمير من الضغوط ، فامتلك الانسان فى الامبراطورية العربية الاسلامية حرية الاختيار ﴿ لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغي ﴾ (٦) ... ثم كان هذا الجهاد الإسلامى السبيل لمواجهة الموجات العاتية والعادية على هذه الأرض ، تاريخيا ، صليبية أو تنرية كانت تلك الموجات ..

● وبالعقلانية الاسلامية ، التى وازنت بين « الحكمة » و« الشريعة » ، وآخت بين « الوحى » و« العقل » ، صنعت هذه الأمة فلسفتها المتميزة ، وأسمتها ، بحق : علم « التوحيد » ١٩ .. فرفضت الجمود عند ظواهر النصوص ، والغرور بمعطيات العقل الانسانى وحدها ، وفى كل المجالات ، فلسمت فلسفتها ، بالعقلانية الاسلامية المتميزة ، من سلبيات الإفراط والتفريط ..

● وبالوسطية الاسلامية طبعت هذه الأمة حضارتها ، فميزتها عن غيرها من الحضارات ، وذلك عندما برئت ، بهذه الوسطية ، من النظرة الضيقة الأفق والوحيدة الجانب ، التى تقف

(٤) الانفال : ٦٢ ، ٦٣ .

(٥) آل عمران : ١٠٣ .

(٦) البقرة : ٢٥٦ .

عند أحد أقطاب الظاهرة ، مغفلة الشمولية التى تؤلف وتوازن وتؤاخذ بين كل الجوانب والعوامل والأقطاب لتخرج بمزيج جديد ومزاج متميز وموقف ثالث هو الحق بين باطلين والعدل بين ظلمين والاعتدال البرىء من التطرف ! ..

● وبالمضمون « الاسلامى — الحضارى » للعروبة ، الذى أرساه الرسول ﷺ ، عندما قال : « ليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى »^(٧) .. بهذا المضمون الاسلامى للعروبة وللقومىة برىء الأساس الذى رفعت عليه هذه الأمة قواعد قوميتها من « تعصب الشعبوية » ومن « العصبية القبلية » كليهما .. فهما مؤسستان على « العرق » الجافى لحقائق العلم ، وباعتنائى لـ « دعوى الجاهلية » ، التى طلب منا الرسول ﷺ أن ندعها ونهجها ، فقال : « دعوها فإنها منتنة »^(٨) ! ..

بهذا الاسلام كانت « حياة » هذه الأمة .. وبه كان « إحيائها » ! ..

* * *

لكن لله سننا فى الكون ، ونواميس فى حياة الأمم وتطور المجتمعات والظواهر الاجتماعية ، دائمة الفعل ، مستعصية على التوقف أو التبديل ... فالحياة والإحياء رهن بأسبابهما .. وعندما يوجد الضد تكون الثمرة هى النقيض ! ..

فالدولة العربية قد امتدت من « الأندلس » إلى « الصين » ، فضمت أمما وشعوبا وقبائل وجماعات وأجناسا شتى ، بينها شىء من الاتفاق وأشياء من الاختلاف ! .. وهذه الأمم والشعوب والجماعات قد تدينت بكل ديانات السماء والأرض ، بل وفيها من رفض أو جهل التدين بأى دين ! ..

والسنة الحميدة التى سنها الإسلام ، للمرة الأولى فى تاريخ تطور البشرية ومذاهب الفتح والفتوحين لخصتها آية القرآن الكريم : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾^(٩) ، فتركت هذه الشعوب والجماعات وماتتدين به ، لم يجبرها الفتح العربى الاسلامى على توحيد هويتها فى الاعتقاد ... فكان « التنوع » فى المعتقد ثمرة من ثمرات هذه السنة الحميدة .. لكن الأهواء والأغراض ، والأحقاد والثارات قد دفعت هذا « التنوع » لتبلغ به درجة « الشقاق » !

وكما سن الاسلام سنة ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ ، كذلك سن العرب سنتهم الحميدة

(٧) [عهديب تاريخ ابن عساکر] ج٢ ص ١٩٨ . طبعة دمشق .

(٨) رواه البخارى والترمذى .

(٩) البقرة : ٢٥٦ .

عندما لم يجبروا هذه الشعوب والجماعات على « التعريب » ، فتركوها لإغراء ميزات « التعريب » ومميزاته ، عندما توزن وتقارن بلهجاتها ولغاتها ومواريتها في الفكر والآداب .. فكان « التعدد » في القوميات شهادة يزهو بها الفتح العربى ورصيذا لإيجابيا يفخر به الفاتحون ... لكن الأهواء والأغراض واختلاف المصالح .. وخاصة مصالح القوى التى دال سلطانها الظالم بالفتح العربى — كان ذلك طاقة شريرة نفخت في هذا التمايز القومى ليصبح « شعوبية » تسعى نارها للإتيان على قواعد الدولة من الأساس ..!

وتجاه هذه « الشعوبية » المعادية لكل ماهو عربى ، جهارا نهارا .. والمعادية للإسلام — لارتباطه بالعرب ، ولدور العرب في مده — في السر والحقيقة والأساس .. تجاه هذه « الشعوبية » برزت ، ثانية ومن جديد ، « العصبية العربية » ، فنشرت صفحة طواها الاسلام .. بل لقد ذهبت هذه العصبية فأحيت ما بين القبائل العربية من مفاخر وثورات وعصبيات دعا الرسول إلى تجاوزها وتركها ، لأنها « منتنة » ، كما قال عليه الصلاة والسلام ..!

وإذا كانت « الشعوبية » قد أغرت غير العرب ، في الدولة العربية ، بتقطيع أوصالها ، فبدأت حركة الاستقلال للأطراف — كاملا أو منقوصا — عن المركز — الخليفة — .. فإن « العصبية العربية » ، والاختلاف في نهج الحكم وسياسة الأمة ، قد دفع تيارات فكرية وسلالات قبلية إلى حمل السلاح واشعال الثورات ضد المركز — الخليفة — .. فانضم إلى صراع « الشعوبية — الأعجمية » ضد « العصبية العربية » ، صراع « الخوارج » ضد على بن أبى طالب [٢٣ ق.هـ . ٦٠٠ هـ - ٦٦١ م] وضد الأمويين والعباسيين .. وصراع « العلويين » ضد بنى أمية وبنى العباس .. وهو صراع امتد بالتمزق إلى داخل الدولة ، فلم تعد الأخطار مقصورة عند حدود استقلال الأطراف ، بل امتدت ، في شكل ثورات ، قطعت روابط الوحدة ، حتى على مقربة من المركز — الخليفة — ..

وأمام هذه الأخطار فكر الخليفة العباسى المعتصم [١٧٩ - ٢٢٧ هـ ٧٩٥ - ٨٤١ م] وقدر ، ثم أقدم على الخطأ المحورى والقاتل في التطور الحضارى لهذه الأمة ، عندما ظن أن السبيل إلى مواجهة الصراعات بين أجناس الدولة هو تكوين القوة العسكرية الضاربة لهذه الدولة من عنصر غريب عن أجناسها ، مقدرا أن هذا العنصر — الترك المماليك — لغربته في الجنس ، لن يكون طرفا في هذه الصراعات ، إذ لامصلحة له فيها .. ولغربته في الحضارة ، لن يكون طرفا في المنطلقات القومية التى تغذى هذه الصراعات بمادة مستقاة من الموارث الحضارية لأطراف هذه الصراعات ..!

لكن هؤلاء الجند الترك المماليك ، الذين بدأت مؤسستهم العسكرية في صورة معسكر

« سامراء » ، تابع لبغداد وخليفتها ، سرعان ما تضخمت مؤسستهم العسكرية هذه ، تبعا لاتساع مهام مواجهة الثورات والانشقاقات ، حتى أصبحت « سامراء » هى العاصمة ، فتبعها بغداد ، وحتى تحولت الخلافة إلى لعبة بيد قادة هؤلاء الجند ، فرضوا عليها التسلط والسلطان ، منذ عهد الخليفة العباسى المتوكل [٢٠٦ - ٢٤٧ هـ ٨٢١ - ٨٦١ م] الذى استنوا بقتلهم له سنة سيئة طبعت العصر العباسى الثانى ، وغدت 'قسمة' من أبرز القسيمات فى عصر المماليك .!

ولقد كان هذا « التبدل » الذى طرأ على طبيعة السلطة الحقيقية والفاعلة فى الدولة العربية الاسلامية « تحولا فى تطورنا الحضارى » ، أصاب قسما « العروبة » و« العقلانية » فى الصميم ... وبهذا التحول بدأ العد التنازلى — وإن فى بطء وتعرج ولولبية — لظاهرة الازدهار الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية ، ففيه تجسدت عوامل الضعف التى طرأت على هذا الازدهار الحضارى ، وبه أصيب هذا الازدهار فى الصميم .. فدخلنا ، حضاريا ، عصر « الجمود » ، « فالتراجع » ، « فالانحطاط » .!

ثم جاءت الأخطار الخارجية ، صليبية وتترية ، لتنضم إلى أخطار التمزق الداخلى ، فزادت من الضرورات التى أجبرت الأمة على تسليم المقود هؤلاء العسكر الغرباء .. فأمام الخطر المدمر رجحت كفة « السيف » على « القلم » ، وغدت الأفضلية « للقوة » لا « للعقل » — وكان « السيف » وكانت « القوة » بيد هؤلاء العسكر الغرباء عن حضارة هذه الأمة — فاختل التوازن بين « السيف » و« القلم » ، وفقدت هذه الحضارة سمة « التوسط والوسطية » ، والجمع والتأليف الذى يثمر الموقف الثالث والجديد ... ثم كان امتداد هذه الأخطار الخارجية قرونا ، سببا امتد بهذه السلبيات ، التى نخرت فى روح حضارتنا ، لعدة قرون ، حتى وجدنا تلك « الظاهرة المأساوية » تمتد فى تطورنا الحضارى منذ سيطرة الترك المماليك التى بدأت [سنة ٢٢١ هـ سنة ٨٣٦ م] فى « سامراء » ، عبر كل دول العسكر المملوكية ، بل وعلى امتداد حكم الدولة العثمانية ، أى حتى عصرنا الحديث ...

هكذا تراجعت عوامل « الإحياء الاسلامى » — التى نهضت بهذه الأمة فأخرجتها من ظلمات الجاهلية إلى نور الحضارة وتنويرها .. وعن هذا العامل المحورى فى هذا التراجع الحضارى يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] :

« انظر ، كيف صارت مزية من مزايا الإسلام سببا فيما صار إليه أهله : كان الإسلام ديناً عربياً ، ثم لحقه العلم فصار علماً عربياً ، بعد أن كان يونانياً ، ثم أخطأ خليفة عباسى فى السياسة ... فظن أن الجيش العربى قد يكون عوناً لخليفة علوى ... فأتخذ له جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرهم ... وأكثر من ذلك الجند الأجنبى ... فلم تكن

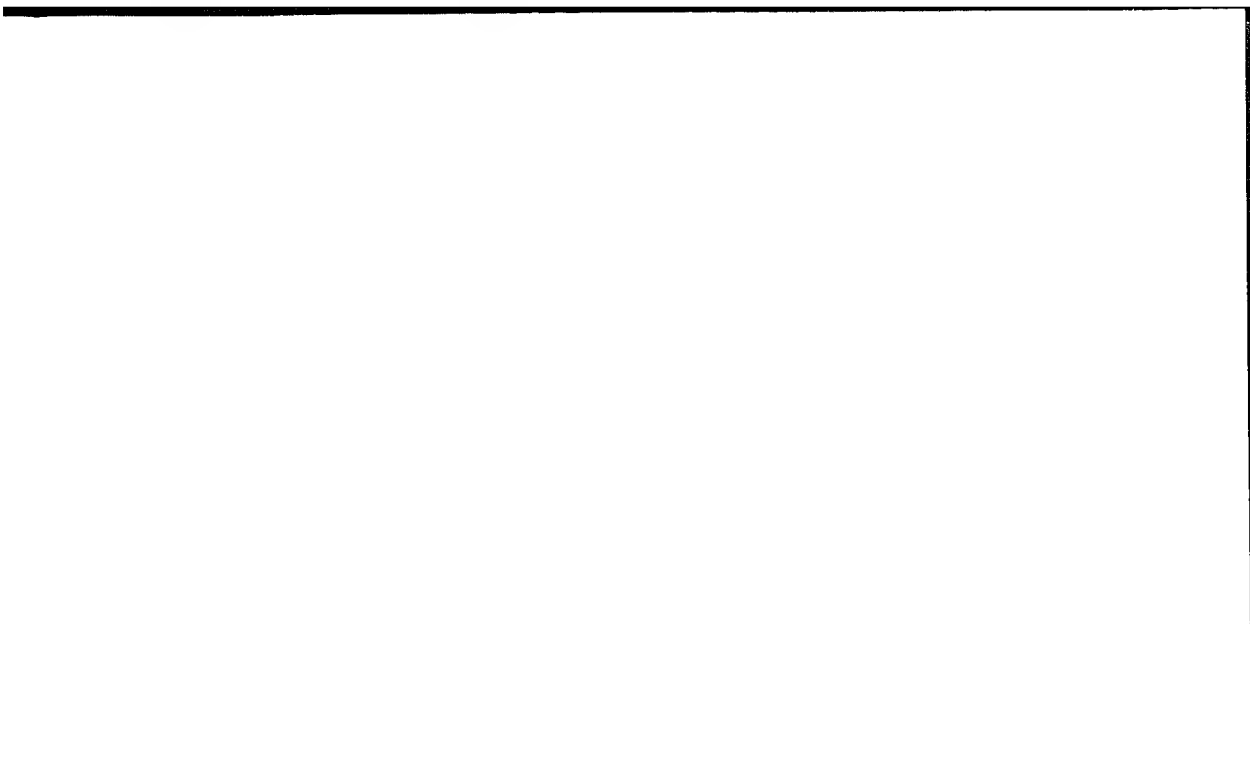
إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة في قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام ، والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الإسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم ... هناك استعجم الاسلام وانقلب أعجميا ...! ^(١٠)

وعن هذا العامل أيضا يتحدث الامام الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] وهو يرصد « أهم عوامل التحلل في كيان الدولة الاسلامية » فيقول : إن من أهم هذه العوامل « انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الاسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه فهذا الاسلام الخفيف قد نشأ عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان ... وقد جاء في الأثر : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » ... فالعرب هم أمة الاسلام الأولى وشعبه المتخير ، ولن ينهض الاسلام بغير اجتماع كلمة العرب ونهضتهم ... ولقد حدث التحلل في كيان الدولة الاسلامية حين دال سلطان العرب السياسى ، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم ، فالعرب هم عصبية الاسلام وحراسه ... ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لا بد منه لإعادة مجد الاسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه ... » ^(١١)

هكذا — ولهذه العوامل — تراجعت نهضتنا الحضارية ، وامتد هذا التراجع حتى القرن الثالث عشر الهجرى — الثامن عشر الميلادى ..

(١٠) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص ٢١٧ ، ٢١٨ . دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(١١) حسن البنا . رسالة « بين الأمس واليوم » و « رسالة المؤتمر الخامس » [مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا] ص ١٣١ ، ١٧٦ . طبعة دار الشهاب . القاهرة .



الفصل الأول

الصحوة الإسلامية

لكن أمة نشأت وتبلورت واشتد عودها في بوتقة الصراعات مع التحديات ، ما كان لها أن تهجر ، نهائيا ، سبيل « الإحياء الاسلامي » ، وتستسلم ، أبدا ، لما طرأ على حياتها من « موات حضارى » ... خصوصا وأن إسلامها قد ظل ، رغم التخلف الحضارى ، هو فكرية جمهورها ، وموطن قداسها ، والمعيار الذى تزن به الصالح والطالح وتميز به ما بين النافع والضار ، والخطأ والصواب ...

صحيح أن البدع والخرافات قد تراكمت على جوهر الاسلام ، حتى استكن ، فغدا محتاجا إلى « التجديد » الذى يجلوه كى يعود إلى الفعالية المناسبة مع ما يملك من طاقات

وصحيح أن سلطانه قد انسحب من دوائر « الفعل » إلى دوائر « الكمون » ، وبدت آثاره في « الشكل » و« الشعائر » أكثر مما هي في « المضمون » وتشكيل حياة المسلمين ...

وفي اللحظة التى بدأت فيها الدولة العثمانية [٦٩٩ - ١٣٤٢ هـ ١٢٩٩ - ١٩٢٤ م] تفقد ميزاتها وكفاءتها — أى القوة التى جعلت منها جدارا آخر الاجتياح الاستعمارى لوطن العروبة وعالم الاسلام — وعندما امتلأ هذا الجدار بالثغرات التى نفذ منها الغرب الاستعمارى ، بالامتيازات الأجنبية ، وبالتقليد لحضارته الذى سمي « تحديثا » ، عند ذلك اختلج ضمير هذه الأمة ، واستيقظت حواسها ، وتنبت مشاعرها على وقع موجة جديدة وحديثة من موجات التحدى الحضارى التاريخى والقديم .. موجة الغزوة الاستعمارية الأوروبية الحديثة ، التى بدأت بحملة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] على مصر [سنة ١٢١٣ هـ سنة ١٧٩٨ م] والتى امتدت بعد ذلك إلى الشام ..

وكما كان الاسلام هو باعث هذه الأمة وصانع يقظتها فى القديم .. كذلك رآه قادة اليقظة والصحو الحديثة الباعث والصانع للصحو المرجوة ، التى لا بد منها كى لا تسقط

الأمة — بعد عجز العثمانيين وإفلاس قوتهم العسكرية — تحت أقدام الصليبية الأوربية الحديثة ...

ومنذ البداية ، كان واضحا لدى طلائع اليقظة الاسلامية العربية أن السبيل إلى الإحياء والصحة والنهضة هو سبيل إسلامي ، يستهدف تجديد « دنيا » المسلمين بتجديد « دينهم » ، وأن هذا العمل التجديدي لا بد وأن يواجه الخطرين ، المتعارضين في الظاهر ، والقاتلين كليهما لعوامل الصحة وطاقات الإحياء :

● خطر التخلف « المملوكى — العثمانى » الذى غدا قيذا على عقل الأمة وحركتها ، حتى جعلها فريسة سهلة تغرى الغازى الأوربى بالالتهايم والاحتواء ..

● وخطر « التقدم الأوربى » : الذى جاء مسلحا بالحضارة الأوربية المادية وثورتها الصناعية وتقدمها العلمى وقوتها العسكرية .. يريد معالجة هذه الأمة كى لاستيقظ فتتجوز من خطر التخلف العثمانى وخطر تقدم الأوربيين !..

ولقد حسب العثمانيون ، ومن نحا منحهم فى النظر والتقدير والتدبير ، أن السبيل إلى تجنب شرك الغزوة الأوربية هو الانكفاء على الذات — التى كانت قد تشوهت حضاريا — والعرض على الموروث بالنواجر — والموروث هنا كان ميراث عصر التراجع والانحطاط — ...

بينما حسب الذين انبهروا بانتصارات الحضارة الأوربية أن سبيل النجاة من التخلف العثمانى ، وتقليل مضار الغزوة الأوربية ، كامن فى أن نسعى لتكون أوربيين ، نفكر كما يفكرون ، ونحيا كما يحيون ، ونصيب كما يصيبون ونخطئ كما يخطئون ؟! ..

لكن الذين تمثلت فيهم خصائص هذه الأمة ، وتحسدت فى مسعاهم قسماتها ، وشرفوا بالتعبير عن ذاتيتها وأصالتها ، قد رأوا سبيل اليقظة والصحة متمثلا فى التصدى للخطرين وللتحديين معا : التخلف « المملوكى — العثمانى » .. و « التقدم الأوربى » .. فبنفيهما ، وبالإخلاص من آثارهما تستطيع الأمة أن تتخلص من « الوافد — الضار » ، ومن ثم تعود إلى خير ما فى ترسانتها الحضارية وكنوز تراثها ، فتبنى نهضتها الحديثة ، امتدادا متطورا لعصر الازدهار الحضارى الذى صنعه أسلافها العظام ...

لقد أدرك تيار الصحة الإسلامية أنه أمام تحد حضارى ينوش ذاتية الأمة ويسعى للحيلولة بينها وبين الانعتاق والانطلاق ، وأحد جناحي هذا التحدى مائل فى قيود التخلف المملوكى العثمانى ، التى طرأت على مسيرة الاسلام والمسلمين الحضارية فدنت نارها المتوهجة وضوءها المتألق تحت الرماد .. فلا بد — للبعث الإسلامى — من كسر هذه القيود .. أما الجناح الثانى لهذا التحدى فتمثل فى « التفريب » الأوربى ، القادم فى

ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة ، يغى سحق الشخصية القومية المتميزة للأمة ، وإفناء طابعها الحضارى الخاص ، أو تشويهه ، سعيا إلى تحويلها إلى « هامش حضارى » للمركز الأوربى ، ليس مجرد العنصرية والاستعلاء ، وإنما ضمانا لتأييد وتأييد أهداف هذه الغزوة التى أرادت وتريد : نهب الثروات ، وجعل بلادنا سوقا لسلعهم ، وشعوبنا أيد عاملة رخيصة ، وتحويل الأرض إلى قواعد عسكرية تحمى هذا الاستنزاف والاستغلال .. أى جعلنا هامشا لأوربا فى الاقتصاد والأمن ... وهم ، بهذا « التهريب » ، قد أرادوا تفادى مصير غزوتهم الصليبية الوسيطة [٤٨٩ - ١٠٩٦ هـ ١٢٩١ م] يوم انتهت آثارها بتحرير أرضنا من حصونهم وقلاعهم وكياناتهم الاستيطانية .. فأرادوا ، هذه المرة ، « بالتهريب » تأييد تبعيتنا لهم حتى بعد اضطرابهم إلى الجلاء عن بلادنا ١٩ ..

وأمام هذا التحدى الحضارى المزدوج أدرك تيار الصحوة الإسلامية أن الأمة فى منعطف تاريخى يشبه كثيرا ذلك الذى واجهته عندما ظهر الاسلام .. فالعرب ، بالاسلام وتحت أعلامه ، قد واجهوا الغزوة البيزنطية ، التى استفادت من ضعف الفرس وعجزهم عن قيادة الشرق وحمايته فسيطرت سلطانها وتسلطها على أغلب أجزاء الشرق ... وفى ذات الوقت واجهوا الجاهلية الفارسية ، التى تحولت بالجهالة والظلم والعجز إلى قيود وأغلال فى أعناق الذين أصابهم تسلطها وسلطانها .. واجهوا هذا التحدى الحضارى بمناهجه ، وكان لواء القيادة معقودا للعرب ، كى يقودوا الشرق ، بالاسلام وتحت راياته ، لمواجهة هذا التحدى .. فكان انجازهم العسكرى والسياسى والحضارى العملاق ..

أدرك تيار الصحوة الإسلامية تلك الحقيقة التاريخية ، وآمن أن هذا « القانون » الذى حكم نهضة هذه الأمة قدما لأبد وأن تتاح له سبل العمل لإنهاضها اليوم من جديد .. فلن يصلح حاضرا هذه الأمة إلا بما صلح به ماضيها .. فبالاسلام ، وبالعرب طليعة لأئمة وشعوبه يمكن ويجب التصدى لهذا التحدى الحضارى — « الجديد — القديم » — بمناهجه :

- التخلّف « المملوكى — العثماني » ... الذى أصبح قيّدا فى أقدام الأمة وأغلالا فى أعناقها .
- والتقدم الأوربى ... الزاحف ليحتوى ذاتيتها الحضارية ، ويمسح هويتها القومية كى يؤبد ما أراد لأرضها وإنسانها من نهب وسيطرة واستغلال .

* * *

وعلى امتداد قرنين من الزمان — هى عمر تيار الصحوة الإسلامية هذا — يستطيع الباحث عن رموز هذا التيار ومعالمه ، وعن فصائله ومدارسه ، وعن تنظيماته وجمعياته ، أن يميز ويصنف العديد من الفصائل والجماعات ، وأن يرصد تمايزا فى الفكر بداخل تيار

الصحوة الإسلامية هذا ... وهو مبحث على جانب كبير من الأهمية ، لأنه يتجاوز بقيمته « الدرس التاريخي » إلى حيث يصبح « درسا للحاضر » و« توجيها للمستقبل » ، مستقبل تيار الصحوة الإسلامية ، الذي لم يبلغ هدفه حتى هذا التاريخ ١٩٠٠.

إن أمتنا مازالت تواجه التحدي الحضاري ... صحيح أن التخلف العثماني قد زال من طريقها .. ولم يبق من آثار فكرية العصور المملوكية العثمانية إلا بقايا تعشش في عقول أفراد ومناهج مؤسسات وصفحات كتب هي أشبه ما تكون بأحجار متلكئة — شذوذاً — من زمن مضى في مجرى تطور التاريخ ... لكن الخطر الحقيقي والرئيسي هو خطر السيطرة الاستعمارية « والتغريب » الذي وضع أمتنا في قيود التبعية لأعدائها التاريخيين ... بل إن هذا الاستعمار وذلك التغريب هو الذي نهض بالدور الرئيسي في إزاحة التخلف العثماني من الطريق ، ليرث مكانه ، وليلأ فراغه ، وليحل « تغريبه » محل الفكرية التي تميز بها عصر المماليك والعثمانيين .. أي أن الاستعمار وتغريبه هو الذي انتصر في السباق الذي قام بينه وبين تيار الصحوة الإسلامية .. السباق على وراثة عصر وتركة دولة « الرجل المريض » ، فكانت الغلبة في هذا السباق وذلك الرهان لسيطرة الاستعمار وتيار « التغريب » ... ومن ثم فالمعركة مازالت قائمة ، بل ومحتدمة ، بين الصحوة الإسلامية وبين التحدي الحضاري . وهو غرقي في الأساس — وسواء أكان ليبرالياً أو شمولياً — ... ومن هنا تبرز أهمية الدراسة لمعالم ورموز وفصائل تيار الصحوة الإسلامية ، باعتبارها دراسة تتعدى حدود « الدرس التاريخي » لتصبح زادا للفصائل الحاضرة لهذه الصحوة يعين على تعميق الفهم ، واكتشاف الأخطاء ، وتبين المخاطر ، والرؤية الواضحة التي تجعل الاسلام دليل عمل للحركة الإسلامية ينير لها الطريق إلى تجديد حياة الأمة وإنهاضها من المأزق الذي هي فيه ..

* * *

وإذا كانت الصحوة الإسلامية اليوم تواجه تحدياً حضارياً غربياً ، في الأساس — ليبرالياً كانت قسمته أو شمولياً — .. فلقد كانت بدايتها الأولى مواجهة مع التخلف العثماني في الأساس .. إذ لم يكن في موطن هذه البداية — « نجد » بشبه الجزيرة العربية — حيث ظهرت الدعوة والحركة الوهابية — لم يكن هناك من خطر غرقي بارز أو ملحوظ

● فالوهابية : التي اشتهرت تسميتها هذه نسبة إلى داعيتها وشيخها محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م] قد كانت طليعة دعوات اليقظة الإسلامية العربية ، وأول إرهاصات عصر أمتنا الحديث ...

تبلورت « دعوة دينية سلفية » ، تدعو للعودة إلى الاسلام كما فهمه العرب الأوائل من

نصوص قرآنه الكريم ... صحيح أن نطاق سلفيتها هذه ، بسبب من بساطة البيئه وبدائيتها ، وبسبب من المنهج النصوصى الذى ورثته عن الحركة السلفية التى تبلورت من حول الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م] وفكره ، قد كان نطاقا ضيقا ، جعلها تسقط من تراثنا الإسلامى والحضارى المنهج العقلى علومه وما تأسس عليها من تمدن — وتلك واحدة من أبرز سلبياتها التى حصرت تأثيرها الحقيقى فى بيئتها البدوية البسيطة — ... لكننا عندما نتدبر الواقع الذى مثل التحدى الذى استنفر هذه الدعوة واستنهض همه شيخها ودعاتها ومقاتليها ، لا نجد بذلك الواقع تيارا عقلانيا قامت الوهاية لتتحداه .. فالذى كان هناك ، والذى نهضت الوهاية لتجاهد ضده كان البدع والخرافات والشعوذة التى غطت بركامها الغريب على جوهر الاسلام ، حتى لقد كادت أن تطمس أعظم ما يتميز به هذا الدين ، وهو نقاء عقيدة التوحيد ... وهذا الركام الوافد والطارىء على عقائد الاسلام ، كان يمثل ، يومئذ ، قسمة من قسمات « الفكرية العثمانية » .. والذين يراجعون سيل الكتب التى صنفت يومئذ للرد على تجديد الوهاية يدركون جيدا أن صراعها الرئيسى قد كان ضد التخلف العثمانى ، المتمثل ، أولا ، فى الفكرية التى كرسست ، بل وقدست ما طرأ على جوهر عقائد الاسلام من بدع وخرافات وإضافات^(١) .. فالسلفية الدينية التى سلكتها الوهاية سبيلا لتجديد عقائد الاسلام الدينية ، كانت تعنى تحرير الضمير المسلم من ذلك الوافد الغريب والضرار ، ومن ثم العودة بالدين — وبالذين يؤمنون به — إلى موقع التميز الحضارى ... وإذا كان المفكر السلفى ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] قد جعل من عبارة : « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم » عنوانا لأحد كتبه فإن « الصراط المستقيم » الذى دعا إليه ابن عبد الوهاب كان يعنى مخالفة الفكرية السائدة فى الدولة العثمانية ، بل ومجاهبتها بالتحدى !..

ثم إن الوهاية لم تقف عند حدود « الدعوة التجديدية » ، بل ذهبت فأقامت لها « دولة » إسلامية عربية ، فكان ذلك — على الجبهة السياسية — تحديا آخر لما يمثلته العثمانيون فى واقع الأمة بذلك التاريخ ...

والذى يزيد من أهمية هذا « التحدى السياسى » ، أن الوهاية ، كحركة سلفية ، كانت تتبنى الموقف السلفى الذى يرى فى « قرشية » الإمام والخليفة شرطا ضروريا .. ذلك هو موقف إمامها أحمد بن حنبل ، الذى يؤكد فقهاء أبو يعلى الفراء [٣٨٠ - ٤٥٨ هـ

(١) أنظر — على سبيل المثال — : [كتاب مصباح الأنام وجلاء الظلام فى رد شبه البدعى النجدى التى أضل بها العوام] تأليف علوى بن أحمد بن حسن بن قطب الحداد . وكذلك [رسالة فيما يتعلق بأدلة التوسل بالنبي وزيارته] تأليف أحمد بن زينى دحلان — وهى مطبوعة هامش الكتاب الأول — طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

٩٩٠ - ١٠٦٦ م] عندما يشترط أن يكون الخليفة « قرشياً في الصميم »^(٢)! وموقف فكري كهذا لا يمكن إلا أن يكون تحدياً لمشروعية خلافة آل عثمان على المسلمين ، وعلى العرب منهم على وجه الخصوص !..

هكذا كانت الوهابية طليعة فصائل الصحوة الإسلامية ، عندما تصدت بالسلفية الدينية المجدة ، وبالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد ، تحدياً لطمح الفكرية العثمانية المتخلف ، الذي مثل — في أقدام الأمة واعناقها وعقولها — قيوداً وأغلالاً تغرى الغزاة الأوربيين بالزحف على ديارها .. كما كانت بالتوحيد الخالص ، الذي دعت إليه وبشرت به ، إسهاماً طيباً في إعادة روح التميز والاستقلال إلى البناء الحضارى لأمتنا على جبهة العقائد والشعائر الدينية ... فهى واحدة — بل وطيعة — في تيار الصحوة الإسلامية الحديثة^(٣) ..

● والسنوسية : التى كونها إمامها : محمد بن على السنوسى [١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ - ١٨٥٩] كانت الثانية فى فصائل الصحوة الإسلامية الحديثة ... ولقد تميزت عن الوهابية بصراعها ضد المد الاستعماري الغربى ، الذى كان يزحف على موطنها — فى ليبيا وفى جنوبها — من الشمال والغرب والجنوب .. وشاركت الوهابية فى الدعوة إلى عروبة الخلافة ، وهى وإن لم تقا تل العثمانيين — كما صنعت الوهابية ، لتغاير الظروف والدواعى — إلا أنها كانت تحدياً لطمع الفكرى وعجزهم المسيطر ، كما كانت تحدياً للوافد الغربى الاستعماري ، احتلالاً ونهباً وتغريباً ..

كما تميزت السنوسية عن الوهابية بتميز قسمة الاجتهاد فيها ، فلقد مزجت السلفية النصوصية بشئ من براهين العقل ، واتخذت من التصوف سبيلاً لتهديب النفوس !.. وبـ « الزوايا » التى أقامتها السنوسية خلقت مجتمعها المتميز ، فكانت العقيدة سبيلاً للحركة ، صنعاً معاً مجتمعاً جديداً ..

ونحن عندما نقرأ كلمات السياسى الاستعماري الفرنسى جابريل هانوتو G. Hanotaux [١٨٥٣ - ١٩٤٤ م] عن السنوسية ، نجده يتحدث — فى حقد غاضب — عن كفاحها للمد الاستعماري الغربى .. فهو يراها — بمنطقه وبتعبيره — « مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين » .. أى أن كفاح الاستعمار الأوربى هو « مبدأ تأسست عليه السنوسية » !.. حتى

(٢) انظر أبو يعلى الفراء : [الأحكام السلطانية] ص ٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م . و [كتاب الإمامة] ص ٣٤٠ ، ٣٤١ طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ م — ضمن مجموعة عناونها [نصوص الفكر السياسى الإسلامى — الإمامة عند السنة] نشرها الدكتور يوسف أبىش .

(٣) انظر ما كتبناه عن الوهابية فى كتابنا [تعديلات لها تاريخ] ص ١٤٩ — ١٥٦ طبعة بيروت سنة ١٩٨٢ م . وكتابنا [تيارات الفكر الإسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

لقد اتخذت موقف الحذر ، بل والمقاطعة أحيانا ، للدولة العثمانية بسبب انصياح هذه الدولة لدول الاستعمار الغربى ، بالعجز والقصور .. كما يتحدث هانوتو عن « كراهية السنوسية للمدنية الحاضرة » التى حملها المستعمرون الأوروبيون إلى بلاد الإسلام^(٤) ..

عندما نقرأ كلمات هانوتو هذه ندرك مكان السنوسية — فى مراحل شبابها وعطائها وثورتها — فى تيار الصحوة الإسلامية الذى عبر عن حيوية الأمة أمام التحدى الحضارى الذى واجهته على أعقاب عصرها الحديث^(٥) ..

● **المهدية :** هى تلك التى أسسها ، بالسودان ، إمامها محمد بن أحمد — « المهدى » — [١٢٦٠ - ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ - ١٨٨٥ م] .. كانت ثلاثة فصائل تيار الصحوة الإسلامية ، التى مثلت ، فى بيعتها المحلية أساسا وبالدرجة الأولى ، التصدى الفكرى والنضالى للتحدى الحضارى لأمتنا ، بخناحيه : التخلف العثمانى .. والتقدم الأورى باستعمارها وتغريبه ..

ولقد كان صراع المهدية ضد الاستعمار الغربى حادا وشاقا وطويلا .. ووضوحه وشهرته يغنيان عن التفصيل فى مثل هذا المقام ..

وكذلك كان صراعها ضد الأتراك العثمانيين .. فعداء المهدية للنظام الخديوى بمصر هو اثر من آثار عدائها للأتراك .. لأن تضامها مع المد الوطنى المصرى ، المتمثل فى الثورة التى قادها أحمد عرابى باشا [١٢٥٧ - ١٣٢٩ هـ ١٨٤١ - ١٩١١ م] واضح لكل دارسها .. بل إن المهدى ليذهب فى عدائه للترك العثمانيين إلى الحد الذى يجعل منه ديناً أوصاه به النبى ، ﷺ ، فى الرؤيا ، فيقول : « لقد حرضنى الرسول ، ﷺ ، على قتال الترك .. وجهادهم .. فالترك لا تطهرهم المواعظ ، بل لا يطهرهم إلا السيف ! »^(٦)

كذلك كانت المهدية حركة تجديد سلفية ، دعا إمامها قومه إلى إسقاط « ترهات فابت الزمان » ا وإلى « اتباع كلام الله فى القرآن » و« اقتفاء آثار من سلف من المهتدين السالفين ، على نهج محمد ، ﷺ » .. وقال لهم : « لا تعرضوا لى بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين ، فلكل وقت ومقام حال ، ولكل زمان وأوان رجال ! »^(٧) ..

(٤) انظر كتاب [الاسلام والرد على منتقديه] ص ١٨ — طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

(٥) انظر ما كتبه عن السنوسية بكتابتها [العرب والتحدي] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م . وكتابتها [تيارات الفكر الاسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

(٦) [مشورات المهدية] ص ٧٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ . تحقيق : د . محمد ابراهيم سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .

(٧) المصدر السابق . ص ٣١ ، ٢٢٨

فعلى بساطة إبداعها الفكرى ومحدوديته ، كانت سلفيتها تجديدا يتحدى التخلف العثماني ، ويعود بالأمة إلى حصنها العتيق — الاسلام — لتواجه التحدى الحضارى ، بجناحيه : العثماني المتخلف ، والاستعماري الغربى التغريبي^(٨) ..

لقد كانت هذه الدعوات والحركات الثلاث : الوهابية .. والسنوسية .. والمهدية — رغم بساطة فكرها السلفى التجديدى ، واختصاصها — عمليا — بالبيئة المحلية التى نشأت فيها — طلائع المد الاسلامى الحديث وبواكير الصحوة الاسلامية التى نهضت لتواجه التحدى الحضارى ، بجناحيه : التخلف العثماني .. والتقدم المادى الأوربي ... بل لقد رأت هذه الدعوات تلك الخيوط التى تربط هذين الجناحين ، فتؤلف منهما تحديا حضاريا واحدا ١٩ .. ولنتأمل كلمات الإمام الثانى للسنوسية ، وابن مؤسسها أحمد الشريف السنوسى [١٢٨٤ - ١٣٥١ هـ ١٨٦٧ - ١٩٣٣ م] التى تقول : « إن الأتراك قد أصبحوا » مقدمة النصارى « — [أى المستعمرين الأوربيين] — .. أما والده فهو القاتل : « الترك والنجارى ، إني أقاتلهم معا ١٩ »^(٩) .. « فالتخلف العثماني » قد جرد الأمة من إسلامها الثورى ، فلما أضيف إليه « العجز العثماني » عن مواجهة الغرب الاستعماري ، أصبح العثمانيون « مقدمة الغرب » — وبالمفارقة المأساوية — كما قال السنوسيون ، ومن ثم وجب التصدى لهذا التحدى الحضارى الذى « تألف » من هذين « النقيضين » معا ١٩ ..

وإذا كان النطاق المحلى قد حد من فعاليات دعوات وحركات اليقظة هذه ، فحجب تأثيرها عن أن يعم فيتحوّل إلى تيار إسلامى عربى عام ، وذلك لبداوة « الوهابية » التى جعلت تأثيرها الأفعال فى « نجد » وما حولها مما شابه ظروفها ... ولاستغراق « السنوسية » فى مناهضة التحديات التى أثقلت كاهلها حتى أعجزتها .. ولاتخاذ « المهدية » من « الأسطورة » سبيلا ألقت به وحدة شعب لم يتوحد قبل هذا التاريخ .. إذا كان هذا هو الطابع العام لها — والذى لا تنفيه تأثيرات محدودة لها هنا أو هناك — فإن الأمر لم يكن كذلك مع تيار اليقظة والتجديد الذى تبلور من حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] .. وهو التيار الذى مثل أبرز فصائل الصحوة الاسلامية الحديثة .. والذى عرف بتيار [الجامعة الاسلامية] .

(٨) انظر دراستنا عن المهدية بكتابتنا [العرب والتحدى] ص ١٧٥ - ١٩٤ . وبكتابتنا [تيارات الفكر الاسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

(٩) د . أحمد صدق الدجاني [الحركة السنوسية] ص ٢١٦ طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م . ولوثروب ستودارد [حاضري العالم الاسلامى] بتعليق شكيب ارسلان — ترجمة عجاج نوبهض . ج ١ ص ٢٩٩ . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

الفصل الثانى

الجامعة الإسلامية

في النصف الثاني من القرنين : الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي نشأ وتبلور تيار « الجامعة الاسلامية » ، الذى قدر له أن يكون أكثر تيارات الصحوة الاسلامية خطرا وفاعلية في عصرنا الحديث ..

فهو قد تبلور من حول فيلسوف الإسلام وموقف الشرق جمال الدين الأفغانى .. وكان الرجل جواب آفاق ، بحكم صداماته التى لا تنتهى مع رموز التحدى الحضارى الذى تواجهه الأمة ، استعمارية كانت تلك الرموز أو عثمانية .. ومن ثم فلقد امتد تأثير هذا التيار فشمّل ساحة الأمة الإسلامية ، ولم يقف عند حدود رقعة خاصة ، كما كان حال الوهابية ، مثلا ..

وكان الأفغانى صاحب عقل متميز ، لا نبالغ إذا قلنا إنه في الصف الأول من عقول النوابع الذين ازدان بهم تاريخ حضارتنا بعد أن صنعوا هذا التاريخ .. عقل صنفه فيلسوف مثل إرنست رينان Renan [١٨٢٣ - ١٨٩٢ م] مع ابن رشد وابن سينا والفارابى ! .. وهو قد استوعب تراث الإسلام في عصر ازدهار حضارته ، ووضع يده على عوامل التخلف التى طرأت على هذه الحضارة ، ثم نهض بعزم حديدى ، كان مضرب الأمثال ، يدعو الأمة إلى نهضة إسلامية . تقهر بها التحدى الحضارى المفروض عليها ، وتتجاوز بها المأزق الذى وضعها فيه أعداؤها ، وتصل بها الحاضر والمستقبل بعصر عطائها الحضارى العظيم ..

وكان الأفغانى يرى أن عبقرية حضارة الإسلام وامتيازها إنما يكمنان في تميزها عن غيرها من الحضارات ، تميزها « بالوسطية » التى وازنت وألفت بين ما يحسبه الآخرون في الحضارات الأخرى متناقضات لا سبيل إلى تعاشيها ، فضلا عن التأليف بينها في منظومة فكرية وحضارية وسلوكية واحدة .. والموازنة بين « العقل » و « النقل » ، بين « الغيب » و « الشهادة » ، بين « الحكمة » و « الشريعة » ، بين « الدين » و « الدنيا » ، بين « الدنيا » و « الآخرة » ، بين « الفرد » و « الجماعة » ، بين « المادية » و « الايمان » ، بين « الشك »

و« اليقين »، بين « السلم » و« الحرب » ، بين « السيف » و« القلم » .. الخ .. الخ ...
الخ ..

وكان الأفغانى يدرك أن التحدى الحضارى الذى تواجهه الأمة ، بجناحيه :

- العثمانى .. الذى استعصى على الإصلاح ، والذى فرض فكرية متخلفة — انتسبت إلى الاسلام زورا — على الأمة ، فغدت قيذا يعجزها عن المقاومة والنهضة ..
- والاستعمارى الغربى « الزاحف كالسيل الجارف والمدمر ، يسلب الأمة الأرض والثروة والأمن والهوية ..

كان يدرك أن هذا التحدى ، بجناحيه ، قد استقطب جمهور الأمة .. فعاتبها قد استناموا ، بالتقليد والتواكل ، لفكرية عصر المماليك والعثمانيين ، وأصبحت بضاعتهم الفكرية هى بضاعة عصر الانحطاط الحضارى ... أما الصفوة التى انهرت بحضارة الغازى المنتصر فلقد تملكها الوهم بأن سبيل النهضة هو تقليد الغرب ... فالكمل مقلد ، والنموزج الذى يقلدونه لا صلة له بما يميز هذه الأمة وما تمتاز به حضاريا ١٩ ... ولذلك كانت عبقرية الأفغانى ، وتيار « الجامعة الاسلامية » ، أن دعا الأمة إلى الموقف الثالث ، الراض لجمود مقلدى فكرية عصر الانحطاط .. والراض للذوبان الحضارى بتقليد حضارة الغزاة ...

أمام هذا الاستقطاب دعا الأفغانى إلى « الوسطية » « فكل المذاهب والمبادئ لها طرفان ، وخير الأمور أوسطها .. »^(١) ... وهذه الدعوة إلى هذه « الوسطية » — كما يقول الإمام محمد عبده : « قد خالفت رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم .. »^(٢) ... فهى تختلف مع — بل وتحدى — :

- الذين عكفوا على « الموروث العثمانى » ، حاسبين أن فيه النجاة من « التغريب » ..
- والذين اندفعوا إلى « التغريب » ، متوهمين أنه السبيل إلى النهضة والانطلاق ..

” ” ”

نقد التخلف العثمانى :

لقد حاولت « الجامعة الاسلامية » نقد أوضاع الدولة العثمانية بهدف إصلاحها ، والاستفادة بإمكاناتها فى الصراع ضد الخطر الرئيسى ، خطر الاستعمار والتغريب .. فلما

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤١٧ . دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣١٨ . دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

يفتت من الاصلاح لهذه الدولة ، علقت الآمال على قيادة العرب للصحوه والنهضة المرجوة .. وبعبارة الأفغانى : « لقد كاشفت السلطان عبد الحميد فى أكثر هذه المواضيع — [المتعلقة بإصلاح الدولة] — فى خلوات عديدة ، ولكنه كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له .. فحولت وجهى عن مالا يمكن إلى ما يمكن ، وفيه وقاية مابقى من أملاك السلطنة العثمانية فى غير أوروبا .. »^(٣)

ولقد ارتبط نقد تيار « الجامعة الاسلامية » للتخلف العثمانى بإبراز أهمية قيادة الأمة العربية للنهضة الاسلامية المرجوة .. فالمسار التاريخى لهذه الحضارة شاهد على أن التراجع قد بدأ عندما استعجمت « السلطة » فأصابت « الحضارة » بسهام هذه العجمة ، ولمكان العربية من الدين ، ولدور العرب فى تلقيه وفقهه ونشره ، وأيضا لإمكاناتهم الحاضرة ، بالقياس إلى بقية أمة الاسلام ، بل ولمكانتهم فى نفوس هذه الأمم ، لابد من دور متميز ، بل وقائد للأمة العربية فى هذه النهضة الاسلامية التى تستهدف النهوض بكل عالم الاسلام ..

إن استيلاء غير العرب — رغم إسلام هذا الغير — على السلطة قد كان ولا يزال عامل تراجع وتخلف واضمحلال ، يستوى فى ذلك أن يكون هذا الغير « الأتراك المماليك » ، أو « الديلم » أو « الأتراك العثمانيين » ! ..

وعن بدء هذه الظاهرة السلبية فى تاريخنا ، وما أحدثته فى تطورنا الحضارى ، يقول الامام محمد عبده عن سيطرة الترك فى العصر العباسى : « انظر ، كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سببا فيما صار إليه أهله : كان الاسلام ديننا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا ، بعد أن كان يونانيا ، ثم أخطأ خليفة عباسى فى السياسة ... فظن أن الجيش العربى قد يكون عوناً لخليفة علوى ... فاتخذ له جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرهم ... وأكثر من ذلك الجند الأجبنى ... فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسلام ، والقلب الذى هدبه الدين ، بل جاءوا إلى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شئ إلى وجدانهم ... هناك استعجم الإسلام والقلب أعجميا ! .. »^(٤)

أما الأتراك العثمانيون فلقد تشبثوا بعجمتهم ، ورفضوا الاستعراب .. بل وأمعنوا فى غرور العجمة إلى الحد الذى توهموا فيه إمكانية « تترك » الأمة العربية ، فحاولوا !؟ .. « لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما .. وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة .. ولو أن الدولة

(٣) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى | ص ٢٣٧ .

(٤) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده | ص ٣٠٧ ، ٢١٨ .

العثمانية اتخذت اللسان العربى لسانا رسميا ، وسعت لتعريب الأتراك ، لكانت فى أمنع قوة ..
إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين — [العربية والتركية] — النعرة القومية ، وزال داعى
النفور والانقسام ، وصاروا أمة عربية . بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين الاسلامى
من عدل ، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات ... كيف يعقل
تترك العرب ١٩ وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت ١٩ .. وكان اللسان العربى
لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر .. إن الأمة العربية هى « عرب »
قبل كل دين ومذهب ! .. »^(٥)

لقد شذ العثمانيون عن سلوك سبيل كل « الدول » غير العربية التى حكمت العرب ،
فالكل قد تعرب ما عدا العثمانيين « فإنهم لم يقبلوا أن يستعربوا . والمتأخرون منهم قبلوا أن
يتفرنسوا أو يتألمنوا » بتقليدهم للغرب ، فى الوقت الذى « يفتخرون فيه بمحافظتهم على غيرية
رعاياهم ! » كما يقول أحد أعلام « الجامعة الاسلامية » عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ -
١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م]^(٦) .. بل لقد أمعنوا فى هذا الخطأ القاتل حتى توهموا
إمكانية « تترك العرب » « وما أسفها سياسة وأسقمه من رأى ١٩ » كما يقول الأفغانى .

لقد انتقص موقف العثمانيين إزاء العروبة والاستعراب من قيمة إسلامهم ، إذ
حرمهم مما أعطاه الاسلام للأمة العربية عندما اعتنقت هذا الدين .. فعدم الاستعراب قد
أبقاهم بمعزل عن روح الحضارة الاسلامية ، وهو عربى ، وعن جوهر الحضارة العربية ،
وهو إسلامى ، ففقدوا ميزة التحضر بهذه الحضارة التى هى « عربية — إسلامية »
معا ١٩ .. وهكذا ظلوا « على بداوتهم الصرفة ، لم يتخذوا غير القوة المادية آلة ، ولم
ينقلوا سواها للبلاد التى فتحوها ... ولم يحسنوا من أعمال الدنيا غير « الحرب » ، وهم
فيما عدا ذلك ، وفيما يختص فى شئون العمران ، أقل روية وعملا من سواهم ! .. »^(٧)

لقد افتقدوا ، برفض الاستعراب ، الجانب الحضارى فى الاسلام ، وبقي تدينهم
بالاسلام فى إطار « الشكل » أساسا ، ولم يدخل بهم إلى رحاب « مضمون » التدين
بالاسلام ١٩ .. وذلك لما بين « الاسلام » الدين و« العروبة » من رباط عضوى وثيق ...
« نعم ، إنهم تدينوا بالاسلام على أبسط حالاته وأشكاله بكمال التعبد ، لكن على بعد سحق
فى فهم معانى القرآن وآداب اللسان . والعرب لو كانوا مثلهم ، لما استطاعوا أن يكونوا

(٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٦) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ٣٢٤ . دراسة وتحقيق : محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

(٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٢٤ ، ٢٣٦ .

أحسن أثرا منهم ، ولما كان لهم حضارة ولا مدنية ، وليقوا بداوة محضة ، همهم فتح البلاد للاستغلال ، وجمع الأموال للرفاه والترف ، أو للبخس والسرف ! ^(٨) .. « إن الأتراك لم يخدموا الاسلامية بغير إقامة بعض جوامع لولا حظ نفوس ملوكهم بذكر أسمائهم على منابرها لم تقم ١٩ » كما يقول الكواكبي ^(٩) ..

وإذا كانت هذه هي العلاقة العضوية بين « العروبة » وبين « الاسلام » .. وهي العلاقة التي جعلت « محمدا ، ﷺ ، رسول الانسانية .. ورجل القومية العربية ، والأمة العربية ، في آن واحد » والتي جعلت « الأمم التي تدين بالاسلام وتقبل هدايته ، تتكلم بلسان الاسلام ، وهو لسان العرب ، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلم لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الاسلام » — كما يقول قطب « الجامعة الاسلامية » عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م] ^(١٠) .. إذا كانت تلك هي علاقة « العروبة » « بالاسلام » فإن الدور المتميز والقيادي للعرب في النهضة المرجوة — عند تيار « الجامعة الاسلامية » — أمر لا ريب فيه « فالعرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية . إنهم أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا في الدين وقدوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوهم ابتداء ، فلا يأنفوا عن اتباعهم أخيرا .. » ^(١١)

لكن العثمانيين ، الذين رفضوا الاستعراب طريقا للتحضر ، وتلافيا للعجز عن الابداع في العمران ، وخروجاً من البداوة البصرية التي غلبت عليهم ، فأورثتهم الضعف أمام الغزوة الأوروبية الشرسة ، هؤلاء العثمانيون قد وقعوا في حبال الغرب ، بالضغط أو بالإغراء ، فالتقطوا « طعم التحديث الغربى » ، على حين رفضوا « الصورة العربية للتمدن الاسلامى » ! .. فمنذ شروعه في « التنظيمات » ، التي اتجهوا إليها قبيل منتصف القرن التاسع عشر اتجهوا « لتقليد التحديث الغربى » ، لكن فقر الجسم العثمانى في الحضارة ، جعله أشبه ما يكون بالجسد المحتضر ، عاجز عن تمثيل الطعام ، أيا كان هذا الطعام ، فلم يفده « التقليد » في الوقت الذى كان عاجزا فيه عن « الابداع » ! . وبعبارة الكواكبي : فلقد « اندفعت الدولة لتنظيم أمورها ، فعمطت أصولها القديمة ، ولم تحسن التقليد ولا الابداع ، فتشتت حاهلها ! » فلما اقترب القرن التاسع عشر من نهايته كانت قد فقدت ، أمام الغزوة الأوروبية ، ثلثي أملاكها ، بينما أشرف الثلث الباقي على الضياع ^(١٢) .. ويتزايد اتجاه العثمانيين

(٨) المصدر السابق . ص ٢٢٤ .

(٩) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي | ص ٣٢٥ .

(١٠) | كتاب آثار اس باديس | ص ٣ ، ١٩ ، ٢١ . إعداد وتصنيف د . عمار طالبي . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .

(١١) | الأسس الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي | ص ٣٥٨ .

(١٢) المصدر السابق . ص ٣٢٠ .

« للتحديث الغربى » ، تزايد تداخل الغرب فى شئون الدولة .. فبقى « الواقع » متخلفا ، يعيش فى العصور الوسطى ، بينما « تغربت » نخب اندفعت بعصبية « القومية الطورانية » لتضرب رباط الملة والدين الذى يجمع الأتراك بالعرب ، فاستفز ذلك العرب فابتلعت نخب منهم ذات الطعم ، وشب حريق الصراع الذى حذر منه الأفغانى عندما دعا إلى استعراش الأتراك .. فكان انهيار الامبراطورية لحساب الغرب أساسا ، أما فتات المائدة فكان للنخب المتغربة فى تركيا والدول العربية ! ..

لقد ارتبط « التخلف العثمانى » بـ « التغريب » ، بعضهما ببعض ارتباطا وجهى العملة الواحدة .. فالأول قد أتاح للثانى التسلسل .. والثانى قد حرس الأول وحافظ عليه حتى تحين ساعة الوفاة فيرث ما خلف من أملاك ! .. والامام محمد عبده يربط بين جناحي هذا التحدى ، حتى يجعل من الثانى عقوبة لمن رضى بالأول ! .. « فالمسلمون بسبب ابتداعهم فى دينهم ، وخطئهم فى أصوله ، وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله ، تسلط عليهم من يسلمهم نعمة لم يقوموا بشكرها ، وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه ، إلا إذا تداركهم الله بلطفه . وقد ابتلاههم الله بمن يلصق بدينهم كل عيب ، ويقرنه — إذا ذكره — بما يتبرأ منه ، ويعده حجابا بين الأمم والمدنية ، بل يعده نبع شقائهم وسبب فناءهم ! » (١٣)

نعم .. لقد اتهم « المتغربون » إسلامنا هذه الاتهامات .. لأن صورة الاسلام ، التى قدمها الجامدون المتخلفون ، لم تكن تمت بصلة إلى الاسلام الحقيقى ، الذى بلور الأمة وأبدع حضارة هى إحدى مفاخر الانسان عبر تاريخه الطويل ! ..

هذا عن نقد تيار « الجامعة الاسلامية » لـ « التخلف العثمانى » ، كأحد جناحي التحدى الحضارى الذى واجهته الأمة فى ذلك التاريخ ..

والتصدى للتغريب :

أما تصدى تيار « الجامعة الاسلامية » للمد « التغريبى » ، الذى زحف على بلادنا فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة ، فلقد شغل الحيز الكبير فى فكر هذا التيار ...

فالأفغانى — رائد هذا التيار — قد كان حربا على المد الاستعمارى الغربى أينما حل أو

(١٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده | ٣٠ ص ٢٣١ .

ارتحل .. بالسلاح ، وبالقلم ، وبالتنظيم ... في الأفغان ، والهند ، ومصر ، وفارس ،
والحجاز ، والسودان ، وتركيا ، والعراق .. الخ .. الخ ... وتنظيم [الحزب الوطنى الحر] ،
الذى أقامه ، سرىا ، بمصر فى سبعينيات القرن التاسع عشر الميلادى .. ثم تنظيم [العروة
الوثقى] ، السرى ، الذى تزعمه فى الثمانينيات ، والذى امتدت فروعه — [عقوده] — من
مصر والسودان إلى الهند ... كل ذلك كان بعضا من جهود هذا التيار ، تصديا لهجمة
الاستعمار على ديار الاسلام ..

وإذا كان الرجل قد قاد القتال ضد الانجليز فى أفغانستان .. ومهد للثورة المصرية التى
قادها أحمد عرابى فى مطلع الثمانينيات .. ودعا المصريين للعصيان المدنى ، وللثورة المسلحة
ضد الاحتلال الإنجليزى ... فإن كتاباته فى كشف أهداف الاستعمار ووسائله تشكل واحدة
من أعمق وأخلص وأرقى صفحات أدبنا السياسى الحديث ... إنه القائل : « أنرضى ، ونحن
المؤمنون ، وقد كانت لنا الكلمة العليا ، أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ؟! .. وأن يستبد
فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبا ، ولا يرد مشربا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب
فيها إلا ولاذمة ؟! بل كل همهم : أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ،
ويستخلف فيها ، بعدنا ، أبناء جلدته ، والجالية من أمته ؟! »^(١٤)

والخائن — عنده — ليس من يسلم بلاده للعدو ، وحده ، بل ومن يركن للدعة
حيث يستطيع زلزلة أقدام الغزاة .. « فلسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ، ويسلمها
للعُدو بثمان بخص أو بغير بخص — وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخص ! — بل خائن
الوطن : من يكون سببا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن ، بل من يدع قدما لعدو
تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ! »^(١٥)

والاستعمار الذى حاربه الأفغانى لم يكن الاحتلال العسكرى وحده ، ولا السيطرة
الإدارية والحكومية فقط .. فالرجل قد أبصر المضمون الاقتصادى لهذه الهجمة
الاستعمارية .. وأدرك دور الامتيازات الأجنبية التى منحتها للحكام المسلمون للدول
الاستعمارية ، دورها فى التمهيد للغزو العسكرى ، وفى تأييده وإطالة أجله .. فكتب يقول :
« إن مصدر الشقاء ومنبع البلاء فى الشرق وممالكه إنما كان من الامتيازات
الأجنبية ؟! »^(١٦) .. وعندما منح الشاه الايرانى ناصر الدين [١٢٤٦ - ١٣١٣ هـ ١٨٣١ -

(١٤) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٣٥٦ .

(١٥) المصدر السابق . ص ٥٠٢ .

(١٦) المصدر السابق . ص ٢٠٠ .

١٨٩٦م [المستعمرين الانجليز امتيازات أجنبية ، منها الأراضي ، والمباني ، والمياه ... ومنها إنشاء « بنك » يمسك زمام الحركة المالية في إيران ، أثار الأفغانى الشعب وعلماءه ضد هذه الامتيازات ، وتحدث عن « البنك » ودوره في السيطرة الاستعمارية التي تسلب الأمة مقدراتها ، فقال : « ... والبنك ! وما أدراك ما البنك !؟ هو إعطاء الأهلى كلية بيد عدو الإسلام ، واسترقاقه لهم ، واستملاكه إياهم ، وتسليمهم له بالرياسة والسلطان !؟ .. » (١٧)

وصراع الأفغانى ونضاله من أجل تحرير مصر — لما أبصر من دورها القائد — يحتل مكانا متميزا وبارزا في كفاحه العمل وكتاباتة السياسية^(١٨) .. وكذلك متابعاته لقضية السودان الوطنية^(١٩) .. وقس على ذلك ما صنع لتحرير الهند^(٢٠) .. وإيران .. وأفغانستان^(٢١) .. الخ .. الخ ..

أما في المغرب العربى فإن نضال تيار « الجامعة الاسلامية » — الذى تمثل في [جمعية العلماء المسلمين الجزائريين] ، بقيادة ابن باديس — هو الذى أنقذ هذه البلاد من « الفرنسة » ، وصد عن ذاتيتها الحضارية ذلك السحق الذى مارسه الفرنسيون بوحشية فاقت كل التصورات .. ثم تصاعد هذا النضال حتى حمل الثوار السلاح فحرروا الأرض وأعادوا الأمة إلى أحضان العروبة والإسلام^(٢٢) ..

أما « التغريب » و« التحديث الغربى » ، اللذين تمثلت فيهما « روح الحضارة المادية الغربية » ، واللذين حملهما الاستعمار إلى بلادنا في ركاب غزوته الحديثة ، فزرعهما في « العقل » وفي « الواقع » ، وساعد على تبلور تيار من « الضفوة » يؤمن بهما ، ويبشر بطريقتيهما سيلا وحيدا للنهضة .. أما هذا « التغريب » وذلك « التحديث » ، فلقد كان لهما نصيب ملحوظ في فكر تيار « الجامعة الإسلامية » ، كشفا وتعريه وتحذيرا وتفنيدا ..

فحضارة الغرب — كما يقول الكواكبي — حضارة مادية ، والانسان « الغربى :

(١٧) المصدر السابق . ج٢ ص ٢٧٤ — من الطبعة الثانية لأعماله الكاملة . بيروت سنة ١٩٨١ م .

(١٨) المصدر السابق . ج٢ ص ٩٥ - ٢٠١ .

(١٩) المصدر السابق . ج٢ ص ٢٠٥ - ٢٦١ .

(٢٠) المصدر السابق . ج٢ ص ٢٨٩ - ٣٠٨ .

(٢١) المصدر السابق . ج٢ ص ٢٦٥ - ٢٨٥ .

(٢٢) انظر الفصل الذى كتبه عن « ابن باديس » بكتاتبا | مسلمون ثوار | ص ٢٣٥ - ٢٧٤ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .

مادى ، لادين له غير الكسب»^(٢٣).. فبينها وبين حضارتنا «الوسطية» خلاف بين ..
فحضارتنا ، والاسلام جوهرها ، قد جمعت ووازنت ما بين «المادة» و«الروح» .. وكما
يقول الامام محمد عبده : « .. فلقد ظهر الاسلام ، لا روحيا مجردا ، ولا جسديا
جامدا ، بل إنسانيا وسطا بين ذلك ، آخذا من كل القيلين بنصيب ، فتوفر له من ملائمة
الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ، ولذلك سمي نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه
اليوم ، وعدوه : المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية ! »^(٢٤)... فطريقنا
إلى النهضة الحضارية ليس طريق الغرب و«التغريب» !..

وإذا كانت الحضارة الغربية قد قدمت ، وتقدم — فى الفكر الاجتماعى :

● « الليبرالية — الرأسمالية » : التى تغلب جانب « الفرد » على « المجموع » إلى الحد
الذى أثمر ذلك الحقد المدمر بين الطبقات ..

● « والشمولية — الاشتراكية » : التى هى رد الفعل الحاقدا على المظالم الاجتماعية
« للبراليتم — الرأسمالية » — الأمر الذى يهدد اجتماعات الغربية بالكوارث ...

فإن تيار [الجامعة الاسلامية] قد قدم عدل الاسلام الاجتماعى ، المركز فى الدين
والمستسق مع طبيعة الأمة ، والبرىء من تطرف « الإفراط » و« التفريط » كليهما ..

« فالاشتراكية الغربية — [برأى الأفغانى] — ما أحدثها وأوجدها إلا حاسة
« الانتقام » من جور الحكام والأحكام ، وعوامل الحسد فى العمال من أرباب الثراء ،
الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم .. واستعملوا ثروتهم فى السفه ... وهى الآن محض
ضرر ، بعد أن كان المنتظر منها كل نفع .. فكل عمل يكون مرتكزا على الإفراط لابد وأن
تكون نتيجته التفريط ؟! ...

ثم يمضى الأفغانى ليعرض للفكر الاجتماعى الاسلامى المتميز ، فيقول : « أما
الاشتراكية فى الاسلام ، فهى ملتزمة مع الدين الاسلامى ، ملتصقة فى خلق أهله ، منذ
كانوا أهل بدواة وجاهلية ! .. »

ثم يضرب الأمثلة على تطبيقات الاسلام بميدان « الاشتراك » فى الثروة ، دون تجريد
الناس منها بـ « إخاء ومؤاخاة » الرسول ﷺ ، بعد الهجرة ، بين المهاجرين والأنصار ...
ويخلص إلى أن تطرف الفكر الغربى ، قد جعل الاشتراكية هناك « كلمة حق يراد بها
باطل » ! .. بينما هى فى الاسلام وسط .. وخير الأمور أوساطها .. ولذلك « فهى عين

(٢٣) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ٢٠٨ .

(٢٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ص ٣٠٢ .

الحق ، والحق أحق أن يتبع ! .. »^(٢٥)

أما معالم هذه « الوسطية الإسلامية » في الفكر الاجتماعي ، لدى تيار [الجامعة الإسلامية] فيمكن تعديدها في :

- أن الإسلام يجعل المال ملكا لله .. والناس مستخلفون في هذا المال .. أى أن « ملكية الرقبة » لله .. وللناس فيه « ملكية المنفعة » ، التى هى « الوظيفة الاجتماعية » للمال ..
- أن تكافل الأمة الإجتماعى هو البديل والعاصم من الصراع الطبقي المدمر لوحدة الأمة وتضامنها .. فعندما يلمح الامام محمد عبده إضافة القرآن المال لضمير الجمع في سبع وأربعين مرة ، على حين أضيف لضمير الفرد سبع مرات فقط .. يقول : « إن الله ينبه بذلك على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها ، فكأنه يقول : « إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم »^(٢٦) ! ..

والكواكبي يرى أن المال مستمد من « فيض الله ، أودعه في الطبيعة ونواميسها .. » والعمل هو السبيل للاختصاص بشيء منه « فالمال هو قيمة الأعمال ، ولا يجتمع في يد الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والخداع .. والأرض الزراعية ملك لعامة الأمة ، يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط .. »^(٢٧) ! ..

فتميز فكر الجامعة الإسلامية عن « فكرية التغريب » على هذه الجبهة أيضا ! ..

وإذا كانت الحضارة الغربية لم تعرف « الوسطية الإسلامية » التى ألفت بين ماعد هناك متناقضات لا سبيل للتأليف بينها .. وإذا كانت قد اختارت « المادة » دون « الروح » ، وانحازت إلى « الكسب » دون « القيم » ، فإن حضارتنا قد أقامت « العلاقة الجدلية » بين « الفكر » و « الواقع » — وكذلك بين سائر الأقطاب في الظواهر — .. وعن العلاقة بين « الفكر » وبين « الواقع » يتحدث جمال الدين الأفغانى فيقول : « إن الأفكار العقلية ، والعقائد الدينية ، وسائر المعلومات والمدرجات والوجدانيات النفسية ، وإن كانت هى الباعثة على الأعمال ، وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم ، لكن الأعمال تثبت وتقويها وتطبعها في الأنفس عليها ، حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق ، وتترتب عليه الآثار التى تلائمها .. نعم ، إن الانسان إنسان بفكره وعقائده ، إلا أن ما ينعكس إلى مرايا عقله من مشاهد نظره ومدرجات حواسه ، يؤثر فيه أشد التأثير ، فكل شهود يحدث فكرا ، وكل

(٢٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٢٣ .

(٢٦) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٥ ص ٢٠١ .

(٢٧) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ١٧٠ ، ١٧١ .

فكر يكون له أثر في داعية ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل إلى الفكر ، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والأفكار ، ما دامت الأرواح في الأجساد ، وكل قس لله للآخر عماد (٢٨)

فحضارتنا ، قبل كل شيء ، « حضارة مؤمنة » ، إنسانها « إنسان بفكره وعقائده » قبل كل شيء .. و « الأفكار » فيها « هي الباعثة على الأعمال » ، لكن « الفكر » يقوى ويتدعم « بالواقع والعمل » ، لأن انعكاسات « الواقع » هي « فكر » يغنى ويطور ويدعم ، بل ويعدل ، « الفكر » الذى بدأ منه الانطلاق ! .. فهى لا تعرف « الثنائية » التى تميزت بها الحضارة الغربية ، عندما أقامت التناقض بين « الفكر » و « المادة » ، بين « الدين » و « الواقع » ، بين « الانسان » و « الطبيعة » ... ثم انحازت الى « المادية » و « العلمانية » انحيازاً مطلقاً ! ..

وإذا كان « التغريب » قد باض وأفرخ في « المدارس المدنية » الحديثة ، وفي روح علومها التى قلدت الروح المادى للحضارة الغربية ، ثم استوى في عقول « الصفوة » التى تعلمت في هذه المدارس ، تعليم تقليد خلا من الحس المميز والنظرة النقدية ، لافتقار أصحابه إلى الوعى بالروح البديل الذى تقدمه حضارتهم العربية الاسلامية .. إذا كان هذا هو دور « المدارس المدنية » الحديثة ، وأهلها في تيار « التغريب » ، وما يمثله في التحدى الحضارى لأمتنا ، فلقد انتقد تيار « الجامعة الاسلامية » ما أصاب حياتنا التعليمية من ازدواج ، قسمها بين أهل الحمود ، الذين يمثلون التخلف العثماني .. وأهل « التغريب » ، الذين يمثلون روح الحضارة الغربية .. دون أن يكون لحضارتنا نحن في هذا الميدان الحيوى مكان ولا نصيب !؟ ..

والأفغانى يوجه النقد الى حصون « التغريب » هذه ، في الدولة العثمانية وفي مصر ، فيقول : « لقد شيد العثمانيون عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبانهم الى البلاد الغربية . ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدنا » . وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني ! .. فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة !؟ .. نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية — [القومية] — وما شاكلها .. وسموا أنفسهم زعماء الحرية .. ومنهم آخرون قبلوا أوضاع المباني والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ... فنفقوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ! .. وأماتوا أرباب

الصنائع من قومهم .. وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها ! .. لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها .. وطلائع جيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهّدون لهم السبيل ، ويفتحوّن الأبواب ، ثم يشبّون أقدامهم !؟ .. « (٢٩)

فهذا « التحديث الغربى » ليس هو « تمدننا الاسلامى » .. بل إنه ليس حقيقة « التمدن الغربى » ، لأن التمدن نبت طبيعى يرتبط بالمناخ الذى نما فيه ، فإذا استعير إلى مناخ مغاير — كما هو الحال مع مناخ حضارى مغاير كمناخنا الحضارى — لم يبق منه سوى « الشكل » .. إنه سيكون أشبه ما يكون بالعود الجاف الذى لا حياة فيه ... يستوى فى ذلك ان يكون « روحا » فى العلوم الانسانية تجعل العلم الإنسانى ماديا يشيع الإلحاد ... أو شعارات ودعوات لامعنى لها فى غير البيئة التى أثمرتها وافرزتها ... أو أنماط للعمارة والبناء والمأكل والملبس وطرائق العيش ... فجميع ذلك داخل فى « تقليد الأشكال واستعارة القشور » ، بعيد عن معنى « التمدن » الصحيح ...

والأدهى من ذلك أن هذا التقليد — [التحديث الغربى] — يربط الأمة بسلاسل التبعية لغزاتها وأعدائها ، سواء فى الفكر أو فى الاقتصاد .. فتموت حرفنا وصناعاتنا ، وتنقل ثرواتنا إلى الذين يصدرّون لنا سلع حضارتهم ... وباعتقاد التبعية تتسع شرائح الذين ربطوا عقولهم ونمط حياتهم واستهلاكهم بالغرب الاستعمارى ، حتى ليدافعون عن حضارته ونمطه فى العيش والتفكير إلى الحد الذى يصبحون فيه طابورا خامسا يتطوع كى يكون الطليعة للجيش الغازى ، يمهّد له السبيل ، ويفتح له الأبواب ، ثم يثبت أقدامه فى أرض الوطن ! تلك هى مخاطر التغريب ، كما تمثل ويتمثل فى « التحديث » على النمط الغربى ، دونما تمييز بين ما ينفع منه وما يضر . ودونما اتخاذ روح حضارتنا ميزانا نزن به عند الاختيار ..

لقد أدرك تيار « الجامعة الاسلامية » خطر « المتغربين » على استقلال الأمة ومستقبلها .. وقال الأفغانى عنهم : إنهم « أشد وطأة على الشرق وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين ، وتذليل الصعاب لهم وتثبيت أقدامهم ! » .. إنهم يعرفون من تاريخ الآخرين ما لا يعرفون من تاريخ أمّتهم ، ويرددون من آداب الغرب ما لا يعلمون عشر معشاره من آدابهم ، وتعى ذاكرتهم من أسماء عظماء الغرب مالا تعى من أسماء أبطال العرب والاسلام .. وباليتم قد وعوا ما عرفوا وعى الناقد المستفيد .. ولكنهم وقفوا عند « التردد » و« التقليد » ، ثم أكبروا الغرب واحتقروا ذاتيتهم الحضارية !؟ « فهؤلاء الناشئة ، الذين

(٢٩) المصدر السابق . ص ١٩٥ - ١٩٧ .

بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم ، يعتقدون أن كل الكمالات إنما هو فيما تعلموه من اللسان ، على بساطته ، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات ، وقراءة سير من قطع مراحل ، من الغربيين ، في سبيل الأخذ في ترقية أمتهم ، بدون أن يسبروا من ذلك غورا ، أو يفهموا لتدرجهم معنى ! . ويعتقد الناشئ الشرق أن كل الرذائل ودواعي الحطة ومقاومات التقدم إنما هي في قومه ، فيجرب مع تيار غريب من امتحان كل عادة شرقية ، ومن كل مشروع وطني تتصدى له فئة من قومه وأهل بلده ، ويأنف من أى عمل لم يشارك فيه الأجنبي ١٩ .. » (٣٠)

ذلك هو خطر « التغريب » ، وهذا هو خطر « المتغربين » .. الجناح الأخطر في « التحدى الحضارى » الذى يواجه العرب والمسلمين ..

* * *

ونهضة حضارية متميزة :

وإذا كان « التخلف العثماني » يقف بترائنا عند حدود « فكرية عصر الانحطاط » ، ولا يزكى نهج التفاعل الراشد والخلق مع الحضارات الأخرى ، عجزا ، أو جهلا أو جمودا ... وإذا كان « التغريب » يدعو إلى الانسلاخ عن « التراث » ... فإن تيار « الجامعة الاسلامية » قد دعا إلى بناء النهضة على :

● الأصول الصالحة من تراثنا الحضارى ...

● وما هو ضرورى ومناسب ومفيد لنهضتنا من إنجازات الآخرين ...

« ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ، يأخذهم بأحكامه ، لرأيتم قد نهضوا ، والقرآن الكريم في إحدى اليدين ، وماقرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، ولساروا يزاحمون الأوروبيين فيزحمونهم ! » (٣١)

ذلك أن التفكير للعصر لا يعنى الانقطاع عن التراث ، كما أن السعى للنهضة لا يستلزم البدء من حيث انتهى الأوروبيون ، « فالظهور في مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض من الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ... ولا ضرورة ، في إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية

(٣٠) المصدر السابق . ص ١٩٠ .

(٣١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ٣٠ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

الأخرى ، ولا ملجئ للشرق في بدايته أن يقف موقف الأوربي في نهايته . بل ليس له أن يطلب ذلك . وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر^(٣٢) نفسه وأمته وقرأ أعجزها وأعوزها ١٩ .. »^(٣٣)

وإذا كان « التخلف العثماني » قد تنكر « للعقل » وبراهينه ، وسادت في فكره الخرافة والشعوذة وإذا كان « التغريب » يدعو إلى « عقلانية » تهمل « الوحي » أو تنكره وتنكر له فإن تيار « الجامعة الإسلامية » قد صدر في هذه القضية من الموقف الأصيل لحضارتنا الإسلامية العربية ، موقف الموازنة والمؤاخاة بين « العقل » و « النقل » ، بين « الحكمة » و « الشريعة » ، باعتبارهما دليان مخلوقان لخالق واحد ، صاغهما ، سبحانه وتعالى ، لهداية الانسان ..

● فالسلفية الدينية — التي هي ثورة تجديدية — ترفض إلحاد الغرب ، وتنكر تنكره للتراث .. وتتخطى الطارئ والوافد المتمثل في فكرية عصر الانحطاط — هذه السلفية الدينية تعنى « تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشرى »^(٣٤) ... ولذلك فإن « التجديد » هو سبيلها الذي لا سبيل سواه .. تجديد الدين « بإعادة نواقصه المعطلة ، وتخليصه من زوائده الباطلة .. »^(٣٥) وأداة هذا « التجديد » هي العقل « فالعقل هو ينبوع اليقين في الايمان بالله وعلمه وقدرته ، والتصديق بالرسالة أما النقل فهو ينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب ، كأحوال الآخرة والعبادات ... » بل إن « العقل هو جوهر إنسانية الانسان ، وهو أفضل القوى الانسانية على الحقيقة ! .. »^(٣٦) بل إنه « محور صلاح الانسان وفلاحه »^(٣٧) ، إن في أمور الدنيا أو أمور الدين ..

وفي ذلك رفض لموقف جناحي التحدى الحضارى — التخلف العثماني ، والتغريب الأوربي — كليهما ..

(٣٢) أوقر نفسه : أثقلها بالحمل الثقيل حتى أعجزها .

(٣٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٣ .

(٣٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣١٨ .

(٣٥) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ص ١٨٧ .

(٣٦) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٣٢٥ ، ج ٥ ص ٤٢٨ ، ج ٣ ص ٢٩٨ .

(٣٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٥٦ .

وإذا كانت « الفكرية العثمانية » قد توهمت وأوهمت بوجود « كهانة » و« سلطة دينية » في فكر الاسلام السياسى ، على النحو الذى عرفته وحيدته الكاثوليكية الأوربية في العصور الوسطى .. ثم جاء « التغريب » يدعونا إلى « علمانية » تفصل الدين عن الدولة والمجتمع .. فإن تيار « الجامعة الاسلامية » — في هذه القضية — يرفض هذين الموقفين كليهما « فالإسلام دين وشرع ، فقد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ... وللإسلام دولة ... لأنه لا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضى بالحق ، وصون نظام الجماعة ... وهذه الدولة إنما تقوم بالأمة ... »^(٣٨)... فهى ، إذن ، ليست « الحكومة الالهية — الثيوقراطية » ولا « السلطة الدينية » ، التى عرفتها أوربا ، والتى نشأت « العلمانية » لمناهضتها ... « فليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ... والسلطة الدينية فيه هى سلطة الموعدة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم ... وما للخليفة أو القاضى أو المفتى أو شيخ الاسلام من سلطة فهى سلطة مدنية ، إذ لم يجعل الاسلام لأحد من هؤلاء سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ! .. »^(٣٩)... ولذلك كانت دولة الاسلام مدنية شورية ، الأمة فيها هى مصدر السلطات ، شريطة ألا تحل ماحرمه الله أو تحرم ما أحله الله .. فالحكم يجب أن يكون بالأمة ، أى « الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح .. ذلك أن القوة النيابية لأى أمة لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى إلا إذا كانت من نفس الأمة ... »^(٤٠).... « والحكمة والعدل فى أن تكون الأمة ، فى مجموعها ، حرة مستقلة فى شئونها ، كالأفراد فى خاصة أنفسهم ، فلا يتصرف فى شئونها العامة إلا من تلق بهم من أهل الحل والعقد ، المعبر عنهم فى كتاب الله بأولى الأمر ، لأن تصرفهم ، وقد وثقت بهم ، هو عين تصرفها ، وذلك منتهى ما يمكن أن تكون به سلطتها من نفسها ! .. »^(٤١)

ثم ... إذا كان « التغريب » قد جاء ليبشر بنهضة تقتفى أثر النهضة الأوربية ، التى ناهضت الدين ، أو أهملته وهى تجدد شئون الدنيا .. فإن تيار « الجامعة الاسلامية » قد حدد بجلاء ووضوح ان تمايز حضارتنا عن الحضارة الأوربية ، وتميز ديننا — بنظرته الشمولية — عن المسيحية .. لا يجعل للعلمانية مكانا فى نهضتنا المرجوة .. فهى نهضة إسلامية ، ينهض فيها « تجديد الدين » بدور السبيل إلى « تجديد الدنيا » ! .. وتيار الجامعة الاسلامية ، بأعلامه

(٣٨) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص ٢٨٧ ، ج٤ ص ٦٨٢ ، ٦٨٣ .

(٣٩) المصدر السابق . ج٣ ص ٢٨٦ ، ٢٨٥ .

(٤٠) [الأعمال الكاملة لحمل الدين الأفغانى] ص ٤٧٣ ، ٤٧٧ .

(٤١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٥ ص ٢٥٨ .

الذين غطوا ساحة الأمة ، وبالتنظيمات التي ضمت صفوة الأمة — [العروة الوثقى] و [أم القرى] و [جمعية العلماء المسلمين في الجزائر] .. الخ — إنما « ينحصر مقصدهم في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شئونه . ويمكن أن يقال : إن الغرض الذي يرمى إليه جميعهم إنما هو : تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ ، في فهم نصوص الدين . حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد ، واستتارت بصائرهم بالعلوم الحقيقية ، دنية ودنيوية ، ومهدبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الإصلاح منهم إلى الأمة »^(٤٢)

وهذه الغاية — أو الغايات — التي تبدأ بتصحيح عقيدة الانسان ، اى تحديد دينه ، لتتجدد وتصلح حياة الفرد ، ثم حياة الأمة ... سبيلها هو الإسلام ، فهو فكرية الأمة ، وموطن قداستها ، ولسلطانه على ضمائرها ما يجعل الإصلاح بواسسته الأكثر أمنا والأسرع نفعا ، فضلا عن أنه الطبيعي ، بل والبديى ، إذا نحن ذهبنا نختار بين سبل الإصلاح ... فالإسلام « سبيل لمريد الإصلاح ، في المسلمين ، لا مندوحة عنها ، ذلك أن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوج المصلح إلى بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا . وإذا كان الدين كافلا بتهديب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بيناه ، هو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث مالا إمام لهم به ، فلم العذر، عنه إلى غيره ؟! »^(٤٣) ..

* * *

هكذا كان تيار « الجامعة الاسلامية » ... أبرز تيارات الصحوة الاسلامية وأخطرها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، والعقد الأول من القرن العشرين

وهكذا كان تصديه للتحدى الحضارى الذى واجهته الأمة ، بجناحيه :

● التخلف العثماني ...

● والتغريب الأوربي ...

فلقد تصدى بالإسلام — ومن خلال جهد تجديدي عملاق — لهذا التحدى ، الذى مثل « الوافد الضار » على خصوصية حضارتنا الاسلامية العربية وأصالتها .

(٤٢) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٣١ .

(٤٣) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٣١ .

الفصل الثالث

جماعة الإخوان المسلمين

لقد بلغت الحرب العالمية الأولى [١٣٣٢ - ١٣٣٧ هـ ١٩١٤ - ١٩١٨ م] بالوطن العربى والعالم الإسلامى قمة المأساة ١٩ ..

فالوطن العربى قد سقط بأكمله ، تقريبا ، تحت الاحتلال الاستعمارى الغربى .. و« الخلافة » العثمانية قد أزلتها « العلمانية » التركية التى تزعمها كال أتاتورك [١٢٩٨ - ١٣٥٧ هـ ١٩١٤ - ١٩٣٨ م] فطويت صفحاتها [سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٤ م] ... وهكذا ضاع « الرمز » و« الشكل » الذى كان قد بقى « للتيار الإسلامى » ، يرجو له الإصلاح ويحاول فى بنائه الترميم !... كما ضاع أمل « التيار القومى » العربى فى الدولة العربية القومية المستقلة ، ووضحت خديعة الاستعمار لهذا التيار ، فلقد استعان به فى الحرب ضد العثمانية ، فى ذات الوقت الذى كان يوزع فيه وطنه ، وفق معاهدة « سيكس - بيكو » [سنة ١٣٣٤ - سنة ١٣٣٥ هـ سنة ١٩١٦ - سنة ١٩١٧ م] بين أطراف المد الاستعمارى .. ويمهد السبيل « بوعد بلفور » [سنة ١٣٣٦ هـ سنة ١٩١٧ م] لقيام كيان صهيونى عنصرى استيطانى ، يقطع امتداد أرض الأمة العربية ، فيحول دون وحدتها ، ويكون بمثابة القوة الضاربة لأحلام هذه الأمة ومساعدتها فى التقدم والوحدة والانعقاد !..

ولقد زاد من الخطر والمخاطر على الذاتية الحضارية المتميزة للعرب والمسلمين ، وأثقل من كاهل التيار الإسلامى ، أن التيار القومى ، الذى عزل الفكرة القومية عن الرابطة الإسلامية ، وعن جذورها الدينية — عربيا كان أو « طورانيا — تركيا » — رغم فجيعته فى الاستعمار الغربى ، بعد اقتسامه البلاد ، وخلفه للوعود .. ورغم تحول هذا التيار من مخالفة الدول الاستعمارية إلى الثورة عليها .. إلا أن ولاءه الفكرى قد ظل معقودا للحضارة الغربية ، يرى فيها : الحضارة الوحيدة ، وفى طريقها : طريق التحديث والقوة الوحيد ! .. لقد كان « تيارا وطنيا — قوميا — مدنيا » ، اعتقد أن طريق الحضارة الغربية

هو طريق «المدن» الوحيد ..!

وبعد أن فرض الغرب سيطرته الاستعمارية الكاملة على الوطن العربى ، وما وراءه من بقاع العالم الاسلامى ، زادت محاولات الغرب الجادة لاحتواء العرب والمسلمين حضاريا ، وتضاعفت مخاطر «التغريب» مجسدة «التحدى الحضارى» الرئيسى فى تلك المرحلة التاريخية .. لقد تحولت البلاد إلى «هامش لاقتصاد الغرب» — بعد أن تحولت إلى «هامش لأمنه» — يقدم العمالة الرخيصة ، والمواد الخام بأثمان رمزية ، وأصبحنا مجرد سوق لسلع الحضارة الصناعية الغربية وأدواتها .. ولقد بدأت تلك السلع والأدوات تلعب دورها فى تحويل الشرائح التى تسكن المدن ، وخاصة المثقفين منهم إلى الحياة على النمط الغربى الأوربى ، وساندتها فى ذلك الأفكار والقيم الوافدة مع الغزاة المنتصرين .. وزاد من فعالية تيار «التغريب» هذا التألق وتلك العظمة والهالة التى أحاطت بالحضارة الأوربية ، ذات التقدم الذى بهر الأبصار والبصائر فى بيئة متخلفة أخذ بنوها يقارنون هذه الحضارة وإنجازاتها الضخمة ، فى الصناعة والزراعة والتجارة والعلم والفكر والأدب والفن ، بالتخلف والركاكة والبؤس الفكرى الذى عاشوا فيه قرونا طويلة تحت حكم المماليك والعثمانيين .. ولقد أسهمت فى زيادة الدهشة والانبهار لدى الصفوة المثقفة :

- ١ - أن هذه الصفوة لم تعرف من تراثها الاسلامى سوى صورته «الملوكية — العثمانية» ، لأن الصلة كانت قد انقطعت بتراث «الإسلام : الحضارة» ، بل وبجوهر تراث «الاسلام : طالدين» فى نقائه وصفائه ، منذ أن تراجعت حضارتنا عن النمو والعطاء ..
- ٢ - أن حركة الاستشراق — فى مجملها — قد تعمدت بث روح الهزيمة فى عقول الأمة وقلوبها ، بإبراز الجانب السلبى والمظلم من تراث أمتنا ، وبرد كل إيجابيات هذا التراث إلى تراث أوربا اليونانى ، الأمر الذى رسب فى عقول الصفوة المتغربة أن أمتنا لم تصنع مجدا حقيقيا غابرا ، متميزا وخالصا ، فأثني لها أن تصنع شيئا من ذلك ، وهى على ماهى عليه من الضعف الذى وصل بها إلى حد الهزيمة أمام الأوربيين ، أبناء الحضارة الفريدة الوحيدة المنتصرة؟! ..

- ٣ - أن مراكز التبشير بحضارة الغرب ، دينية وفكرية وتعليمية ، قد سارت على درب حركة الاستشراق ، فى نزع ثقة أمتنا بذاتها ... ولقد كانت تلك المراكز — كما كانت حركة الاستشراق — إلا قليلا منها — طلائع للمد الاستعمارى الغربى ، نازلت عقول الأمة بالأسلحة الفكرية منازلة الجيوش الاستعمارية لجيوشنا الوطنية سواء بسواء ..!
- ٤ - أن جامعات الغرب ومؤسساته العلمية والفكرية كانت «المصنع» الذى هيا وصنع القيادات السياسية والفكرية الوطنية التى أخذت «تشارك» السلطة المحتلة فى إدارة مرافق البلاد .. حتى أصبحنا ندرس على يدي أعداء العروبة والاسلام — ووفق

مناهجهم — كل شيء ، بما في ذلك اللغة العربية وعقائد الاسلام ؟!..

فكانت الثمرة : « تيار التغريب » ، الذى علا صوته حتى انفرد بالساحة ، فى المدرسة والجامعة والمنتدى والصحيفة والكتاب والديوان .. وفى طرائق العيش ، ومناهج التفكير .. بل وفى القيم والمعايير والأخلاق !.. الأمر الذى أجبر التيار الإسلامى — وخاصة ذلك الذى وقف به الجمود عند فكرية العصر العثمانى — على التقوقع والانزواء .. وكادت المقولة التى تزعم : أن تقدمنا رهن بأن نصبح غربا فى الحضارة ، وأن هذا هو الطريق لتكون شركاء للغرب ، بدلا من أن نظل مجرد هامش تابع له .. كادت هذه المقولة أن تصبح مسلمة من المسلمات !..

ومع وضوح خطر « التغريب » واشتداده وانتشاره ، وضحت مخاطر « العلمانية » على شمولية الاسلام ... فالعلمانية واحدة من قسّمات الحضارة الغربية الرئيسية ، ولقد تعلقت بها الصفوة المثقفة ، سواء منها من تعلق « بليبرالية » الغرب أو « بشموليته » !.. ولقد زاد من اقتناعهم بهذه العلمانية ، توهمهم أن « الاسلام السياسى » قد يشق الوحدة الوطنية والقومية فى وطن تتعدد فيه الأديان ، وتمتلىء ربوعه بالجاليات الأجنبية غير المسلمة ، ودعم من هذا الوهم أن صورة الاسلام عند هذه الصفوة المتغربة كانت هى صورته فى عصور الانحطاط ، تحت حكم المماليك والأتراك العثمانيين .. وهى صورة مثقلة بمظاهر التخلف ومشوهة بالشعوذة والخرافة التى غطت جوهر الإسلام الأصيل ... فهى لم تتعرف على « الاسلام : الحضارة » ، لأن المستشرقين كانوا أعلم منها بالتراث !.. كما لم تتعرف هذه « الصفوة المتغربة » ، بشكل كاف على الإسلام كما قدمه تيار « الجامعة الاسلامية » ، لأن فكر هذا التيار كان مضطهدا من الاستعمار ، ومن تيار « التغريب » ، فلم يحتل المواقع فى « المؤسسات الحديثة » ، وكان مضطهدا كذلك من أهل الجمود ، الذين ظلوا قابعين فى فكرية العصور الوسطى مع المماليك والعثمانيين !.. فلم يأخذ مكانه فى « المؤسسات التقليدية القديمة » .. ومن هنا انفرد بريق « العلمانية » بالصفوة المتغربة فزاد من خطر تغريبها على شمولية الاسلام والذاتية الحضارية المتميزة للمسلمين .. ومن هنا كان النجاح الذى تحقق « للعلمانية » عندما اكتسبت لها المواقع فى دوائر الفكر والسياسة ذات النفوذ والتأثير ..

وأمام هذا النجاح الذى حققه تيار « التغريب » ، لاح الخطر فى الأفق واضحا وعظيما ... فالوطن الذى تحول إلى « هامش » لاقتصاد الغرب الاستعمارى وأمنه ، يوشك أن يتحول إلى « هامش لحضارته » ، ولو تم ذلك فستأبد التبعية ، وتذوب الهوية ، وتمسخ الشخصية الحضارية والقومية ، ويستحكم الاستغلال !..

وهنا ، وفي هذا المنعطف التاريخي ، عاد القانون القديم ليفعل فعله من جديد^(١).... فتطلعت الأمة ، بالفطرة والوعي معا ، إلى حصنها العتيق ، إلى الإسلام ... وكان أن برز وتعاضم تيار الصحوة الاسلامية ، الذي تبلور هذه المرة « منظما — جماهيريا » ، والذي بدأ بتأسيس الإمام الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] لجماعة [الاخوان المسلمين] [سنة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٩ م] .. وهى الجماعة التى أصبحت أوسع حركات الإصلاح الاسلامى وتنظيماته انتشارا وتأثيرا بعالمى العروبة والاسلام فى عصرنا الحديث ...

ونحن نستطيع أن نلمح فى « صورة الاسلام » لدى هذه الجماعة عددا من السمات ، منها :

١ - أن [الاخوان المسلمين] ، كحركة إحياء إسلامى ، لم يكن الاسلام عندها كما هو عند « المؤسسات الدينية التقليدية » ، تلك التى ظلت واقفة عند « المتون » و« الحواشى » و« التعليقات » و« التهميشات » التى أفرزها عصر المماليك والعثمانيين .. بل تقدم [الإخوان] خطوات ، فتجاوزوا فهم هذه المؤسسات للإسلام .. ومن هنا كانوا فصيلة من فصائل تيار التجديد ..

٢ - لكن [الإخوان المسلمين] لم يبلغوا فى فهمهم للإسلام وتجديدهم له ولفكره ، وفى طرحهم الحلول الاسلامية لمشكلات العصر الفكرية ما بلغتته حركة « الجامعة الاسلامية » ، التى بلور فكرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وعبد الحميد بن باديس .. الخ .. الخ فدرجة « العقلانية » لدى تيار [الجامعة الاسلامية] لانجدها عند [الاخوان المسلمين] ، كما لا نجد عندها الجرأة فى تناول القضايا ، ولا الحسم إذا ما عرضت لهذه القضايا ... وربما كان فى مقدمة أسباب ذلك أن « الجامعة الاسلامية » لم تكن تنظيما جماهيريا ، ينخرط فيه « العامة » وينهض بنيانه على « الجماهير » ، وإنما كانت حركة « صفوة » فكرية فى الأساس ، فلذلك عرضت للمشكلات بجرأة ، وقدمت الحلول الحاسمة ، وسلكت لذلك سبيلا بلغ فى « العقلانية » درجة إن تلامس « الصفوة » فقد لا تلامس « العامة » ولا « الجمهور »^{١٢}.. وتلك قضية لا تخطئها عين الباحث فى المجتمعات المختلفة ، وفى أية مرحلة من مراحل التاريخ .. وفى تراثنا أمثلة تشهد لذلك ... [فالمعتزلة] ، مثلا ، وهم فرسان « العقلانية الاسلامية » فى تراثنا ، كانت تقل « شعبيتهم » ويتقلص « جمهورهم » كلما زادت قسمة الفكر « الفلسفى » فى بنائهم النظرى ...!

(١) انظر كتابنا [العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م . وبيروت سنة ١٩٨٢ م . والقاهرة سنة ١٩٨٢ م .

٣ - وكما لم يكن [الإخوان المسلمين] على مستوى فكر حركة « الجامعة الإسلامية » ، عمقا وجرأة وحسما ، فإنهم ، كذلك ، لم يكونوا — في هذا الميدان — متواضعين إلى المستوى الذى وقفت عنده [الوهابية] أو [السنوسية] أو [المهديّة] ، وذلك لنشأة [الإخوان] فى المجتمع المصرى ، الذى بلغ فى التحضر والتقدم مستويات لا تلائمها أفكار دعوات جاءت لتلائم بيئات بسيطة أو بدوية ، لا حاجة لها إلى الفكر المركب ، إذ باستطاعتها حل مشكلات تلك البيئة البسيطة بظواهر النصوص ..!

لقد وقف تيار [الإخوان] ، فكريا ، بين بين .. فلا هو بلغ « عقلانية » الأفغانى ومحمد عبده .. ولا هو وقف عند بساطة محمد بن عبد الوهاب !.. كما أن دعائه لم يكونوا ، أبدا ، من « وعاظ الأمراء والسلاطين » ، الذين يبررون للواقع الظالم والبائس الذى تعيشه الأمة !.. فلقد كانوا : الشكل الجماهيرى للبعث الإسلامى الحديث ، والرد الإسلامى على التحدى الحضارى ، الذى تمثل ، أساسا فى « تيار التغريب » ..

التصدى للتغريب :

فى الوقت الذى كانت تفتتح فيه وتنضج « المشاعر الإسلامية » لحسن البنا ، كانت ساحة العالم الإسلامى تشهد أحداثا بلغت ، فى الوقع ، على الإسلام والمسلمين ، مبلغ الزلازل والكوارث والنذر التى تهر الضمير من الأعماق ، وتستفز عوامل المقاومة للحفاظ على الذات !..

● ففى [٢٢ رجب سنة ١٣٤٢ هـ ٣ مارس سنة ١٩٢٤ م] ألغيت الخلافة العثمانية ، ونفى آخر خلفائها السلطان عبد المجيد الثانى [١٢٨٦ - ١٣٦٤ هـ ١٨٦٩ - ١٩٤٤ م] ، فزال « الرمز » — ولو الشكلى — الذى حافظ على وحدة الأمة ، والذى أبقت عليه الأمة منذ ظهر الإسلام !..

والذين يعلمون عداء أوروبا الاستعمارية لهذا « الرمز » ، وفرح الدوائر « الصليبية » و« اليهودية — الصهيونية » لهذا الحدث ، يستطيعون تقدير وقعه على الإسلاميين !..

● وفى [رمضان سنة ١٣٤٣ هـ ابريل سنة ١٩٢٥ م] نشر الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] كتابه : [الإسلام وأصول الحكم] .. فكان أول كتاب يكتبه مسلم ، بل وشيخ أزهرى ، يتولى منصب قاض شرعى .. يزعم أن الإسلام « دين » لا « دولة » .. فهو ، إذن ، « ينظر » ويشرع لإلغاء الخلافة الإسلامية ، عندما ينفى عن نظامها أى علاقة بـ « الإسلام الدين » !..

ولقد وقع هذا الكتاب على العقل المسلم وقع الصاعقة .. ولم يخفف من شدة وقعته إلا « ملايسات سياسية » جعلت منه موقفاً ضد ملكٍ مستبد هو الملك أحمد فؤاد [١٢٨٥ - ١٣٥٥ هـ ١٨٦٨ - ١٩٣٦ م]^(٢)

● وفي [ذى القعدة سنة ١٣٤٣ هـ يونيه سنة ١٩٢٥ م] عزل الانجليز الشريف حسين بن علي [١٢٧٢ - ١٣٥٠ هـ ١٨٥٦ - ١٩٣١ م] ونفوه إلى جزيرة « قبرص » .. فجسدوا بهذا القرار غدرهم بالحركة العربية والفكرة القومية العربية ، التي استعانوا بها واستخدموها خلال الحرب العالمية الأولى ضد الفكرة الاسلامية والخلافة الاسلامية والعثمانية ...

لقد بلغ الاستعمار ما أراد ، وضاع من يد المسلمين — إسلاميين كانوا أو قوميين — كل شيء ؟! ..

● وفي [سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٦ م] نشر الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] كتابه [في الشعر الجاهلي] ، الذي استخدم فيه « الشك الديكارتي » للتشكيك في « الشعر الجاهلي » .. ثم تجاوز نطاق « الشعر » فشكك في بعض قصص القرآن الكريم ، من أمثال قصة إبراهيم الخليل ، عليه السلام !..

فكان هذا الكتاب — بعد كتاب [الاسلام وأصول الحكم] — ثاني عمل فكري — يكتبه شيخ أزهري — يمثل اقتحام « التغريب » لمقدسات المسلمين ، واستفزاز « الروح المادية » ؟! للحضارة الغربية لمشاعر المسلمين ؟! ..

حدثت هذه الأحداث التي هزت كيان الاسلاميين ، فاستنفرتهم للمقاومة ، على حين كانت « المشاعر الاسلامية » للشيخ حسن البنا تتبلور ويكتمل نضجها ، فكانت العامل الحاسم الذي دفعه إلى تكوين جماعة [الإخوان المسلمين] ، بمدينة « الاسماعيلية » أولاً ، حيث كان يدرس اللغة العربية بإحدى مدارسها الابتدائية ، وفي [ذى القعدة سنة ١٣٤٧ هـ إبريل — مايو سنة ١٩٢٩ م]^(٣) والرجل يتحدث عن وقع هذه الأحداث —

(٢) انظر دراستنا عن المعركة التي أثارها صدور هذا الكتاب في [كتاب الاسلام وأصول الحكم — لعل عبد الرازق — دراسة ووثائق] ص ٥ - ١١٠ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(٣) هناك خطأ شائع أن [الإخوان] قد نشأت سنة ١٩٢٨ م . انظر : ريتشارد . ب . ميتشل [الإخوان المسلمون] ص ٢١ ، ٣١ — ترجمة عبد السلام رضوان . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م — فهو يجعل هذه النشأة في مارس سنة ١٩٢٨ م . وانظر كذلك : د . زكريا سليمان بيومي [الإخوان المسلمون والجماعات الاسلامية في الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨ - ١٩٤٨] — طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م — ص ٨١ . فهو يجعلها في إبريل — مايو سنة ١٩٢٨ م . والحق هو الذي ذكرناه . فالشيخ البنا يحدد نشأة الجماعة في ذى القعدة سنة ١٣٤٧ هـ — [رسالة المؤتمر الخامس — مجموعة الرسائل — ص ١٥٢] — والمقابل لهذا التاريخ الهجري هو إبريل — مايو سنة ١٩٢٩ م . انظر [كتاب التوقيعات الالهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية] ل محمد مختار باشا المصري . دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .

وما مائلها — على نفسه ، فيقول : « ... وليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها — [هو وثلاثة رفاق جالت في أذهانهم الفكرة] — نستعرض حال الأمة ، وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها ، ونحلل العلل والأدواء ، ونفكر في العلاج وحسم الداء ، ويفيض بنا التأثير لما وصلنا إليه إلى حد البكاء !؟. وكم كنا نعجب إذ نرى أنفسنا في مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة ، والخليون هاجعون يتسكعون بين المقاهي ويترددون على أندية الفساد والإنلاف ١٩ .. »

ثم يمضى الرجل فيحدد مكان هذه الفواجع ، التي هزت ضمير المسلمين ، واستنفرت عزائم الإسلاميين ، من قرار تكوين الجماعة ، فيقول : « ثم كانت ، في مصر وغيرها من بلدان العالم الاسلامي ، حوادث عده ، ألهمت نفسي ، وأهاجت كوامن الشجن في قلبي ، ولفتت نظري إلى وجوب الجد والعمل ، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه ، والتأسيس بعد التدريس ! »^(٤)

لقد كانت هذه الأحداث إيدانا باقتحام الحضارة الغربية المادية قدس أقداس الاسلام والمسلمين ، لقد احتلت الديار ، ونهبت الثروات ، ثم اقتحمت ميدان الفكر ، والفكر الديني ، بل وبواسطة عدد من « الشيوخ — العلماء » .. فلم يكن هناك بد — طالما في الأمة أصالة ونفاسة معدن وبقية من روح وحياة — لم يكن هناك بد من تنبيه المشاعر : « القومية » ، ردا على « الغزو السياسي » ، و « الاسلامية » ، ردا على هذا « الطغيان الفكري والاجتماعي » .. وبعبارة الأستاذ البنا : « .. إن الحضارة الغربية ، بمبادئها المادية ، قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الاسلامية ، بمبادئها القومية الجامعة للروح والمادة معا ، في أرض الاسلام نفسه ، وفي حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم ، كما انتصرت في الميدان السياسي والعسكري ... وكما كان لذلك العدوان السياسي أثره في تنبيه المشاعر القومية ، كان لهذا الطغيان الاجتماعي أثره كذلك في انتعاش الفكرة الاسلامية .. »^(٥)

هكذا ، نشأت جماعة [الإخوان المسلمين] .. موقفا مناظلا ، ضد التحدى الغربى الحضارى ، أولا ، باعتبار أن الانتصار الاسلامي على جبهة الصراع هذه ، هو السبيل لإنقاذ النفس المسلمة ، وتسليحها بالاسلام ، كي تستطيع تحقيق النصر على الحضارة الغربية في ميادين السياسة والعسكرية والاقتصاد ..

لقد كانت لمظاهر السيطرة الغربية — على اختلاف ميادينها — على مقدرات الأمة ،

(٤) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٥١ ، ١٥٠ .

(٥) | بين الأسس واليوم | مجموعة الرسائل . ص ١٤٠ .

أوثق الصلات بنشأة هذه الجماعة ، التي مثلت أبرز مظاهر البعث الاسلامى فى القرن الرابع عشر الهجرى .. وهذه قضية — رغم وضوحها — تحتاج إلى تأكيد ، لما يثار حولها من غبار بعض التيارات السياسية والفكرية فى بلادنا ؟!..

فحتى النشأة المبكرة ، والمحلية ، لجماعة [الإخوان المسلمين] ، بمدينة « الاسماعيلية » ، يحدثنا الأستاذ البنا عن تأثير مظاهر السيطرة الاستعمارية ، عسكرية واقتصادية — وما أحدثته من بؤس ومذلة على الجانب الوطنى — تأثير ذلك فى نشأة [الإخوان] ، وكيف كان العداء لهذه السيطرة والكره لمظاهرها والعزم على التحرر منها « غذاء ومددا » لهذا الوليد الاسلامى الجديد !.. يقول الإمام المرشد : « إن الدعوة نشأت بالإسماعيلية .. يغذيها وينميا ما نرى كل صباح ومساء من مظاهر الاحتلال الأجنبي والاستئثار الأوربى بخير هذا البلد . فهذه قناة السويس^(٦) علة الداء وأصل البلاء ، وفى الغرب : المعسكر الانجليزى بأدواته ومعداته ، وفى الشرق : المكتب العام لإدارة شركة القناة بأثاثه ورياشه ومرتباته ، والمصرى غريب بين كل هذه الأجواء فى بلده ، محروم وغيره ينعم بخير وطنه ، ذليل والأجنبي يعتز بما يفتنسه من موارد رزقه . كان هذا الشعور غذاء ومددا لدعوة الإخوان ، فبسطت رواقها فى منطقة القناة ، ثم تخطتها !.. »^(٧)

وكما أشرنا ، فلم تكن نشأة [الإخوان] مجرد تصدى للتحدى الاستعمارى فى جوانبه السياسية والعسكرية والاقتصادية — فتلك كانت حال التيار القومى والاجتماعى — أما التيار الاسلامى — وفى مقدمته جماعة [الإخوان المسلمين] — فلقد كانت الجوانب الحضارية فى الغزوة الاستعمارية هى تحديها الرئيسى ، وفيها تمثل الخطر الأكبر ، من وجهة نظرها ، وعن طريق التصدى لها رأت السبيل إلى هزيمة الغزوة الاستعمارية فى كل جنباتها وجميع مخاطرها ..

لقد كانت المواجهة مع « الحضارة الأوربية » ، لاعم احتلالها العسكرى ونهبها الاقتصادى لبلادنا ، وحدهما ... ولم يكن عداء الاسلاميين للحضارة الأوربية ، فقط ، بسبب عدوانها على ذاتيتنا الحضارية المتميزة عنها ، وبسبب سعيها لتذويب شخصيتنا القومية والحضارية . بتحويلنا إلى « هامش » تابع لها — ولو وقف الأمر عند ذلك لكان كافيا لمشروعية العداء والتصدى ! — ولكن الاسلاميين قد رأوا مخاطر وأخطار هذه الحضارة الأوربية المادية حتى على الانسان الأوربى نفسه .. فهى قد غدت خطرا على « الانسان » ! .. أيا كان وطن هذا « الانسان » ! .. وذلك لطابعها المادى ، الذى جعلها تقف على ساق واحدة ،

(٦) أى قبل تأميمها فى ١٧ ذى الحجة سنة ١٣٧٥ هـ ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ م .

(٧) | رسالة المؤتمر الخامس | مجموعة الرسائل . ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

فتبدع في العلوم الطبيعية ، وتحقق الوفرة في الانتاج المادى .. ولكنها تفتقر إلى « القيم » ، لمعالمتها في « التطور » إلى الحد الذى جعلها تنسخ الماضى ، بما فيه من « قيم » لها طابع « الثبات » .. ولا تكاثرها على مبدأ « الصراع » ، إلى الحد الذى جعلها تؤمن بأن « البقاء » هو حق « الأقوى » فقط ، فبررت لنفسها إبادة الشعوب والحضارات التى نكبت باستعمارها .. فإن لم تستطع الإبادة فلا أقل من تجريد هذه الشعوب من خيرات أرضها ومقائيد السيادة عليها ، وتشويه حضاراتها القومية ومعتقداتها الروحية !! .. وهذا الموقف على الساق الواحدة — ساق المادة — هو الذى أشاع في فكرها روح « الكم » و« النفعية » و« اللذة » و« الإلحاد » ، فحرمت الانسان — رغم وفرة الانتاج المادى — نعمة الانتماء — بالايمان — إلى الكون .. وأوقعته في درك « الاغتراب » ، وجعلت منه هيكلا متخما بالطعام ، مدججا « بمظاهر » القوة ، لكنه أجوف ، لخلوه من « الروح » ولافتقاره إلى إدراك « الغاية » من وراء هذا « الكم المادى » الذى حققه ، الأمر الذى أوقعه ، لا في « اللادرية » فقط ، بل وفي « العيشة » أيضا ١٩ ..

لقد فصلت الحضارة الأوربية « العلم والإنتاج » عن « الغاية والحكمة » ، فأطلقت العنان « لإنسانها » كى ينهب — بالاستعمار — ثروات الأمم والشعوب ، مسلحا بالاستعلاء والعنصرية ، بل وبـ « البلادة » الناشئة عن غياب « الضمير » .. والغاية .. والحكمة .. فلما أتخم هذا « الانسان » بـ « الكم » الذى جمعه ، وبرز إلى جانب تخمته « بؤس » الشعوب التى نهبا ، بدأت معاناة هذا « الانسان » ، لا شفقة على الشعوب البائسة ، وإنما من جنون قوته وفائض إنتاجه ، اللذين تحولوا إلى شقى رضى يهددان ذاته وحضارته بحروب كونية فيها دماره ، ودمار الكوكب الذى عليه نعيش !..

لإفلاس هذه الحضارة المادية .. وللمأزق الذى جرت إليه « إنسانها » — بل والانسانية كلها ، بعد السيطرة الاستعمارية التى حققتها — كان عداء الاسلاميين لها ، ونهوضهم لدفع آثارها وتأثيراتها على عقول « الصفوة » المتغربة في ديار الاسلام ..

ونحن نقرأ للأستاذ البنا الكثير من النصوص التى تكشف أسباب عدائه للطابع المادى للحضارة الأوربية ... فهو يرى أن من أمراض هذه الحضارة ما هو مزمن .. وذلك مثل :

١ - الإلحاد والشك في الله وإنكار الروح والجزاء الأخروى والموقف عند حدود الكون المادى المحسوس ...

٢ - والاباحية والتهافت على اللذة والتفنن في الاستمتاع وإطلاق الغرائز الدنيا من عقاها ..

٣ - والأثرة في الأفراد ...

ثم يمضى فيقول : « ولقد أثبتت هذه المدنية الحديثة عجزها التام عن تأمين المجتمع وإقرار الطمأنينة والسلام فيه ، وفشلت في إسعاد الناس ، رغم ما فتحت عليهم من حقائق العلم والمعرفة وما وفرت لهم من أسباب الغنى والثراء وما مكنت لدولها في الأرض من قوة وسلطان . ولما يمض عليها قرن كامل من الزمان .. »

ثم يتحدث عن انتقال هذا الخطر — بالاستعمار — إلى بلادنا ، وتهديده لمصيرنا بذات الخطر الذى أصاب « نفس » الانسان الأوربي ، فيقول : « وقد عمل الأوربيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية ، بمظاهرها الفاسدة وجرائمها القتالة ، جميع البلاد الاسلامية التى امتدت إليها ايديهم وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم ، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة ونجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم — بالمدارس العلمية والثقافية في عقر ديار الاسلام — والتي ضمت أبناء الطبقة العليا — فعلمتهم كيف يتقصون أنفسهم ويحتقرون دينهم ووطنهم ويسلخون من تقاليدهم وعقائدهم ، ويقدمون كل ما هو غريب ، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوربيين وحده هو المثل الأعلى في هذه الحياة — نجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم أعظم النجاح ، فهو غزو محبب إلى النفوس ، لاصق بالقلوب ، طويل العمر ، قوى الأثر ، وهو هذا أخطر من الغزو السياسى والعسكرى بأضعاف الأضعاف ...! »^(٨)

ولقد أبصر الأستاذ البنا أن أخطر ما فى هذه الحضارة الأوربية المادية — وهو روحها المادية الملحدة — هو أكثر ما يغرى « الصفوة » المتغربة بالتلمذ على يديها ...! فنحن — كمسلمين — قد عانينا تاريخيا من سلطان الكنيسة الكاثوليكية الأوربية ، التى عبأت شعوبها ضدنا فى حروب صليبية احتلت أجزاء من بلادنا قرابة القرنين [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] واستنزفت قوانا ، وأسهمت فى تكريس التخلف والانحطاط الذى نعانى منه حتى الآن ... كما نعانى من قهر محلى واستبداد داخلى ، ستر قسوته وجهله وتخلفه « بمباركة دينية » من فقهاء احترفوا التبرير للسلطين ، وباعوا آخرتهم بفتات موائد الاستبداد والمستبدين فكان عداء الحضارة المادية الأوربية لكنيستها ، ولهيمنة كهانتها على الدولة والمجتمع مما حجب « الصفوة » المتغربة فى هذه الحضارة ، حتى لقد انحازوا إلى « العلمانية » ، ظنا منهم أنها السبيل إلى رفع وصاية « فقهاء السلطين » عن الحياة ، الأمر الذى سيجلب لنا « الحرية » و « التقدم » ، فتقدم كما « تقدم » الأوربيون ...!

(٨) [بين أمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٣٧ - ١٣٩ .

ولقد « جهلت » هذه « الصفوة » المتغربة ، و« غفلت » عن الفروق الجوهرية التي تفرق ما بين الاسلام والمسيحية في هذا الميدان ... فإسلامنا لا يعرف : سلطة دينية إلهية لبشر .. ولا يقر « كهانة » تفرض سلطانها على شئون المجتمع والدولة .. بل لا يعرف وصاية لـ « رجل الدين » ، لأنه ينكر تميز فئة خاصة « كرجال دين » !... ومن ثم فإن سلاحنا لرفع وصاية الذين نصبوا أنفسهم « كهنة » — إذا وجدوا — هو « الاسلام » ، وليس نفى « الاسلام » بـ « العلمانية » ، كما صنع الأوروبيون !...

لكن « التقليد » للحضارة الغربية ، بل ولسير التطور في النهضة الأوروبية ، قد جعل هذه « الصفوة » المتغربة تنوهم إسلامنا : مسيحية ؟!... وترى في « علماء » الاسلام « أكليروسا »!... لقد استوردوا « مشكلة أوربية » .. ثم استوردوا لها « حلا أوربيا » كذلك !..

وعن هذه القضية يتحدث الإمام المرشد فيقول : « من الأسباب التي دعت بعض الأمم الشرقية إلى الانحراف عن الاسلام ، واختيار تقليد الغرب : دراسة قادتها للنهضة الغربية ، واقتناعهم بأنها لم تقم إلا على تحطيم الدين وهدم الكنائس والتخلص من السلطة البابوية ، وإلجام القساوسة ورجال الكهنوت ، والقضاء على كل مظاهر السلطة الدينية في الأمة ، وفصل الدين عن سياسة الدولة العامة فصلا تاما .. وذلك إن صح في الأمم الغربية فلا يصح في الأمم الاسلامية ، لأن طبيعة التعاليم الاسلامية غير طبيعة تعاليم أى دين آخر ، وسلطة رجال الدين المسلمين محصورة محدودة ، لا تملك تغيير الأوضاع ولا قلب النظم ، مما جعل القواعد الأساسية في الاسلام ، على مر القرون ، تسير العصور ، وتدعو إلى الرقي ، وتعزز العلم وتحمي العلماء ، فما كان هناك لا يصبح هنا بل إن هذه التعبيرات التي سرت إلينا تقليدا ، ومنها : [رجال الدين] ، لا تنطبق ولا تتفق مع عرفنا ، فإنها وإن كانت في الغرب خاصة بـ [الأكليروس] ، فإنها في العرف الإسلامي تشمل كل مسلم ، فالمسلمون جميعا ، من أصغرهم لأكبرهم ، [رجال دين]^(٩) »

فهنا .. يعيد إلينا الأستاذ البنا — وفي حسم وصفاء ووضوح — موقف تيار « الجامعة الاسلامية » ، الذي تنبه إلى خطر الغزو الحضارى الغربى على الذاتية الحضارية المتميزة لأمتنا — وبثبت ، في تألق لا يدع سبيلا لشك ، أن دعوة [الاخوان] وحركتها ، إنما كانت — في جانب أساسى من جوانبها — إن في المنطلقات أو الملابسات أو الأفكار أو الممارسات — تصديا « للتغريب » ، كجناح من جناحي « التحدى الحضارى » الذى فرضه عليها أعداؤها وفي الظروف التي صاحبت نشأة [الاخوان] كان هذا الجناح — « التغريب » — هو الأشد خطرا على ذاتيتنا الحضارية الاسلامية وشخصيتنا القومية العربية

(٩) [نحو النور | مجموعة الرسائل . ص ٧١ ٧٣ .

وعقائد ديننا الاسلامى الحنيف

“ “ “

والتخلف الموروث :

لقد كان « التغريب » أخطر جناحى « التحدى الحضارى » ، الذى نهضت لمواجهة دعوة [الإخوان المسلمين] وحركتها ... لكنه لم يكن هو كل « التحدى » .. فلم يكن عداؤهم « للتغريب » نابعا من رضائهم عن الواقع الفكرى المتمثل فى تصورات المسلمين للإسلام ، أو تطبيقاتهم لتعاليمه ... بل كان هذا الواقع وهذه التصورات وذلك السلوك ، فى رأى [الاخوان] إنما يمثل « تخلفا » ذاتيا ، وانحرافا عن الجادة الاسلامية .. فالتخلف الذى انحدر إلى الواقع المعاصر من القرون التى سيطر فيها المماليك والعثمانيون — والذى نسميه : « التخلف العثمانى » — كان هدفا تواجهه دعوة [الاخوان] ، وتسعى لتغييره ، بالتجديد الدينى ، وبإعادة الأمة إلى إسلامها الصحيح ، إيمانا بأن تجديد « دنيا » المسلمين إنما هو رهن بتجديد « دينهم » !..

إنهم لم يحاربوا « التغريب » دفاعا عن الفكرية السائدة للإسلام فى أذهان العامة أو فى تصورات وتطبيقات « المؤسسات الدينية » التقليدية ، بل كانوا فصيلة داعية للتجديد الدينى ، وإن يكن فى حدود !.. ولذلك وجدناهم ، عند التحليل « للموروث » عن السلف يميزون بين « الدين » ، كما تمثل ويتمثل فى منابعه النقية ، قرآنا وسنة ، وبين « الفكر » الذى مثل « لون عصره » و« قضايا المجتمع الذى نشأ فيه » .. ف « الدين » ملزم .. أما هذا « الفكر » فهو غير ملزم ، ثم إن فيه « النافع » وفيه « الضار » الذى يجب تجاوزه بالتجديد ..

وهم فى تحليلهم لما أصاب « الاسلام السياسى » والدولة الاسلامية عبر مسيرتها التاريخية ، لم يدافعوا عن « الموروث » الذى ساد فى العصور « المملوكية — العثمانية » ، ذلك الذى أتاح الفرص وفتح الثغرات « لوافد التغريب » .. بل قالوا إن الانقطاع قد أصاب ازدهار الدولة الاسلامية ، فتحللت عوامل قوتها .. ثم رصدوا — على لسان الأستاذ البنا — « أهم عوامل التحلل فى كيان الدولة الاسلامية » فى هذه الأسباب :

ا — الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه ...

ب — الخلافات الدينية والمذهبية

ج — الانغماس فى ألوان الترف والنعيم ...

- د — انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب ، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الاسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه .
- ه — إهمال العلوم العملية والمعارف الكونية ، وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ..
- و — غرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم ، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم ، حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة .
- ز — الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم ، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع ...»^(١٠)

ونحن عندما نتأمل في هذه العوامل ، التي حددها الإمام المرشد ، لتحلل كيان الدولة الاسلامية ، نجد فيها « النقد » بل « والإدانة » للنمط « المملوكي — العثماني » ، ومن ثم ندرك لماذا كان في نهج [الإخوان] مواجهة « التخلف العثماني » ، بالتجديد الديني ، وصولاً إلى هدف : تغيير الواقع الموروث ، بتغيير وإصلاح مافسد من العقائد والتصورات ، لتصح الممارسات بصحة المعتقدات !...

لقد كان واضحاً لدى [الإخوان] أنهم ليسوا « كالمؤسسات الدينية » التقليدية — الشرعية منها والصوفية — المنكفئة على الذات ، والمتشبثة بالموروث ، والمدافعة عن « كل الواقع » .. وكان واضحاً لديهم كذلك أنهم دعاة تجديد ... وبعبارة الأستاذ البنا : « فالإخوان ... دعوة من الدعوات التجديدية لحياة الأُمم والشعوب .. »^(١١)...

وهذا النهج التجديدي ، كما هو واضح ، لم يكن مجرد « تجديد فكري » ترق به أذهان « الصفوة » أو تستمتع به عقول « النخبة » ، وإنما كان تجديد « حياة الأُمم والشعوب » ، فالإخوان دعوة تتوجه إلى الجماهير العامة ، تبغى خلق الفرد المسلم .. والأسرة المسلمة .. والأُمم المسلمة^(١٢)، انطلاقاً من العقيدة الاسلامية والحركة التي تضع هذه العقيدة في الممارسة والتطبيق ...

وبسبب من توجه الدعوة إلى « الجمهور » و« العامة » ، لا « للصفوة » أساساً — كما كان الحال في تيار « الجامعة الاسلامية » — تميزت دعوة [الإخوان المسلمين] بمرونة

(١٠) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(١١) [دعوتنا في طور جديد] مجموعة الرسائل ص ١٢٢ .

(١٢) [إلى أي شيء ندعو الناس] مجموعة الرسائل ص ٤٥ .

وشمولية و«توفيقية» — لا تعيها كثيرا — أضفتها على نهجها شخصية مرشدها العام ، وما تميزت به هذه الشخصية من مرونة تجمع ولا تفرق ، و«توفيقية» تبلغ الذروة في الذكاء؟! فكان [الاخوان] — كما يقول الأستاذ البنا — : « ١ - دعوة سلفية ... ٢ - وطريقة سنية ... ٣ - وحقيقة صوفية ... ٤ - وهيئة سياسية : لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل ، وتعديل النظر في صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج ، وتربية الشعب على العزة والكرامة ، والحرص على قوميته إلى أبعد حد .. ٥ - وجماعة رياضية .. ٦ - ورابطة علمية ثقافية ... ٧ - وشركة اقتصادية ... ٨ - وفكرة اجتماعية ... »^(١٣) ... كانوا كل ذلك في وقت واحد ، لأنهم توجهوا إلى جمهور تربطه خيوط بهدف أو أكثر من هذه الأهداف .

و[الاخوان] إذا كانوا قد استعانوا « بالنهج الصوفي » في تربية الأعضاء ، والارتقاء بهم في مراتب العضوية بالجماعة ، فإن نهجهم « السلفي — السني » يصنفهم في الدعوات التجديدية التي نهضت تنفض غبار العصور « المملوكية — العثمانية » الذي تراكم على عقائد الاسلام وتصورات المسلمين — .. فالسلفية ، في مثل موقفهم ، قد عنت : إسقاط ركام الخرافات والشعوذة والاضافات ، التي غدت تكون « الفكرية العثمانية » ، والعودة ، بشجاعة ثورية ، إلى المنابع الأولى والأصلية والنقية للإسلام... لقد كان « التجديد » في الدين ، وسيظل ، موقفا سلفيا .. وكان ، وسيظل ، موقفا ثوريا ، لأنه يعنى الرفض للزوائد التي أفقدت الدين ثورته وفاعليته ، والعودة إلى ينباع النقية حتى تعود لعقائد الدين طهارتها ووضاءتها ، الأمر الذي يحجر « حركة » المسلمين من القيود التي طرأت ، في شكل بدع وخرافات وإضافات ، على المعتقدات ...

وحتى تكون هذه « السلفية » تحريرا للعقل ، وللحركة فلقد التزمت التمييز بين « الثوابت » وبين « المتغيرات » .. واحتضنت « المنبع » ، لنقائه ومرونته ووقوفه عند « الكليات » واجتنابه « التفاصيل والجزئيات » المقيدة للحركة ، والمعاكسة لمقتضيات التطور والجديد ...

وفي نص من النصوص الهامة يحدد الأستاذ البنا النهج السلفي لدعوة [الاخوان المسلمين] فيقول : « يعتقد الاخوان أن أساس التعاليم الاسلامية ومعناها هو كتاب الله ، تبارك وتعالى ، وسنة رسوله ﷺ ... وأن كثيرا من الآراء والعلوم التي اتصلت بالاسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التي أوجدتها والشعوب التي عاصرتها ، ولهذا يجب أن تستقى النظم الاسلامية ، التي تُحْمَلُ عليها الأمة ، من هذا المعين الصافي ، معين

(١٣) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

السهولة الأولى ، وأن نفهم الاسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح ، رضوان الله عليهم ، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا به الله ، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه ، والاسلام دين البشرية جمعاء»^(١٤)!...

فهذه السلفية التجديدية ، كما عبر عنها الأستاذ البنا في كلماته هذه تحاكي ذات السلفية التي دعا إليها مجددو تيار « الجامعة الاسلامية » ، عندما دعوا إلى « تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى .. »^(١٥)

وإذا كانت « سلفية الاخوان » لم تبلغ في انحيازها إلى « العقل والعقلانية » مبلغ « سلفية تيار الجامعة الاسلامية » ، لتوجه دعوة [الاخوان] إلى « العامة » و« الجمهور » — لا « للصفوة » ، كما كان حال تيار « الجامعة الاسلامية » — فإنها لم تتنكر للعقل والعقلانية ، كما قد يظن .. فهي لم تقف عند ظواهر النصوص ، كما صنعت « السلفية الوهابية » ، التي اتخذت من « العقل » وطرائقه — كالرأى والقياس والتأويل — موقفا غير ودي .. بل كان « للعقل والعقلانية » في نهج [الاخوان] مكان إن لم يكن بارزا فهو ملحوظ ..!

لقد قطع الأستاذ البنا باستحالة الخلاف والصدام بين « النظر العقلي » و« النظر الشرعي » في الأمور « القطعية » .. ورأى أن بعض المجالات مختص بواحد من سبل النظر دون الآخر .. كالإلهيات ، مثلا .. « فذات الله ، تبارك وتعالى ، أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية ، أو تدركها الأفكار الإنسانية ، لأنها مهما بلغت من العلوم والإدراك محدودة القوة ، محصورة القدرة ... فالعقل البشري قاصر عن إدراك حقائق الأشياء .. »^(١٦) في مثل هذه الميادين .. ولذلك فإن « الإسلام قد أرشد العقول إلى التزام حدها ، وعرفها قلة علمها ، وندبها إلى الاستزادة من معارفها ، فقال تعالى : [وما أوتيتم من العلم إلا قليلا]^(١٧) وقال تعالى : [وقل رب زدني علما]^(١٨) ... »

(١٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣١٨ .

(١٥) [العقائد] مجموعة الرسائل . ص ٢٩٦ .

(١٦) الاسراء : ٨٥ .

(١٧) طه : ١١٤ .

(١٨) [العقائد] مجموعة الرسائل . ص ٢٩٤ .

وإذا كانت « طبيعة المبحث » هي التي تحدد أداة النظر فيه ، وهل الأولى أن تكون : « العقل » أو « الشرع » ، فإن خلافهما إنما يكون في « الظاهر » وفيما هو « ظني » لم يبلغ فيه أحدهما مرتبة « اليقين » ... « فقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي مالا يدخل في دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا في القطعي ، فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة ، ويؤول الظني منها ليتفق مع القطعي ، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقل أو ينهار .. »^(١٩)

وإذا كان الاسلام قد رفض « غرور العقل » و« انفراده بالنظر » في كل الميادين ، ودعا إلى التوازن بين نظره وبين النظر الشرعي .. فإنه « لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول »^(٢٠) ... بل جاء يحرم العقل ، ويحث على النظر في الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح النافع من كل شيء . « والحكمة ضالة المؤمن ألى وجدها فهو أحق الناس بها »^(٢١) ...^(٢٢)

وهذا الموقف الاسلامي الوسط ، إزاء « العقل والعقلانية » ، نابع من التمييز بين مجالات البحث وطبائع الأشياء موضوع النظر .. فمن هذه المجالات ماتكون السيادة فيه للنظر العقلي ، ومنها ماتكون السيادة فيه للنظر الشرعي . هذا الموقف الاسلامي هو الذي يرفض الخرافة ، المتنكرة للعقل .. كما يرفض المادية المتنكرة لعالم الغيب والمجهول .. فيتميز عن « الايمان الأسطوري » وعن « العقلانية اليونانية — الأوربية » ، التي أنكرت الوحي ، ووقفت عند النظر العقلي وحده وإذا كان تاريخ « العقل البشري » يشهد على تذبذه « بين :

- ١ - طور الخرافة والبساطة والتسليم المطلق للغيب ...
- ٢ - وطور الجمود والمادية والتنكر لهذا الغيب المجهول

وكلا هذين اللونين من ألوان التفكير خطأ صريح ، وغلو فاحش ، وجهالة من الانسان بما يحيط بالانسان ، فلقد جاء الاسلام الحنيف يفصل القضية فصلا حقا ... فجمع بين الايمان بالغيب والانتفاع بالعقل ... إن المجتمع الانساني لن يصلحه إلا اعتقاد رוחي يبعث في النفوس مراقبة الله ... في الوقت الذي يجب على الناس فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصماء ، وتتفع بما في الوجود

(١٩) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧١ .

(٢٠) [العقائد] مجموعة الرسائل . ص ٢٩٤ .

(٢١) حديث نبوي رواه الترمذي وابن ماجة .

(٢٢) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧٠ .

من خيرات وميزات فإلى هذا اللون من التفكير ، الذى يجمع بين العقليتين : الغيبية والعلمية ، ندعو الناس ... »^(٢٣) .. كما يقول الأستاذ البنا ..

البراءة من الغلو :

لكن هذه الدعوة التجديدية — دعوة [الاخوان] — التى واجهت « التخلف المملوكى — العثماني » بهذه « السلفية — المجددة » ، لم تبلغ فى نقدها لواقع المسلمين حد الغلو الذى بلغته دعوات اسلامية عاصرتها أو لحقتها ، عندما حكمت « بالجاهلية » أو « بالكفر » ، أو بهما معا على هذا الواقع الذى يعيش فيه المسلمون ...

لقد عمل [الاخوان] ، من خلال المجتمع ، لا من موقع الذى يدينه وينعزل عنه فى استعلاء !.. وكما سلطوا الضوء على « الوافد » غير الاسلامى ، « موروثة » كان أو « غربا حديثا » ، كذلك احتضنوا ما حفظ المسلمون من إسلامهم .. فقط طلبوا استكمال الناقص ، وتكامل المتفرق ، وتصحيح الخاطئ ، وأخذ الاسلام ، بحج ، كنظام شامل للدنيا والآخرة ، والفرد والأسرة والأمة جميعا .. لقد رفضوا « تكفير » « الفرد » « بالمعصية » حتى ولو كانت « كبيرة » ، وكتب الأستاذ البنا يقول : « إننا لا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاها وأدى الفرائض — برأى أو معصية — إلا إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر .. »^(٢٤)

كذلك هم لا يكفرون « المجتمع » بسبب ابتعاد نظمته الحياتية ، فى كثير من جوانبها ، عن شريعة الاسلام ، بل يرونه « ناقص الاسلام » ، لكنه « النقص » الذى لا يدخله فى « الكفر » أو « الجاهلية » ؟!.. والامام المرشد يتحدث عن المجتمع المصرى ، فيبرز — فى حنو الداعية — ما فيه من إيجابيات ، ثم يدعو — فى لين وهوادة — إلى استكمال النواقص وتلافى السلبيات ، فيقول : « لقد اندمجت مصر بكليتها فى الإسلام بكليته ، عقيدته ولغته وحضارته ، ودافعت عنه وذادت عن حياضه وردت عنه عادية المعتدين ... وليس الهدامة المدمرة . ومن هنا بدت مظاهر الإسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة فى كثير من جوانب الحياة المصرية : فأسماؤها إسلامية ، ولغتها عربية ، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم

(٢٣) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١١٠ - ١١٢ .

(٢٤) | رسالة التعاليم | مجموعة الرسائل . ص ٢٧١ .

الله ويعلم منها نداء الحق صباح مساء ، وهذه مشاعرنا لا تهتز لشيء إهتزازها للإسلام وما يتصل بالاسلام . كل ذلك حق .. »

ثم يمضى الأستاذ البنا فيركز النقد على « الوافد الغربى » ، الذى شوه بروحه المادية إسلامية المجتمع وانتقص منها .. فيقول : « ولكن هذه الحضارة الغربية قد غزتنا غزوا قويا ، بالعلم والمال ، وبالسياسة والترف والمتعة واللهم وضروب الحياة الناعمة العائشة المغربية التى لم نكن نعرفها من قبل . فأعجبنا بها ، وركنا إليها . وأثر هذا الغزو فينا أبلغ الأثر ، ونحن سر ظل الفكرة الإسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية فى كثير من شئوننا الهامة ، واندفعنا نغير أوضاعنا الحيوية ونصنع معظمها بالصيغة الأوروبية ، وحصرنا سلطان الاسلام فى حياتنا على القلوب والمحاريب ، وفصلنا عنه شئون الحياة العملية ، وباعدنا بينه وبينها مباحدة شديدة ، وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة !! » (٢٥)

إنه لا يدين المجتمع بالارتداد إلى « الجاهلية » أو « الكفر » بعد الإيمان ! .. وإنما يدعو إلى استكمال الاسلام الناقص ، وإلغاء « الثنائية » التى أثمرتها الغزوة الحضارية الغربية .. إنه يستنهض همة الأمة إلى استكمال إسلامها بتحقيق « استقلالها الحضارى » عن الأعداء ! ..

الاستقلال الحضارى :

ونحن لا نبالغ إذا قلنا : إن الاسلاميين ، الداعين إلى العودة إلى الاسلام ، فى شموله ، عقيدة وحركة ، عبادة وشريعة ، دينا ودولة ، سياسة وحضارة — وفى مقدمتهم جماعة [الإخوان المسلمين] — قد امتلكوا أكثر التصورات تحديدا وعمقا ووضوحا فى قضية : « استقلال الوطن والأمة » وتحريرها من آثار الغزوة الاستعمارية الحديثة ! ..

● لقد اشتركوا مع جمهرة الأحزاب والجماعات الوطنية والقومية فى الدعوة إلى « الاستقلال السياسى » ، والنضال فى سبيله .. وزادوا عن هذه الأحزاب والجماعات عندما اتسعت رؤيتهم لحدود « الوطن » ، « ليشمل : القطر الخاص أولا ، ثم يمتد إلى الأقطار الاسلامية .. [عبر وطن الأمة العربية] — ثم يرقى إلى الامبراطورية الإسلامية الأولى ... » (٢٦) ١٩٠٠

ولقد أعلنوا — بصدد الدعوة « للاستقلال السياسى » ، والجهاد فى سبيله رفض

(٢٥) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢٦) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٦٢ .

« الشعوب الشرقية لما أصابها من إساءة الغرب إليها إساءة نالت من عزتها وكرامتها واستقلالها ، وأخذت من مالها ومن دمه .. فهي تتألم من هذا النير الغربى الذى فرض عليها فرضا .. »^(٢٧)

ودعوا إلى الجهاد ضد الدول الاستعمارية « فكل دولة اعتدت وتعتدى على أوطان الاسلام دولة ظالمة ، لابد أن تكف عدوانها . ولا بد من أن يعد المسلمون أنفسهم ويعملوا متساندين على التخلص من نيرها .. لأن الإسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال ، فضلا عن السيادة وإعلان الجهاد ، ولو كلفهم ذلك الدم والمال »^(٢٨)

ولقد مارس [الاخوان] الجهاد العملى ، والمسلح ، كلما سنحت لهم الفرصة لممارسته .. فى فلسطين [١٣٦٦ - ١٣٦٧ هـ ١٩٤٧ - ١٩٤٨ م] ضد الصهيونية ومن وراءها .. وفى [١٣٧١ هـ ١٩٥١ - ١٩٥٢ م] ضد الانجليز فى مصر ..

هذا عن « الاستقلال السياسى » ..

● وكانت قوى وطنية عديدة تقنع ، فى مجال « الاستقلال الاقتصادى » . بما يحقق مجرد « مشاركة » قواها الاجتماعية والطبقات التى تمثل مصالحها .. مجرد « مشاركة » هذه القوى الاجتماعية للاستعمار فى استثمار ثروات البلاد .. لكن جماعة [الاخوان] — كحلفاء اليسار — قد امتلكت رؤية واضحة فى هذا الميدان ، جعلتهم دعاة تحرير كامل لاقتصاديات الأمة من قبضة السيطرة والاستغلال الاستعماريين ، وامتاز الاخوان فكانوا دعاة اعتماد على الذات فى بناء الاقتصاد الوطنى والقومى المستقل ، ودعاة إقامة الروابط مع أجزاء العالم العربى والأمة الاسلامية ، لإقامة التكتل الاقتصادى الذى يدعم امكانيات المستضعفين فى صراعهم الاقتصادى ضد سيطرة المستعمرين الأغنياء الأقوياء ..

لقد امتلك الاسلاميون وضوح الرؤية فى الجهاد لتحقيق هذا « الاستقلال الاقتصادى » منذ دعوة « الجامعة الاسلامية » التى أعلنت أن « غايتها الاقتصادية هى : ● ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمر الاسلامى هى لهم ، يتمتعون بها ، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهى : ● نفى اليد من رؤوس المال الغربية ، والاستعاضة عنها برؤوس مال اسلامية . وفوق جميع هذا ، هى : ● تحطيم نواجد أوربة ، تلك النواجد العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد

(٢٧) [دعوتنا] مجموعة الرسائل . ص ١٧ .

(٢٨) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

المسلمين ، تلك الموارد التي مادامت خارجة من أيدي العالم الاسلامي فسيظل عالة على الغرب »^(٢٩)...

فيلدون تحرير الثروات الاسلامية .. والاستقلال الاقتصادي ، ستظل التبعية للغرب قيدا يجعل « استقلالنا السياسي » عنه شكليا ، ويحرمانا ، من ثم ، المضمون الحقيقي للاستقلال !.. هكذا قرر الاسلاميون ، منذ « تيار الجامعة الاسلامية » ، الذي تبلور من حول جمال الدين الأفغاني ، وبقيادته .. وعلى هذا الدرب سارت جماعة [الاخوان المسلمين] :

١ — فالاستاذ البنا يحدد أن المجتمع — حتى « بعد تحرير الوطن .. وإقامة الدولة الإسلامية » — « لن يصير مجتمعا إسلاميا كاملا إلا بتحقيق « الاستقلال الاقتصادي !.. وهو يضرب المثل بالسيطرة الاقتصادية الاستعمارية على مصر .. وكيف أن « المرافق العامة ، وكل المنافع الهامة في جميع أنحاء البلاد ، ودولاب التجارة والصناعة ، والمنشآت الاقتصادية كلها في أيدي الأجانب المراهين .. تسيطر عليها أكثر من ٣٢٠ شركة أجنبية »^(٣٠)... والثروة العقارية تنتقل بسرعة البرق من أيدي الوطنيين إلى أيدي هؤلاء الأجانب ... فالبلد ليس فقيرا .. ولكن النهب الاقتصادي الاستعماري جعل « الأجانب الذين احتلوه أسعد حالا من أهله وبنيه !.. »^(٣١)

ب — وهذا الغنى الذي يحققه الأجانب من نهب ثروات مصر المسلمة ، يقابله فقر مدقع على الجانب الوطني .. « فأكثر من ٦٠٪ من المصريين يعيشون أقل من معيشة الحيوان ، ولا يحصلون على القوت إلا بشق النفس .. والبلاد مهددة بمجاعة قاتلة ، ومعرضة لكثير من المشكلات الاقتصادية .. وهي من أكثر بلاد العالم المتمدن أمراضا وأوبئة وعاهات .. وأكثر من ٩٠٪ من الشعب المصري مهدد بضعف البنية ، وفقد الحواس ، ومختلف العلل والأمراض .. وهي لازالت جاهلة ، لم يصل عدد المتعلمين فيها إلى الخمس .. والجرائم تتضاعف ، حتى ان السجون لتخرج أكثر مما تخرج المدارس !.. ومصر هذه لم تستطع إلى الآن أن تجهز فرقة واحدة في الجيش كاملة المعدات !.. » وهي ليست وحدها في هذا البؤس ، الذي أثمره النهب الاقتصادي الاستعماري ، بل معها في « هذه المعاني والصور .. كل بلد من بلدان العالم الاسلامي !.. »^(٣٢)

(٢٩) لوتروب ستودارد [حاضِر العالم الاسلامي] المجلد الاول . ج ١ ص ٣٢٨ . ترجمة : عجاج نويهض . تعليق : شكيب أرسلان . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م

(٣٠) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٤١ .

(٣١) [مشكلاتنا في ضوء النظام الاسلامي] مجموعة الرسائل . ص ٢٣١ .

(٣٢) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٤١ .

ج — فإذا ما أردنا — حقا — « إصلاح التعليم ، ومحاربة الفقر والجهل والمرض والجريمة ، وتكوين مجتمع نموذجي يستحق أن ينتسب إلى شريعة الاسلام »^(٣٣).. فلا بد — كما يقول الاستاذ البنا — من تحقيق الاستقلال الاقتصادي للوطن والأمة ، بتحرير الثروة أولا ، وبالعادل الاسلامي في التوزيع ، وبالتنمية الاقتصادية المناسبة ، التي نعتد فيها على الذات ، وفي ارتباط وثيق بين أوطان الأمم الاسلامية ...

فالهدف هو : تحقيق : « نظام اقتصادي استقلالي للثروة والمال والدولة والأفراد ، أساسه قوله تعالى : [ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما]^(٣٤)... [(٣٥) ولا بد ، لذلك من أن نحقق « استقلال نقدنا »^(٣٦) عن فلك الاستعمار ... ولا بد كذلك ، من « تمصير الشركات ، وإحلال رؤوس الأموال الوطنية محل رؤوس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك ، وتخليص المرافق العامة — وهي أهم شيء للأمة — من يد غير أبنائها ، فلا يصح بحال أن تكون هذه المرافق بيد شركات أجنبية ، تبلغ رؤوس أموالها وأرباحها الملايين من الحنيئات ، ولا يصيب الجمهور الوطني ولا العامل الوطني منها إلا البؤس والشقاء والحرمان !؟ .. »

وهذا التحرير للثروة لن يثمر الثمرة المرجوة في رخاء الأمة وقوتها ، ما لم تصحبه تنمية اقتصادية قومية مستقلة ، تلبي احتياجات الأمة ، ونعتمد فيها على الذات ... ولذلك « نجب العناية بالمشروعات الوطنية الكبرى ، المهمة ، التي طال عليها الأمد !... ونجب التحول إلى الصناعة فورا ... فهذا التحول هو روح الاسلام !... مع تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية ... وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات ، والاكتفاء بالضروريات ، وأن يكون الكبار في ذلك قدوة للصغار !؟ .. »

وهذه التنمية — حتى تتوافر لها إمكانيات الاستقلال والنجاح — يجب أن تتم في تعاون مع العرب والمسلمين ، ذلك « أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والاسلام ... تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي ، وتنقذنا من هذا التحكم الغربي في التصدير والاستيراد وما إليهما !؟ ... »^(٣٧).. كما يقول المرشد العام !...

(٣٣) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٤٢ .

(٣٤) النساء : ٥ .

(٣٥) [الإخوان المسلمون تحت راية القرآن] مجموعة الرسائل . ص ١٠٠ .

(٣٦) [مشكلاتنا في ضوء النظام الاسلامي] مجموعة الرسائل . ص ٢٣٨ .

(٣٧) [مشكلاتنا في ضوء النظام الاسلامي] مجموعة الرسائل . ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

ولابد من تنمية مشاعر « الجهاد الاقتصادى » ضد الأعداء!!... ولذلك كان الشيخ البنا يهيب بالأخ المسلم قائلا : يجب « أن تخدم الثروة الاسلامية ، بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الاسلامية ، وأن تحرص على القرش ، فلا يقع في يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال ، ولا تلبس ولا تأكل إلا من صنع وطنك الإسلامى ...! »^(٣٨)

أما العدالة في التوزيع للثروة ، والتي لابد منها كي تعم خيرات تحرير الثروة وتنميتها جمهور الأمة ، فمن ملاحظها :

١ - إصلاح الواقع القائم ، والمتمثل في «التفاوت العظيم ، والبون الشاسع ، والفرق العظيم بين الطبقات المختلفة في هذا الشعب » والذي أدى إلى وجود « ثراء فاحش وفقير مدقع ، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة ... » ... إصلاح هذا الواقع « بتقريب الشقة بين مختلف الطبقات ، تقريبا يقضى على الثراء الفاحش والفقير المدقع ... »

٢ - « محاربة الربا ... وجمع الزكاة ... وفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدى — بحسب المال لا بحسب الربح — يعفى منها الفقراء طبعاً ، وتجيى من الأغنياء الموسرين ، وتنفق في رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة^(٣٩) ... والتوسط بين الأغنياء الغافلين والفقراء المعوزين ، بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع في المواسم والأعياد!؟ ...! »^(٤٠)

٣ - إصلاح الخلل المتمثل في التفاوت الفاحش بين الملكيات الزراعية في الريف ، ذلك أن « روح الاسلام الخفيف وقواعده الأساسية في الاقتصاد القومى ، توجب علينا أن نعيد النظر في نظام الملكيات في مصر ، فنختصر الملكيات الكبيرة ، ونعوض أصحابها عن حقهم بما هو أجدى عليهم وعلى المجتمع ، ونشجع الملكيات الصغيرة ، حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم في هذا الوطن ما يعينهم أمره ، ويهمهم شأنه ... وأن نوزع أملاك الحكومة على هؤلاء الصغار! ...! »^(٤١)

فذلك هو الطريق لتحرير الثروة الاسلامية من يد ناهبيها الاستعماريين ... والطريق إلى التنمية الاقتصادية المستقلة ، وإلى عموم الخير أبناء الأمة ، حتى يشعروا بفائدة « الاستقلال الاقتصادى » ، عندما « يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم في هذا الوطن ما يعينهم أمره ، ويهمهم شأنه ! » .. كما قال مرشد [الاخوان] ...

(٣٨) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧٩ .

(٣٩) [مشكلاتنا في ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ،

(٤٠) [دعوتنا في طور حديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢٣ .

(٤١) [مشكلاتنا في ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ٢٤٢ .

... هذا عن « الاستقلال الاقتصادى » ...

● وإذا كان الاسلاميون . وفى مقدمتهم جماعة [الاخوان المسلمين] — قد تنبهوا قبل الآخرين ، أو أكثر منهم ، فاستهدفوا « الاستقلال الاقتصادى » .. وانفردوا دون الآخرين بالدعوة للتنمية الاقتصادية المستقلة ، المعتمدة على الذات ، والملبية للاحتياجات الحقيقية ، والمتكاملة مع عالمى العروبة والاسلام ... فلقد تميزوا وامتازوا عن القوى الوطنية والقومية الأخرى بالدعوة إلى « الاستقلال الحضارى — الاجتماعى » !..

لقد كانت التيارات والأحزاب « العلمانية » ، سواء منها « الليبرالية الرأسمالية » أو « الشمولية — الاشتراكية » ، تحتذى النموذج الحضارى الأوربى ، غريبه الرأسمالى أو شرقيه الاشتراكى .. أما [الاخوان] فكانت صيحتهم : « إسلامية قرآنية .. لا شرقية ولا غربية » ، إعلانا عن دعوتهم الأمة كى تعود إلى نموذجها الحضارى المتميز ، والمختلف ، فى الجوهر والروح ، عن الحضارة الأوربية ... ومن ثم فلقد كانوا — عند التأمل — دعاة « الاستقلال الحقيقى » عن الاستعمار ، إذ بدون « الاستقلال الحضارى » ستظل التبعية للمركز الاستعمارى قائمة حتى لو حققنا « الاستقلال السياسى » ، بعلمه ونشيده .. وأصبحت لنا مؤسسات اقتصادية خاصة ، ذلك أن نمط الحياة وطريقة العيش وأسلوب التفكير ، وخصائص الانتاج والاستهلاك إذا ظلت هى تلك التى غرانا بها الغرب ، فسنتظل أسرى له ، تربطنا قيودها إلى مراكز توجيهه فى هذه الميادين !..

وفى الوقت الذى كان الكثيرون مهوونين فيه بالحضارة الغربية ، يتخذونها النموذج المحتذى ، والقبلة التى تتجه إليها قلوبهم وعقولهم فى شئون الدنيا والعمران .. كان [الاخوان] ينبهون إلى « أزمة » الحضارة الغربية و« إفلاسها » ودخولها « الطريق المسدود » ١٩ .. فيكتب الشيخ البنا : « إن مدنية الغرب ، التى زهت بجمالها العلمى حيناً من الدهر ، وأخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه ، تفلس الآن وتنتحر !.. فهذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات ، وأصولها الاقتصادية تحتاجها الأزمات ... وأصولها الاجتماعية تقضى عليها المبادئ الشاذة والثورات المندلعة فى كل مكان . وقد حار الناس فى علاج شأنها وضلوا السبيل !.. » (٤٢)

لكن هذا « الأفلاس والانتحر » لم ينبه « المتغربين » إلى ضرورة الانصراف عن اقتفاء طريق « المفلس » الساعى إلى « الانتحر » !.. لأن هؤلاء « المتغربين » قد غدوا أسرى الفكر الذى رضعوه من ثدى هذه الحضارة ، ونمط العيش الذى اعتادوه فتقيدوا به إلى أوتادها !.. فهؤلاء « حكامنا جميعا قد تربوا فى أحضان الأجانب ، ودانوا بفكرتهم ، على آثارهم

(٤٢) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٥٩ ، ٦٠ .

يهرعون ، وفي مرضاتهم يتنافسون . ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن الفكرة الاستقلالية في تصريف الشؤون والأعمال لم تخطر ببالهم ، فضلا عن أن تكون منهاج عملهم !...»^(٤٣).

وليت الأمر قد وقف عند « الحكام » وحدهم .. بل إن البلوى توشك على العموم !... » فالتقليد الغربى يسرى في مناحى حياة الأمة سريان لعاب الأفاعى ، فيسمم دماءها ، ويعكر صفو هنائها^(٤٤).... وأكبر ما يخشاه الإخوان المسلمون أن تندفع الشعوب الشرقية الاسلامية في تيار التقليد ، فترقع نهضاتها بتلك النظم البالية التى انتقضت على نفسها ، وأثبتت التجربة فسادها وعدم صلاحيتها !...»^(٤٥)

وأمام هذا الخطر ... خطر الغزو الحضارى والتبعية الحضارية ، التى جعلت « أبناء الطبقة الراقية ينتقصون أنفسهم ، ويحتقرون دينهم ووطنهم ، وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم ، ويقدسون كل ماهو غربى ، ويؤمنون بأن مايصدر عن الأوربيين وحده هو المثل الأعلى فى هذه الحياة !... » .. أمام هذا « الغزو الاجتماعى المنظم .. والمحبب إلى النفوس ، واللاصق بالقلوب » والذى يتميز ، لذلك ، بطول العمر ، وقوة الأثر ، حتى ليصبح « أخطر من الغزو السياسى والعسكرى بأضعاف الأضعاف !...»^(٤٦)... أمام هذا الخطر دعا [الإخوان] إلى الجهاد ، وإلى الاعتصام بحضارة الإسلام ، نحيبها ، وإلى التصدى لآثار الغزوة الحضارية الأوربية ، نحيبها باقتلاعها من العقول والقلوب والنفوس ، وإحلال البدائل الاسلامية محلها ...

فمن واجبات « الأخ المسلم » — وفق تعاليم الأستاذ المرشد — : « القضاء على الروح الأجنبية فى البيوت .. وبخاصة بيوت الطبقات الراقية»^(٤٧)... وإماتة العادات الأعجمية فى كل مظاهر الحياة . وأن تعمل مااستطعت على إحياء العادات الاسلامية .. ومن ذلك : التحية ، واللغة ، والتاريخ ، والزى ، والأثاث ، ومواعيد العمل والراحة ، والطعام والشراب ، والقدوم والانصراف ، والحزن والسرور .. الخ .. وأن تتحرى السنة المطهرة فى ذلك !...»^(٤٨).

(٤٣) [الإخوان المسلمون تحت راية القرآن] مجموعة الرسائل . ص ١٠٥ .

(٤٤) [دعوتنا] مجموعة الرسائل . ص ٢٧ .

(٤٥) [إلى أى شئ ندعو الناس] مجموعة الرسائل . ص ٤٦ .

(٤٦) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٣٩ .

(٤٧) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٧٧ .

(٤٨) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧٩ .

فلكى يتحقق استقلالنا الحقيقى لابد من « الاستقلال الحضارى » ، وفصم عرى التبعية للاستعمار ... بل إن هذا « الاستقلال الحضارى » ، الرافض للتبعية والتقليد ، هو الشرط الذى لابد من تحقيقه كى يكتمل لأمتنا إسلامها ، وبدونه سيظل إسلامها منقوصا ، مثلها فى ذلك كمثل الذين يؤمنون ببعض الكتاب دون بعضه الآخر ١٩... فما دام « الاسلام هو هذا المعنى الكلى الشامل ، فواجب أن يهيمن على كل شئون الحياة ... أما إذا أسلمت الأمة فى عبادتها ، وقلدت غير المسلمين فى بقية شئونها ، فهى أمة ناقصة الاسلام ، تضاهىء الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤٩)... (٥٠)... ولذلك ، فإنه « لا عذر لنا إن جانبنا طريق الحق : طريق الاسلام ، واتبعنا طريق الشهوات والرخارف : طريق أوربا ...! » (٥١) — كما يقول الاستاذ البنا — ..

وهذا الاستقلال : « السياسى » ، و« الاقتصادى » ، و« الحضارى — الاجتماعى » ، ستكون من ثمراته : « الشخصية الحضارية المسلمة » « المستقلة فكريا » ..! والتي لا تستعبد نظريات الغرب الاستعماري ... فالتفكير المستقل ، هو الآخر ، هدف من أهداف الاسلاميين .. وبعبارة الأستاذ البنا : فنحن « نريد أن نفكر تفكيراً مستقلاً ، يعتمد على أساس الاسلام الحنيف ، لا على أساس الفكرة التقليدية التى جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته فى كل شئ » ، نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة ، نجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد ...! » (٥٢)

هكذا بلغ الإخوان القمة فى وعى المضامين الحقيقية، والتي لاغنى عنها ، لتحقيق الاستقلال الحقيقى للأمة ، وتحريرها تحريراً كاملاً من آثار الغزوة الاستعمارية التى أصاب بها الأوروبيون ديار العروبة وعالم الاسلام ... ولا نعتقد أن تياراً آخر ، غير تيار « الاسلام الشامل » قد بلغ ما بلغوا فى هذا الميدان !..

ويزيد من خطر هذه الحقيقة ، ويرفع من قدرها وشرفها .. أن الدعوة إلى هذا « الاستقلال الكامل .. والحقيقى » ، لم تكن دعوة حزب يحصر رؤيته ودعوته وحركته فى إقليم من الأقاليم ، أو حتى قومية من القوميات .. وإنما كانت دعوة جماعة تنطلق من الوطن

(٤٩) البقرة : ٨٥ .

(٥٠) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٥٤ .

(٥١) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٧٣ .

(٥٢) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢٠ .

الخاص .. إلى وطن الأمة القومية .. إلى وطن الملة والدين ... ثم إنها لم تبغ من وراء ذلك مجرد الاستقلال الكامل لأمتها ، بل لقد رأت في ذلك سبيلا لعودة هذه الأمة ، ثانية ، لمركز الصدارة والقيادة والعطاء عالميا ... فتلك هي مؤهلات السبق في الرهان والسباق الذى يجب أن يقوم على قدم وساق لورثة القيادة من الحضارة الأوربية « المفلسة » المنحدرة في طريق « الانتحار » !! ... « لقد كانت قيادة الدنيا ، في وقت ما ، شرعية بحته ، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غريبة ، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية ، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى ، ونهض الغرب نهضته الحديثة .. فورث الغرب القيادة العالمية . وها هو ذا الغرب يظلم ويحجور ويظغى ويحار ويتخط ، فلم تقب إلا أن تمتد يد « شرعية » قوية ، يظللها لواء الله ، وتحقق على رأسها راية القرآن ، ويمدها جند الايمان القوى المتين ، فإذا الدنيا مسلمة هائلة ، وإذا بالعالم كلها هاتفة : ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ (٥٣) ! ...! (٥٤) .

والتفاعل الحضارى :

ولقد حسب وحسب الكثيرون ، ممن لم يقتربوا من فكر الأستاذ البنا — بل ومن الذين زعموا ويزعمون التلمذ على فكره — لمجرد أنهم قد انخرطوا في عضوية [الاخوان] — حسب هؤلاء وحسبون أن التشديد الذى تميز به فكر الرجل عن « الاستقلال الاجتماعى — الحضارى » إنما يعنى التحفظ لإزاء مبدأ « التفاعل الحضارى » بين المسلمين وغيرهم من أهل الحضارات الأخرى ، أو الانغلاق على الذات ، ورفض التفتح والانفتاح على التيارات الحضارية المغايرة ، بدعوى أن لدينا في حضارتنا الاسلامية كل شيء ١٩ ..

ولقد دعم هذا الوهم في أذهان أصحابه حسابهم أن « سلفية » دعوة [الاخوان المسلمين] تعنى الرفض للتفاعل الحضارى مع الحضارات غير المسلمة .. أليس هذا هو موقف « السلفية » التى تبلورت في تاريخنا الفكرى من حول الامام أحمد بن حنبل ١٩ .. ألم ترفض تلك الحركة « السلفية » كل ماأضافته «العقلانية» الاسلامية إلى الفكر الاسلامى ، وطلبت في البلاد التى فتحوها ، والاستجابة للضرورات التى جددت بعد هذه الفتوحات ١٩ .. ألم ترفض تلك « السلفية » « علم الكلام » فضلا عن « الفلسفة » ١٩ .. ثم .. ألم تتحفظ ضد « التمدن الاسلامى » الذى نهض على « عقلانية المعتزلة » وعلى التفاعل مع الحضارات

(٥٣) الأعراف : ٤٣ .

(٥٤) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٦٠ .

والموارث الحضارية لغير المسلمين !؟ .. ثم .. أليس هذا هو موقف « السلفية الوهابية » ،
الذى التزمته إلى حد كبير !؟ .. فلم لا يكون هذا هو موقف الشيخ حسن البنا — وهو
« سلفى » — وبعد هذا الذى رأينا من تشديده وتشدده فى نقد الحضارة الغربية ، وتأكيده
على أن الاسلام منظومة حضارية شاملة ومتميزة ، وتسليطه الأضواء على خطر الغزو
الاجتماعى والحضارى الأوربى ، ودعوته إلى تخلص عقل الأمة ونفوسها من آثار هذا الغزو ،
والاعتصام بالاسلام فى هذه الحرب الضروس !؟ ..

على هذا النحو ، أو قريبا منه ، تصور كثيرون موقف الأستاذ البنا وفكره فى هذا
الموضوع .. موضوع : الموقف من « التفاعل الحضارى » بين حضارتنا الاسلامية وغيرها من
الحضارات ..

وهذا هو التصور الخاطيء ، الذى لابد من تفنيده ، ليكتمل الحق فى الموقف الحق
[للإخوان] فى هذا الميدان ...

وبادىء ذى بدء نلفت النظر إلى أن « السلفية » ليست فصيلة فكرية واحدة ، بل هى
تيار عريض ، تتمايز فيه فصائل ومدارس متعددة ... فجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده —
وكل تيار « الجامعة الاسلامية » — سلفيون ، لكن « مقام العقل » عندهم — كما سبق
وأوضحنا — يميز سلفيتهم عن سلفية ابن حنبل ، ويباعد بينها وبين سلفية الوهابيين ... بل
إننا نجد للإمام محمد عبده نقدا للوهابية قويا ، يقول فيه : « إن هذه الفئة أضيق
عطنا^(٥٥) — [أفقا] — وأخرج صدرا من المقلدين ، وهى وإن أنكرت كثيرا من البدع ،
ونحت عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه ، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ
الوارد والتقييد به ، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين وإليها كانت
الدعوة ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحياء !؟ .. »^(٥٦).

إذن فنحن أمام أكثر من « سلفية » ! .. « سلفية نصوصية » — كسلفية الوهابيين
ومن نحو نحوه ونحا نحوهم — تقف عند « النص » ، ولا تعطى ثقتها « للعقل » ، وهى لذلك
تنكر « رأى » و« القياس » و« التأويل » .. و« سلفية عقلانية » — كسلفية تيار « الجامعة
الاسلامية » — يقف فى « الدين » عند « النصوص » ، لكنه يعلى من مقام « العقل » فى
فقهها وفى التوفيق بينها .. أما فى « الدنيا » فإنه يطلق العنان « للعقل » ، باعتباره دليل الله
الأول للإنسان فى هذا الميدان !؟ .. ويثق بأن هذا العقل لا يمكن أن ينقض ما هو ثابت وقطعى
الدلالة والثبوت من « نصوص الوحى » وما هو معلوم من دين الفطرة بالضرورة أبدا ..

(٥٥) أصل العطن : مبولك الجميل ، ومربض الغنم .. أى المجال والإطار والأفق .

(٥٦) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٣١٤ .

« فالاسلام — [كما يقول الامام محمد عبده] — لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفكر الانساني الذي يجرى على نظامه الفطرى .. »^(٥٧) .. وصاحب « النظر العقلي » الباحث في سنن الله وشرائعه ونواميسه وقوانينه في الكون « مهما بحث ونظر وفكر وكشف وقرر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجاف عنه ، ولا تنفر منه !.. »^(٥٨)

وإذا كانت « السلفية النصوصية » قد اتخذت من « العقل » ومن « التمدن » المؤسس على علومه ، وكذلك من التفاعل مع الحضارات الأخرى ، موقفا غير ودى ، لوقوفها عند ظواهر النصوص ، حتى لقد أنكرت « الرأى » و« القياس » و« التأويل » .. فليس موقفها هذا هو موقف الشيخ البنا — كما سبق وأشرنا — .. فكما يعترف الرجل بـ « النظر الشرعى » ، يعترف بـ « النظر العقلي » ، ويرى أن كلا منهما قد يتناول « مالا يدخل في دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا في القطعى » من الأمور .. والاسلام عنده « يحرر العقل ، ويبحث على النظر في الكون »^(٥٩) .. ويطلق للعقول — في شئون الدنيا — العنان ...^(٦٠) .. فهو لم يكن — كما قد يحسب البعض — من « السلفيين النصوصيين » ، الذين « لم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء !؟ » ..

ثم ... إذا كان في هذا الذى قدمناه مايسهم في « زعزعة » وهم تحفظ الأستاذ البنا إزاء « مشروعية » التفاعل الحضارى بين المسلمين وغيرهم ... فإن للرجل أفكارا واضحة ، ضمنها نصوصا حاسمة تأتى على هذا الوهم من الأساس !..

فإذا كانت « السلفية النصوصية » قد ارتابت فيما تم — في تاريخنا الحضارى — من تفاعل بين العرب المسلمين وبين المواريث الحضارية لليونان والفرس والهنود ، ورفضت ثمرات هذا التفاعل .. فإن الشيخ البنا يرى في هذا التفاعل الحضارى وثمراته — بالنسبة لذلك العصر — ظاهرة صحية ، ومبعث فخر لأمتنا .. لقد كان جسم الأمة صحيحا وعقلها راشدا .. فنظرت في مواريث الآخرين وتأملت وقدرت ، ثم تمثلت ماهو ضرورى لها ومفيد ، فازداد بذلك جسمها صحة وعقلها رشدا !؟ .. وبعبارة الرجل : « فلقد اتصلت هذه الأمم الاسلامية بغيرها من الأمم ، ونقلت كثيرا من الحضارات ، ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومثانة نظامها عليها جميعا ، فعربت أو كادت ، واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على

(٥٧) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٧٩ .

(٥٨) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٥٩) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٦٠) [دعوتنا في طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١١١ .

لغتها ودينها بما فيهما من روعة وحيوية وجمال ، ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعا ، من غير أن يؤثر ذلك في وحدتها الاجتماعية أو السياسية ..^(٦١)

والموقف المبذون والمنطلق الفكرى الذى يوجد الاتساق بين « الموقف السلفى » وبين تقبل « التفاعل الحضارى » ، هو « التمييز » بين « ثواب الدين » وقواعده وأصوله ، وبين « متغيرات الدنيا » والفروع والجزئيات ... فتواب الدين وقيمه وقواعده وعباداته : وضع إلهى ، لا مجال فيها للزيادة أو النقص ، ومن ثم فلا ضرورة بها لتفاعل حضارى ، اللهم إلا فى نطاق ما يثمره التمدن والرق من زيادة الاقتدار فى فهم الدين وفقه مراميه ... أما فى « متغيرات الدنيا » وفى التفاصيل والجزئيات ، فهناك المجال واسع وفسيح لإضافات وإبداعات يفيد فيهما التفاعل الحضارى ، خصوصا وأن « ثواب الدين » قد اقتصدت اقتصادا شديدا فى هذا الميدان ، واكتفت بالمبادئ والأطر والمقاصد والغايات والفلسفات .. وتركت الباب واسعا للإبداع والجديد ، فعلى حين كانت النصوص الدينية ، فى شئون الحضارة وال عمران متناهية ، فإن قضايا الحضارة وال عمران ومشكلاتهما لا تتناهى .. وفى هذا الابداع المتجدد ، يأتى دور العقل والتجربة والواقع المتجدد والمصالح المتغيرة ... وأيضا يأتى دور « التفاعل الحضارى » بين المسلمين وغيرهم من الأمم صاحبة الحضارات ..

والأستاذ البنا لا يكتفى بالموافقة على مقولة : إن الاسلام لم يقيد تطورنا بالتشريع فى « الجزئيات » ، بل يذهب إلى حد « إجلال الاسلام وتنزيهه » عن ذلك ؟!.. فيقول : « يعتقد الاخوان المسلمون أن الاسلام ، كدين عام انتظم كل شئون الحياة ، فى كل الشعوب والأمم ، لكل الأعصار والأزمان ، جاء أكمل وأسمى من أن يعرض لجزئيات هذه الحياة ، وخصوصا فى الأمور الدنيوية البحتة ، فهو إنما يضع القواعد الكلية فى كل شأن من هذه الشئون ، ويرشد الناس إلى الطريق العملية للتطبيق عليها والسير فى حدودها^(٦٢) ... لقد جاء الاسلام للناس فكرة سامية تحدد الأهداف العليا ، وتضع القواعد الأساسية ، وتتناول المسائل الكلية ، ولا تتورط فى الجزئيات ، وتدع بعد ذلك للحوادث الاجتماعية والتطورات الحيوية أن تفعل فعلها وتتسع لها جميعا ولا تصطدم بشيء منها ...^(٦٣) »

ولقد غدت هذه الفكرة عن الاسلام والنظرة لموقفه الذى « يميز » بين « الثواب الدينية الكلية » وبين « المتغيرات الدنيوية الجزئية » .. غدت بديهية فى تراثنا الاسلامى .. فلقد « فرق الفقهاء ، فى النظرة التشريعية ، بين ماهو من قواعد أحكام العبادات ، وشئون الحياة

(٦١) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٣٠ .

(٦٢) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٥٥ .

(٦٣) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ١٩٩ .

الاجتماعية ، فأفسح للنظر والاجتهاد فى الثانية مالىس فى الأولى ، حتى لا يكون على الناس حرج ولا مشقة ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾^(٦٤). وتحدث للناس أفضية بقدر ما أحدثوا من الفجور ... فليست فى الدنيا شريعة تقبل التطور ، وتسائر مقتضيات التقدم ، وتمتع بمعانى المرونة والسلاسة والسعة كشرعية الاسلام ..^(٦٥) ... إن الاسلام « لذلك ، هو شريعة كل زمان ومكان .. »^(٦٦)

وهذا الحديد ، الذى تفتخ له الشريعة صدرها وتفسح أمامه الطريق ، كما يكون إبداعا ذاتيا للأمة الإسلامية ، يكون ، كذلك ، استفادة ، بواسطة التفاعل الحضارى ، من حضارات الآخرين ، شريطة أن تتسق هذه « الاستفادة » مع روح الشريعة ومنطق « ثوابت الدين » .. « فطبيعة الاسلام ، التى تسائر العصور والأمم ، وتتسع لكل الأغراض والمطالب .. لا تأبى أبدا الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعده الكلية وأصوله العامة »^(٦٧) ... إنه يدعو إلى أن نأخذ من كل شئ أحسنه ، وينادى بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، ولا يمنع أن تقتبس الأمة الاسلامية الخير من أى مكان . فليس هناك ما يمنع من أن ننقل كل ما هو نافع مفيد عن غيرنا ، ونطبقه وفق قواعد ديننا ونظام حياتنا وحاجات شعبنا .. »^(٦٨)

وإذا كانت هذه الأفكار والمعانى ، قد استقرت فى تراثنا الحضارى الاسلامى كبديهييات ، فبعد الانغلاق والتفوق للذين أصيبت بهما الأمة خلال العصور « المملوكية — العثمانية » ، احتاج الأمر إلى الحديث عن هذه الأفكار والمعانى ، من جديد ، بل وإلى تكرارها — كما صنع الأستاذ البنا فى الكثير من كتاباته — فهنا مواجهة مع أنصار « التخلف — الموروث » ! ..

وأمام الهجمة التفريرية احتاج الأمر ، كذلك ، إلى التفرقة بين « التفاعل الحضارى » و « الاستفادة » ، التى ينهض بها « السليم — الراشد » ، وبين « التقليد والتبعية » ، اللذين يفرضهما الغالب على المغلوب ... فالأولى تزيد « السليم » سلامة ، و « الراشد » رشدا .. أما الأخرى فهى مسخ للشخصية الحضارية المتميزة ، وقهر يمارسه الغالب للمغلوب ! « فالاسلام لا يأبى أن تقتبس النافع وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها ،

(٦٤) البقرة : ١٨٥ .

(٦٥) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

(٦٦) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢٠ .

(٦٧) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٥٥ .

(٦٨) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢١ ، ١٢٢ .

ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه ، فى كل شىء ، بمن ليسوا من دين الله على شىء ، وأن
نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه ، لنجرى وراء قوم فتنهم الدنيا واستهوتهم
الشياطين !...» (٦٩)

وفى هذا الإطار .. ومن هذا المنطلق .. وبهذا المنطق .. وبعد أن أوضح الاستاذ البنا
هذا المعيار للتفاعل الحضارى وحدده ، كى يتبين « خيط التفاعل الأبيض » من « خيط
التبعية الأسود » ... ضرب الرجل « للتفاعل المقبول » الأمثال :

● فلتحقيق العدل الاجتماعى الإسلامى .. علينا أن نجتهد .. وأن ننظر فى تجارب الأمم ،
وأن نستفيد .. « وأى نظام اقتصادى فاضل يرحب به الاسلام ، ويدعو الأمة إلى تشجيعة ،
ولا يقف أبدا فى سبيله .. » (٧٠)

● ولتحقيق الشورى الاسلامية ، باعتبارها « فلسفة الحكم الإسلامى » ، علينا أن نجتهد
لنبدع النظم والتراتب التى تضع فضائل الشورى فى التطبيق .. وفى هذا الإطار لا بأس ولا
حرج من الاستفادة بما انجزت أوروبا فى مجال « النظام النيابى » — تمثيل الأمة — .. فليس
فى قواعد هذا النظام النيابى — الذى نقلناه عن أوروبا — ما يتناقض مع القواعد التى وضعها
الاسلام لنظام الحكم ، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيدا عن النظام الإسلامى ولا غريبا
عنه !...» (٧١)

وكذلك الحال مع « مبادئ الحكم الدستورى » — التى استعرتها من الديمقراطية
الأوربية — بما تعنى من : كفالة الحريات الشخصية ... والشورى السياسية ... واعتبار
الأمة مصدر السلطة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ... وتنظيم حدود السلطات ،
وعلاقاتها .. الخ .. الخ ... لا حرج فى الاستفادة من هذه « الانجازات الديمقراطية
الأوربية » ، لأنها ، بالعرض على الاسلام وموازينته ، نجدها « متفقة معه ، بل مستمدة من
نظامه » !... وبعبارة الاستاذ البنا : « فإن الباحث حين ينظر إلى مبادئ الحكم
الدستورى — [التى قام عليها الدستور المصرى الموضوع سنة ١٩٣٤ هـ — سنة
١٩٢٣ م] — التى تلخص فى : المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها ، وعلى
الشورى واستمداد السلطة من الأمة ، وعلى مسئولية الحكام أمام الشعب ، ومحاسبتهم على
ما يعملون من أعمال ، وبيان حدود كل سلطة من السلطات . هذه الأصول كلها يتجلى
للباحث أنها تنطبق كل الانطباق على تعاليم الاسلام ونظمه وقواعده فى شكل الحكم .

(٦٩) [الإخوان المسلمون تحت راية القرآن] مجموعة الرسائل . ص ٩٨ .

(٧٠) [نحو الور] مجموعة الرسائل . ص ٦٨ .

(٧١) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى] مجموعة الرسائل . ص ٢١٦ .

ولهذا يعتقد الاخوان المسلمون أن نظام الحكم الدستورى هو أقرب نظم الحكم القائمة في العالم كله إلى الاسلام ، وهم لا يعدلون به نظاما آخر ... فنحن نسلم بالمبادئ الأساسية للحكم الدستورى باعتبارها متفقة ، بل مستمدة من نظام الاسلام .. « (٧٢)

الإسلام .. والوطنية والقومية :

وهذه المصطلحات التى شاعت وتشيع في الحياة الفكرية والسياسية — من مثل « الوطنية » و « القومية » — حتى لقد غدت « نظريات » و « مذاهب » لأحزاب وجماعات .. إن البعض ينكرها جملة ويستنكرها بإطلاق ، لأنها من « وافد التغريب » ! .. لكن الأستاذ البنا يدعونا إلى النظر في المضامين أولا وأساسا ، فما وجدناه من مضامينها صالحا ، ومتسقا مع روح الاسلام السياسى والاجتماعى قبلناه ، بل وقبلنا معه ذات المصطلح والوعاء ! .. وماليس كذلك رفضناه ... وهو ينجح في معالجة هذه القضية نهجا حكيما ، تألق فيه فكره وأضاء ..

صحيح أن « رابطة العقيدة — [عند الاسلاميين] — هى أقدم من رابطة الدم ورابطة الأرض » (٧٣) ... وأن فكرة القومية تذوب أمام فكرة الأخوة الاسلامية التى يثبها القرآن في نفوس من يتبعونه جميعا .. « (٧٤) ... لكن « الوطنية » إذا كانت حبا للوطن الذى ولدنا فيه ، وحنينا إليه ، واختصاصا له بالخدمة الأكبر ، وتفضيلا له على غيره ، عند ترتيب الأولويات والامكانات .. وإذا كانت طاقة تشحن الأمة بالكبرياء التى تعينها على قهر التحديات التى يفرضها عليها الأعداء ... إذا كانت « الوطنية » هى هذه المعانى والمضامين والمشاعر والمثل .. فإن الاسلام يحتضنها ، بل ويعتبرها جزءا من منظومة فكره السياسى .. فقط يحذر أن تكون حدودها قاصرة على الاقليم الضيق الذى ولد فيه الانسان ... فهو يسلكها في سلسلة من الحلقات ، منها الأخص ، ومنها الخاص ، ومنها العام ، ومنها الأعم ؟ ... فإذا كانت « الوطنية » هى : حب هذه الأرض ، وألفتها ، والحنين إليها ، والانعطاف نحوها ، فذلك أمر مركوز في فطر النفوس من جهة ، مأمور به في الاسلام من جهة أخرى (٧٥) ... « فقط يطلب منا الاسلام أن لا نقف بحدودها عند حدود « الاقليم » الصغير الذى ولدنا فيه .. « فلقد وسع الاسلام حدود الوطن .. ليشمل : القطر الخاص أولا .. ثم يمتد إلى الأفطار الاسلامية .. ثم يرقى إلى الامبراطورية الاسلامية الأولى .. ثم يسمو حتى يشمل الدنيا جميعا ... وبذلك يكون الاسلام قد وفق بين شعور الوطنية الخاصة

(٧٢) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٧٣) [دعوتنا] مجموعة الرسائل . ص ٢٢ .

(٧٤) [إلى أي شيء ندعو الناس] مجموعة الرسائل . ص ٤٩ .

(٧٥) [دعوتنا] مجموعة الرسائل . ص ١٧ .

وشعور الوطنية العامة بما فيه الخير كل الخير للإنسانية جميعا ..» (٧٦)

ولقد ضرب الأستاذ البنا المثل التطبيقي لهذه «الحلقات والدوائر» ، التي تبدأ بـ «الوطن» — مصر — أو بـ «المصرية» — [وكان يسميها في ثلاثينيات القرن العشرين : القومية] — فالدائرة «العربية» .. فالدائرة «الاسلامية» .. ثم الدائرة «العالمية — الانسانية» ... ضرب المثل التطبيقي لهذه الدوائر ، المتوالية ، في ترابط وتفاعل واتساق ، دونما تعارض أو تناقض فقال : «إن مصر هي قطعة من أرض الإسلام ، وزعيمة أممها» (٧٧) ... وفي المقدمة من دول الإسلام وشعوبه (٧٨) ...! والمصرية — أو القومية — لها في دعوتنا مكانها ومنزلتها وحققها في الكفاح والنضال ...» ثم تسأل منكرا ومستنكرا : «كيف يقال إن الايمان بالمصرية لا يتفق مع مايجب أن يدعو إليه رجل ينادى بالاسلام ويهتف بالاسلام؟! إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب ، عاملون له ، مجاهدون في سبيل خيره ، وسنظل كذلك ماحيينا ، معتقدين أن هذه هي الحلقة الأولى في سلسلة النهضة المنشودة ، وأنها جزء من الوطن العربي العام ، وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والاسلام ... والعروبة — [وهي الحلقة والدائرة الثانية والثالثة] — لها في دعوتنا ، كذلك ، مكانها البارز ، وحظها الوافر ، فالعرب هم : أمة الاسلام الأولى وشعبه المتخير ، وبحق ما قاله ﷺ : «إذا ذل العرب ذل الإسلام» !. ولن ينهض الاسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها ... إن هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى المحيط كلها عربية . تجمعها العقيدة ويوحد بينها اللسان ، وتؤلفها الوضعية المتناسقة في رقعة من الأرض متصلة متشابهة ، لا يحول بين أجزائها حائل ، ولا يفرق بين حدودها فارق» (٧٩) . ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ، ولخير العالم كله ... والقرآن عرى ، وهو أساس هذا الدين ، وركن الصلاة أفضل القربات إلى الله ، وتلك هي الوسيلة العملية إلى وحدة اللسان ، بعد وحدة الايمان! دعوتنا ذات مراحل ، نرجو أن تتحقق تباعا ، وأن نقطعها جميعا ، وأن نصل بعدها إلى الغاية . نرجو أن تقوم في مصر دولة مسلمة تحتضن الاسلام ، وتجمع كلمة العرب وتعمل لخيرهم ، وتحمي المسلمين في أكناف الأرض من عدوان كل ذي عدوان ، وتنشر كلمة الله وتبلغ رسالته ... حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله! ..» (٨٠)

(٧٦) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٧٧) [إلى الشباب] مجموعة الرسائل . ص ٨٨ .

(٧٨) [الاخوان المسلمين تحت راية القرآن] مجموعة الرسائل . ص ٩٩ .

(٧٩) لاحظ أنه بعدد هنا خصائص القومية العربية وسماتها ..

(٨٠) [دعوتنا في طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١١٢ - ١١٥ آ

وفي مكان آخر ، يزيد الأستاذ البنا هذه المعاني — الخاصة « بالدوائر » المتتالية في ارتباط وتناسق — يزيدا تأكيداً ، فيقول : « إن الاخوان المسلمين يحبون وطنهم ، ويحرصون على وحدته القومية ... ثم إن هذا الاسلام الخفيف نشأ عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان ... وقد جاء في الأثر : « إذا ذل العرب ذل الاسلام » !. وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسى ، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم ، فالعرب هم عصبه الاسلام وحراسه ... ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لا بد منه لإعادة مجد الاسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه ، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها ... إن الاخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة ، باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود ، ولا يرون بأسا أن يعمل كل إنسان لوطنه ، وأن يقدمه في العمل على سواه . ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية ، باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض ، ثم هم يعملون للجامعة الاسلامية ، باعتبارها السياج الكامل للوطن الاسلامى العام .. ثم هم يريدون الخير للعالم كله ... ولا تعارض بين هذه الوحدات ، بهذا الاعتبار ، فكل منها يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها !... »^(٨١)

فالاسلام الذى « يعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة ، ويعتبر الوطن الاسلامى وطنا واحدا ... »^(٨٢) لا يتنكر للوطنية ، ولا للقومية .. بل يرى « الجامعة الاسلامية » ثمرة تلى الدائرة القومية ، التى تلى ، هى الأخرى ، دائرة الوطن الذى نشأ المسلم فيه !... فقط ينكر الاسلام ويستنكر القومية إذا عنت « العصبية الجنسية والفخر الكاذب .. » أما إذا عنت « الاعتزاز بالمازى والتاريخ » فهى مما تحتاج إليه « الأمم الناهضة »^(٨٣) عندما تواجه التحديات التى تحول بينها وبين النهوض !..

هكذا فهم الأستاذ البنا « الاسلام السياسى » .. ووعى فكره ومرامى هذا الفكر ووظائفه فى هذا الحقل الذى اختلف فيه الاسلاميون .. ولا يزالون مختلفين !؟..

بل إن الإعجاب بفكر الرجل هذا ليزداد عندما نراه وقد تطلع إلى « الفكرة العالمية » ، فرآها الهدف الأسمى والغاية العظمى ... وفى ذات الوقت نظر فى « القومية » فرآها « مرحلة » ضرورية ، فى سلم الرق البشرى نحو هذه « العالمية » ، تنهض بدور هام فى تقدم الانسان على هذا الدرب الطويل ... فما يشهده العالم من « بعث وطنى » ، و« وحدات

(٨١) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٧٦ - ١٧٨ .

(٨٢) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٧٦ .

(٨٣) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٦١ ، ٦٢ .

قومية « ، و « اتحادات إقليمية » ، و « تنظيمات دولية » ، هي خطوات على الطريق إلى « العالمية » المنشودة ... « فهذه العالمية ، أو الإنسانية هي هدفنا الأسمى ، وغايتنا العظمى ، وختام الحلقات في سلسلة الإصلاح ، والدنيا صائرة إلى ذلك لا محالة ، فهذا التجمع في الأمم ، والتكامل في الأجناس والشعوب ، وتداخل الضعفاء بعضهم في بعض ليكتسبوا بهذا التداخل قوة ، وانضمام المفترقين ليجدوا في هذا الانضمام أنس وحدة ، كل ذلك ممهد لسيادة الفكرة العالمية وحلولها محل الفكرة الشعبية القومية التي آمن بها الناس من قبل ، وكان لابد أن يؤمنوا هذا الإيمان لتتجمع الخلايا الأصلية ، ثم كان لابد أن يتخلوا عنها لتتألف المجموعات الكبيرة ، ولتحقق بهذا التآلف الوحدة الأخيرة . وهي خطوات إن أبطأ بها الزمن فلا بد أن تكون ، وحسبنا أن نتخذ منها هدفاً ، وأن نضعها نصب أعيننا مثلاً ، وأن نقوم في هذا البناء الانساني لبنة ، وليس علينا أن يتم البناء ، فلكل أجل كتاب ! » (٨٤)

إن الذين يعون هذا الفكر الذي تألق وأشرق بالاسلام — والذي وفق به الاستاذ البنا وجمع بين « الوطنية » و « القومية » و « الجامعة الاسلامية » و « الإنسانية » .. ثم يرون الخلاف والاختلاف الذي لا يزال قائماً في صفوف الاسلاميين حول هذه القضية ، لا يملكون إلا الاعجاب والاكبار للرجل ... والدعاء بالتوفيق والهدى للذين ينتسبون إليه ، دون أن يفقهوا ماخطت يمينه من صفحات في هذا الميدان !؟ ..

لقد أعاد جماعة من [الاخوان المسلمين] نشر [رسالة المؤتمر الخامس] للأستاذ البنا ... وعند الصفحات التي تحدث فيها عن « موقف الاخوان المسلمين من الوحدة القومية والعربية والاسلامية » — وهو الموقف الذي عرضناه هنا — عند هذه الصفحات — ولما لم تبلغ بهم « الجرأة » حد « الحذف » أو « التشويه » لرأى الامام المرشد .. كتبوا في « الهامش » يقولون عن آراء إمامهم المرشد مانصه :

« تصور بعض دعاة الاسلام إبان ظهور الدعوات الوطنية والقومية إمكان التقائهما مع الاسلام ، وهذا خطأ واضح ، أثبت التطبيق العملي أن الاسلام وهذه الدعوات لا يمكن أن يلتقيا بحال ، لأن الإسلام دين رباني إنساني عالمي ، بينما هذه الدعوات بشرية أرضية عنصرية » (٨٥)

هكذا كتب فريق من [الاخوان] ... وهكذا نشر ناشر من [الاخوان] ...

وفي مجلة [الدعوة] — لسان حال [الأخوان المسلمين] — كتب « كاتب » منهم — فسوى — في العلاقة والرابطة والولاء — بين المسلم المصري وأخيه المصري ، وبين

(٨٤) [دعوتنا ل طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١١٤ .

(٨٥) انظر [رسالة المؤتمر الخامس] ص ٤٥ . طبعة دار الاعتصام . القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

هذا المصرى والمسلم فى أندونيسيا أو نيجيريا أو تركستان .. الخ ... منكرا أى أثر
« للوطنية » أو « القومية » فى هذا المقام^(٨٦)؟! ..

الأمر الذى يجعلنا نترحم على فكر الأستاذ البنا عند هذا الفريق من المنتسبين إليه ..
وندرك مدى الحاجة إلى إعادة قراءته ، والتعمق فى فهمه ، وإدارة أوسع حوار حوله بين
الإسلاميين وغير الإسلاميين !...

لقد كان حسن البنا ، وجماعة [الإخوان المسلمين] ، أبرز الإجابات الإيجابية التى
رفضت بها أمتنا « التحدى الحضارى » الذى فرضه عليها أعداؤها .. سواء منه : « الوافد
العثماني الموروث »؟! أو « الوافد الغربى الطارئ »؟! .. وكان « الاسلام الشامل » هو
البديل الذى قدمته هذه الإجابة ، ورأت فيه « فكرية الأمة » ، المعبرة عن خصوصيتها
الحضارية ، وشخصيتها القومية .. كما رأت فيه حصنها التاريخى العريق والعديد أمام كل المخاطر
وجميع التحديات !...

وسبل التنفيذ :

وعلى قدر خطر « التحدى الحضارى » الذى نهضت جماعة [الإخوان المسلمين]
لمواجهته .. وعلى قدر شرف الغاية التى تمثلت فى « البديل الإسلامى » ، الذى عملت
الجماعة على إعادته إلى الأمة ، وإعادة الأمة إليه من جديد ، ليتصل ما انقطع من تطورها
الإسلامى « بالتخلف المملوكى — العثمانى » و« التحديث الغربى المادى » ... على قدر
هذا الخطر كان تدبير الأستاذ البنا ، يرحمه الله ، وتقديره ...

لقد كان دائم الإلحاح على أعضاء الجماعة — والشباب منهم خاصة — أن
لا يتعجلوا مرحلة التنفيذ ، وجنى الثمار قبل الأوان ...

« أيها الإخوان المسلمون ، وبخاصة المتحمسون المعجلون منكم : اسمعوا منى
كلمة عالية داوية ... إن طريقكم هذا مرسومة خطواته ، موضوعة حدوده » . ولست
مخالفا هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول . أجل ، قد تكون
طريقا طويلة ، ولكن ليس هناك غيرها . إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل

(٨٦) د . محمد رشاد خليل [شخصية مصر التاريخية] مقال بمجلة [الدعوة] . القاهرة . فى عدد ربيع الثانى سنة ١٣٩٨ هـ .
ص ١٩٧٨ م .

الدائب ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات . ومن صبر معي حتى تنمو البذرة ، وتنبث الشجرة ، وتصلح الثمرة ، ويحين القطاف ، فأجره في ذلك على الله ، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين : إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة ..

أيها الاخوان المسلمون : أجمعوا نزوات العواطف بنظرات العقول ... ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غالباً ، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر ، وماهي منكم بعيد ! .. ^(٨٧)

قال الأستاذ البنا ذلك [سنة ١٣٥٧ هـ سنة ١٩٣٨ م] وكانت الدعوة يومها في مرحلة « التعريف » ، أى « نشر الفكرة بين عامة الناس » ... فلما كان يوم الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ ١٣ إبريل سنة ١٩٤٠ م تمت البيعة « للعناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد » وانتظمت في « الكتائب الاخوانية » .. واصبح لها نظام خاص في الدعوة — « صوفي بحث من الناحية الروحية ، وعسكري بحث من الناحية العملية » — .. وصار شعارها فيها : « [أمر وطاعة] من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج » .. ولم تكن الدعوة في هذا الطور « عامة » ، كما كانت في شعب الإخوان وأجهزتها ووسائل إعلامها ومجالات أنشطتها المرئية ، بل كانت « دعوة خاصة ، لا يتصل بها إلا من استعد استعدادا حقيقيا لتحمل أعباء جهاد طويل المدى كثير التبعات »

وسارت الجماعة بجناحيها هذين ، العام والخاص ، تسعى لليوم الذى تحين فيه وتأتى « مرحلة التنفيذ .. مرحلة الجهاد الذى لا هوادة معه ، والامتحان والابتلاء للذين لا يصبر عليهما إلا الصادقون » ^(٨٨) !

ومن هنا نستطيع القول بأن الأستاذ البنا ، إدراكا منه لخطر التحدى .. ولخطر الغاية وشرفها ، قد اعتمد سياسة « المراحل » في الاعداد والتنفيذ — وبدون إدراك هذه الحقيقة يستحيل تفسير الكثير من مواقف الإخوان غير الواضحة وغير الحاسمة في بعض الفترات وبعض الممارسات !؟ —

ونستطيع أن نقول : إن الرجل قد أدرك — بل وأعلن — أن « القوة » ضرورة لابد من الاعداد لها ، والاستعداد بها ، واستخدامها في الوصول إلى هذا الهدف العظيم !.. فهو لم

(٨٧) | رسالة المؤتمر الخامس | مجموعة الرسائل . ص ١٦١ .

(٨٨) | رسالة التعاليم | مجموعة الرسائل . ص ٢٧٤ .

يخدع أحدا .. ولم يفاجئ أحدا .. بل كان واضحا ، في هذا الأمر ، كل الوضوح !...

ولنقرأ له هذه السطور :

« يتساءل كثير من الناس : هل في عزم الاخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم ؟ وهل يفكر الاخوان المسلمون في إعداد ثورة عامة على النظام السياسى أو النظام الاجتماعى فى مصر ؟... »

أما القوة ، فشعار الإسلام فى كل نظمته وتشريعاته !... فالإخوان لابد أن يكونوا أقوياء ، ولابد أن يعملوا فى قوة ... وأول درجة من درجات القوة : قوة العقيدة والايمان ، وبلى ذلك : قوة الوحدة والارتباط ، ثم بعدها قوة الساعد والسلاح !... »

والثورة : أعنف مظاهر القوة ... إن الإخوان سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها ، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الايمان والوحدة »

أما الثورة . فلا يفكر الاخوان المسلمون فيها ... وإن كانوا يصارحون .. بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ... فسيؤدى حتما إلى ثورة^(٨٩).. إلى أرى الوميض خلال الرماد ويوشك أن يكون له ضرام^(٩٠).. »

أيها الإخوان : ... إن قيل لكم : أنتم دعاة ثورة ، فقولوا : نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعزز به ، فإن ثرتم علينا ، ووقفتم فى طريق دعوتنا ، فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا ، وكنتم الثائرين الظالمين !... »^(٩١)

لقد حدد الرجل ، فى وضوح وجلاء : ... أن « القوة » هى طريق جماعة [الاخوان المسلمين] لمواجهة التحديات التى تعترض سبيل تحرير الوطن الاسلامى ، وإقامة الدولة الاسلامية ، وإعادة الأمة إلى كامل شريعة الاسلام ... »

• « فالكثائب الإخوانية » ، تتربى — روحيا — تربية « صوفية بحتة » .. وشعارها « أمر .. وطاعة » .. أى أمر القائد الشيخ .. وطاعة الجندى المريد « من غير تردد ولا مراجعة ولا حرج » !— ونظام هذه « الكثائب » : « عسكرى بحت من الناحية العملية » ..! »

• و« القوة العملية » — قوة « الساعد والسلاح » — يستخدمها [الاخوان] حينما « يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة » ! »

(٨٩) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٩٠) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ١٩٦ .

(٩١) [بين أمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٤٤ .

أما الثورة ، فهي واردة ... فوميضها تحت الرماد ، يوشك أن يكون له ضرام ...
وشرعيتها وقيامها مرهونان باعتراض الآخرين طريق الدعوة - وهم بالقطع معترضون - ؟!
... والمسئولية عنها يتحملها « المعترضون الظالمون » ...!

هكذا كان الشيخ البنا واضحا وصريحا ، رغم ما اشتهر به من الكياسة والصياغات المرنّة
والتوفيقية ، التي تدع مختلف الأبواب مفتوحة ، وتترك الفرص لكل الاحتمالات ؟!
لكن الذى حدث لهذا التخطيط والتقدير والتدبير ، مع نهاية أربعينيات هذا القرن
معروف ، لا يزال ماثلا فى الأذهان ..!

● فهل تعجلت عناصر « الجهاز الخاص » السرى والمسلح ، مرحلة « التنفيذ » قبل « استكمال
العدة » (٩٢) ؟ ...!

وهل نفذ صبرهم ، فلم ينتظروا التوقيت الذى حدده المرشد عندما قال لهم : « أريد أن
أكون صريحا معكم للغاية ، فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة ... أعدوا أنفسهم ... وفى الوقت
الذى يكون فيه منكم ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها ، روحيا بالايمان والعقيدة ،
وفكريا بالعلم والثقافة . وجسميا بالتدريب والرياضة ، فى هذا الوقت طالبونى بأن أخوض
بكم لجج البحار . وأقتحم بكم عنان السماء ، وأغزو بكم كل عنيد جبار ، فإنى فاعل
إن شاء الله ! » (٩٣)

هل تعجلت عناصر « الجهاز الخاص » مرحلة « التنفيذ » ، واستخدام القوة قبل
« التوقيت » الذى تحدث عنه الأستاذ المرشد ؟ ...!

● أم أنها قد دُفعت إلى ذلك دفعا ؟ ...!

● أم الأمران والسببان معا ؟ ...!

إننا لانملك أسباب الفصل فى هذه القضية ... فقط نقول :

إن دعوة البعث الإسلامى هذه ، التى شهدتها القرن الهجرى الرابع عشر ، كأعظم
حركات تجديد حياة الأمم والشعوب الاسلامية ، قد دخلت طور « المحنة » ، التى تنبأ بها
مرشدها العام ، عندما خاطب [الاخوان] فقال : « إنكم ستدخلون فى دور التجربة
والامتحان ، فتسجنون وتعتقلون ، وتنقلون وتشردون ، وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم

(٩٢) الجهاز الخاص هو الجهاز السرى المسلح .. وهو غير الكتاب ، الذى كانوا أعضاء الجاعة « العاملين » .

(٩٣) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٦٢ .

وتفتش بيوتكم ، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ (٩٤) ١؟ ... (٩٥)

لكن « المحنة » لم تقف عند هذه الحدود ...

فلقد استشهد ، غيلة ، المرشد العام في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٦٨ هـ ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ م ... ففقدت الحركة إمامها ومرشدها ... وظهرت سلبيات تلك « العادة الشرقية » ، عادة تفرد القائد وتقيزه عن خلفائه ونوابه ورجال « الصف الثاني » على نحو يباعد بينه وبينهم في الصفات والقدرات إلى الحد الذي يجعل فقده بمثابة الزلزال الذي يصيب الحركة فيسلبها إمكانيات الاستمرار على البحر الذي كانت عليه في حياة القائد المؤسس والإمام المرنى ...!

لقد حدث ذلك لدعوة [الإخوان المسلمين] وحركتها ... فلما استحكمت المحنة واشتدت ، بعد صدامها مع ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م في سنة ١٩٥٤ م ... وضحت ، في هذا الصدام وفيما تلاه ، مدى خسارة الدعوة في مرشدها الأول ... لقد « تشرذمت » الحركة ، بعد فقد مرشدها الأول ... وكثير من « شرادمتها » قد فقد « الرشد » بعد فقد « المرشد » ١؟ ...

ودخلت الصحوة الاسلامية ، أو أدخلت في طور جديد ... طور يتميز بـ « الثورية » .. وبـ « العمل » الذي يجتذب مواكب الشباب الطاهر المقبل على الاسلام ... ويتميز ، كذلك ، بتعدد التنظيمات إلى الحد الذي يجعل بأس الاسلاميين بينهم شديدا ١؟ ... وبالاتقار إلى « الاجتهاد » في الفكر .. وفكر « الاسلام السياسي » على وجه الخصوص

لقد بدأت الصحوة الاسلامية ، لدى تيار « الجامعة الاسلامية » : « اجتهاد صفوة » ، في الأساس ... ثم أضافت حركة [الإخوان المسلمين] إلى هذا « الاجتهاد » : « العمل » ، بواسطة « التنظيم المتحد » ... لكنها عادت اليوم تفتقر إلى « وحدة التنظيم » وإلى « الاجتهاد » ... فـ « العمل » الاسلامي ، الذي يجتذب اليوم مواكب الشباب الطاهر الممتلئ بالحماس ، مع « التشرذم » التنظيمي ، والافتقار إلى « الاجتهاد » الذي يبرز « للعمل » الطريق ، يجعل الصحوة الاسلامية أشبه ما تكون بـ « المجاهد » الذي يمشی إلى الميدان على ساق واحدة ١؟ ... وفي أحيان كثيرة تحيطه الظلمات ١؟ ...

« « «

(٩٤) التكبوت : ٢ .

(٩٥) [بين أمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٤٣ .

لكن ... طالما قام الاسلام ديناً لهذه الأمة .. وهو قائم محفوظ بأمر الله وإرادته ...
وطالما ارتضت هذه الأمة هذا الدين رباطاً يربطها بالخالق ... فلا بد من الجهاد لجعل هذا
الدين : الرباط الذى يربط بين أفرادها ، وينظم لها شئون الدنيا ... فالسبيل إلى تجديد دنيانا
هو سبيل الاسلام ... وتلك سبيل ، لمريد الاصلاح في المسلمين — كما قال الامام محمد
عبد — لا مندوحة عنها ، ولا سبيل سواها !..

الفصل الرابع

الجماعة الإسلامية

كان الأستاذ أبو الأعلى المودودي [١٣٢١ - ١٣٩٩ هـ ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م] في الخامسة عشرة من عمره عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها [١٣٣٧ هـ ١٩١٨ م] وفي هذا التاريخ بدأ العمل في « الصحافة » ..

ومع انتهاء الحرب ظهرت معالم المخطط الذي رسمه الاستعمار الغربى لابتلاع ماتبقى من أوطان المسلمين ... فالسيطرة قد تمت على قلب العالم الاسلامى : الوطن العربى .. بل لقد زحفت جيوش « الحلفاء » فاحتلت « استانبول » — في ١٣ جمادى الثاى سنة ١٣٣٧ هـ ١٦ مارس سنة ١٩١٩ م — ؟! .. وانتشى الاستعمار .. وتساءلت « الروح » الصليبية الكامنة فى غزوته ، وهى فرحة : ماذا بقى للإسلام ؟! وماذا يستطيع المسلمون أن يفعلوا بعد أن احتلت جيوش أوربا عاصمة « الخلافة » ، « الرمز » الذى أرقنا وأقضى مضاجعنا لعدة قرون ؟! ..

وأمام هذا الحدث الجلل ، استشعر المسلمون الخطر ، فبدأت ، على امتداد الساحة الاسلامية « حركة الدفاع عن الخلافة الاسلامية » ... وكانت أول عمل إسلامى يشارك فيه الفتى الصحفى أبو الأعلى المودودى ، وهو ابن ستة عشر عاما !..

وفى نفس العام [١٣٣٧ هـ ١٩١٩ م] أسهم إسهما بارزا فى المجلس الذى تكون لإعانة ومساعدة المسلمين ، بالهند ... ثم كون فى العام التالى [١٣٣٨ هـ ١٩٢٠ م] جبهة صحفية ، تعمل لتحرير الأمة الاسلامية ، وتبليغ دعوة الاسلام ، ونصرة المسلمين !..

وهذا النشاط الاسلامى ، الذى اجتذب المودودى ، دفعه دفعا إلى الاهتمام بتثقيف نفسه إسلاميا وعربيا ، فبدأ [١٣٣٩ هـ ١٩٢١ م] يدرس الأدب العربى ، وتفسير القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وكذلك المنطق ، والفلسفة ، بالإضافة إلى دراسة اللغة

الانجليزية ، والمطالعة في آدابها ...

ومع الدراسة المعمقة ، استمر المودودي يمارس العمل بالصحافة ، وأضاف إلى ذلك :
الخطابة حول القضايا الاسلامية .. ثم انعطف إلى التأليف

وفي الوقت الذي كانت أوروبا الاستعمارية قد جعلت صدور المسلمين أعمادا
لسيوفها ..! كان قطاع من « هنادكة » الهند ينتقدون الاسلام ، زاعمين أنه قد انتشر
بالسيف ، وليس بالحجة والقعدة والمنطق والبرهان ...! ويومها وجه الزعيم المسلم الهندي
محمد علي جوهر [١٢٩٥ - ١٣٥٠ هـ - ١٨٧٨ - ١٩٣١ م] ندائه إلى الشباب أن يردوا
على هذا الاتهام ، الذي شارك فيه الزعيم غاندي [١٢٨٦ - ١٣٦٧ هـ - ١٨٦٩ -
١٩٤٨ م] .. فاستجاب للنداء أبو الأعلى المودودي .. فكان طليعة تأليفه الاسلامية كتابه
[الجهاد في الاسلام] الذي اكتمل [١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨ م] .. ليكون استهلالا ذا دلالة
على ما ستحفل به سنوات حياته القادمة من أحداث ونضالات ، جعلت منه « المفكر —
المناضل » الذي قاد واحدة من فصائل « الصحوة الاسلامية » في الهند وباكستان — فيما
بعد — وأحدث ، ولا يزال ، مالم يحدثه الكثيرون في تيار الصحوة الاسلامية على امتداد عالم
الاسلام والمسلمين ...!

* * *

وبعد أن كان المودودي يخاطب القارئ المسلم الهندي من خلال صحف ومجلات ،
يصدرها الآخرون .. أصدر في [١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م] مجلته [ترجمان القرآن] من مدينة
« حيدر آباد الدكن » ، لتكون المنبر الفكري الذي تابع فيه دعوته لبعث الاسلام وتجديده
ولإيقاظ المسلمين ونهضتهم ... ولقد جعل شعار هذه المجلة كلمات تقول : « احمّلوا — أيها
المسلمون — دعوة القرآن ، وانهضوا ، وحلّقوا فوق العالم » ١٩ ...

وكانت الهند تموج بأحداث حركة التحرير الثائرة طلبا للحرية والاستقلال عن
الاستعمار الانجليزي ، يقودها [حزب المؤتمر] ، الذي يقوده ، روحيا : غاندي ، وتنظيما
جواهر لال نهرو [١٣٠٦ - ١٣٨٣ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٦٤ م] ، والذي انخرط فيه جمهور
الهنادكة ، والقطاع الأكبر من المثقفين والساسة والشباب المسلمين ... وإلى جانب هذا
الحزب كان تيار إسلامي ، يدعو إلى التميز عن هذه الحركة ، في « التنظيم » ، إيمانا منه
باختلاف صورة المستقبل عند المسلم عنها عند الهندوكي ، لما بينهما من اختلاف « قومي » ،
فهما — برأى هذا التيار الاسلامي — أمتان قوميتان ، وليسوا أمة واحدة ..! وكان الشاعر
الفيلسوف محمد إقبال [١٢٩٠ - ١٣٥٧ هـ - ١٨٧٣ - ١٩٣٨ م] من أبرز رموز هذا
التيار ..

وكان تأثير المودودي — عبر [ترجمان القرآن] — عاملا من عوامل اشتداد ساعد هذا التيار الاسلامي ، الذي تبلور في حزب [الرابطة الاسلامية] ، والذي حسم الموقف فدعا إلى استقلال الولايات ذات الأغلبية الاسلامية ، ذاتيا ، عن تلك التي أغلبيتها هندية ، في مؤتمره الذي عقد في « لنكو » [١٣٥٦ هـ سنة ١٩٣٧ م] ... ولشهرة المودودي ، التي أبرزته في محيط التيار الاسلامي ، ولتعاظم تأثيره ، دعاه ، في ذات العام ، المفكر إقبال إلى « لاهور » ، ليمارس نشاطه منها .. فلبى الدعوة ، وغادر « حيدر آباد الدكن » إلى « لاهور » ... وفي العام التالي [١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م] انتقل إقبال إلى جوار ربه ... واشتد النضال الفكري للمودودي ضد دعاة « القومية الهندية الواحدة » ، وفي سبيل مستقبل مستقل ، سياسيا ، للمسلمين الهنود ، تميزهم قوميا وحضاريا عن « الهندوك » ..

وفي السنوات الثلاث التي أعقبت موت إقبال [١٣٥٨ - ١٣٦٠ هـ ١٩٣٩ - ١٩٤١ م] كتب المودودي مؤلفاته التي بلورت فكره السياسي الاسلامي ، والذي واجه به « التحدي الحضاري » الذي كان يواجه مسلمي الهند في ذلك التاريخ ، والذي كان يتمثل في فكر الحضارة الغربية الغازية ، حول :

١ - القومية السياسية المبنية على « وحدة الأرض » ، و« المصلحة السياسية الواحدة » لعموم الهنود في التحرر من الاستعمار الانجليزي ..

٢ - والدولة « الديمقراطية » — على النمط الغربي — التي تحكمها « الأغلبية » وتخضع فيها « الأقلية » ..

٣ - و« العلمانية » ، التي تفصل « الدين » عن « الدولة » ، ولا تجعل الدين قسمة يتنازع بها الناس قوميا وحضاريا .. وما تمثله هذه « العلمانية » من سيادة « الروح المادية » للحضارة الغربية في مختلف مناحي الحياة ...

أما الجناح الآخر لهذا « التحدي الحضاري » فكان « التخلف الموروث » ، والمحسوب — زورا وبهتانا — على الاسلام ، والمتمثل في الفكر « الاسلامي » التقليدي ، السائد في المؤسسات « الاسلامية » التقليدية .. وهو الفكر الذي طمس تألق الاسلام وجاذبيته ، فأسهم هذا الطمس في دفع الكثيرين من مسلمي الهند إلى صفوف حزب المؤتمر ، بعد أن آمنوا بأن النمط الحضاري الغربي هو أنسب الأنماط الحضارية لنهضة « عموم الهند » ! ..

وكانت كتب المودودي ، التي صاغ فيها فكره الذي واجه به — بل تحدى — هذا « التحدي الحضاري » ، هي :

١ - [المسلمون والصراع السياسي الراهن] الذي كتبه [١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م] ..

- ٢ - و[الأمة الاسلامية وقضية القومية] الذى كتبه [١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م] ..
- ٣ - و[النظرية السياسية الإسلامية] وهى محاضرة القاها [١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م] ..
- ٤ - و[الحكومة الاسلامية] الذى كتب فصوله بين [١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م] ..
- ٥ - و[موجز تاريخ التجديد وإحيائه] الذى كتبه [١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م] ..

وفى الوقت الذى كان المودودى « يبلور » فيه « الفكر — المناضل » ، الذى تحدى به ما سماه « الجاهلية » ، بشكليها وجناحيها « الوافد — الغربى » ، و« الموروث — المنحط » .. فى ذات الوقت كان يسعى إلى « بلورة » « الأداة التنظيمية » ، القادرة على وضع هذا الفكر الإسلامى فى التطبيق ، وقيادة النهضة الاسلامية والبعث الحضارى الإسلامى الجديد .. كان يسعى إلى تكوين [الجماعة الاسلامية] ، التى تخرج الأمة من « الجاهلية » إلى « الاسلام » من جديد ، كما صنع ذلك ، من قبل جيل الصحابة بقيادة الرسول محمد ، عليه الصلاة والسلام .. ذلك أن المودودى قد خابت آماله فى حزب [الرابطة الاسلامية] ، الذى كان يقوده محمد على جناح [١٢٩٣ - ١٣٦٧ هـ - ١٨٧٦ - ١٩٤٨ م] — لأنه وإن دعا إلى استقلال مسلمى الهند عن هنداكتها ، ولكن آمن بتميز المسلمين قوميا ، إلا أن هذا الحزب قد كان غارقا فى « روح التغريب » الذى أشاعته الغزوة الاستعمارية الأوروبية فى البلاد ، حتى لقد تصور « القومية الاسلامية » على النحو الذى كانت عليه صورة القومية فى الفكر الغربى إلى حد كبير ! ..

ومع تبلور فكر المودودى هذا — وهو « فكر — مناضل » — امتلك « الأداة — المناضلة » ، عندما اجتمع بـ « لاهور » ، استجابة لدعوته ، خمسة وسبعون رجلا ، فأسسوا [الجماعة الإسلامية] فى ٣ شعبان سنة ١٣٦٠ هـ - ٢٦ أغسطس سنة ١٩٤١ م ، وانتخبوا الأستاذ المودودى أميرا لها .. فبدأت بهذه الجماعة مسيرة واحدة من فصائل تيار « الصحوة الاسلامية » ، ذات الطابع المتميز ، فيما طرحته من « فكر » ، وفقا لما تميز به « الواقع » الذى قامت فيه ، وتصدت لتجديده وتغييره ؟! ..

» » »

فى مواجهة « الجاهلية الموروثة » ؟ :

كانت المرة الأولى التى يشيع فيها ، بأدبيات إحدى فصائل « الصحوة الاسلامية » ، وصف واقع الأمة بـ « الجاهلية » ! ويتكرر الحديث عن « ارتداد » المجتمع — « المسمى »

بالاسلامى — إلى « الجاهلية » المماثلة لتلك التى أخرج الاسلام العرب من ظلماتها إلى نوره وتنويره .. وكان الأستاذ المودودى هو الذى ارتاد المنحى الجديد فى وصف وتشخيص واقع المسلمين .. ففكرهم الموروث : جاهلى .. والوافد الذى أخذوه عن الحضارة الغربية « جاهلية .. جديدة .. معاصرة .. متحضرة ١٩ »^(١) ... ذلك « أن دين الله قد رزىء وغلب على أمره بيد الكفر وأهله ، وأن حدود الله ما انتهكت واعتدى عليها فحسب ، بل إنها تكاد تنعدم من الوجود ، لأجل غلبة الكفر ، وأن شريعة الله قد أهملت ونبذت وراء الظهور ، لا عملاً فقط ، بل بموجب القانون أيضا ، وأن أرض الله قد اعتلت فيها كلمة أعداء الله »^(٢) ١٩ ..

فالكفار أعداء الله — الإشارة هنا إلى المستعمرين الغربيين — قد غلبوا المسلمين — بالعدوان المادى والفكرى — على الدنيا وعلى الدين .. لقد احتلوا الأرض ، ونهبوا الثروة ، واستعبدوا البشر ... وفوق ذلك طاردوا الاسلام حتى طردوه من المؤسسات الاسلامية ، مدرسة ، ومحكمة ، وديوانا ، ومن عقول الفئة التى تعلمت وثقفت وغدت ذات تأثير يسهم فى عموم الابتلاء بالجاهلية بين العامة والجماهير ... ولقد تمادى أعداء الله ، فتجاوزوا مرحلة مطاردة الاسلام وطرده عمليا من واقع المسلمين وفكرهم ، وبلغوا مرحلة « تقنين » هذا الطرد ، عندما جعلوا شرائعهم هى الحاكمة فى بلاد المسلمين بدلا من شريعة الله ، وحرسوا ذلك الانقلاب ، لا بجيوشهم وحدها ، بل وبالذين « تغربوا » ممن ينتسبون إلى الاسلام ١٩ ..

ولقد أعان أعداء الله على إحكام سيطرة « جاهليتهم الحديثة » هذه على مقدرات بلادنا ، أنهم — عندما غزوها — وجدوها تعيش جاهلية موروثة منذ قرون عديدة .. وهذه « الجاهلية الموروثة » كانت قد اضعفت مقاومة الأمة ، عندما نزعت سلاحها الفعال : الاسلام ... وأوهنت عزمها بقرون الانحطاط الذى عم مناحى الحياة ، الدينية والخلقية والفكرية ، طوال تلك القرون .. لقد فتحت « الجاهلية الموروثة » الباب « للجاهلية الحديثة » ، وأغرقت الوحش بضعف الفريسة !.. فكان « الاستعباد الذى ابتلينا به فى القرن التاسع عشر نتيجة محنومة لانحطاطنا الدينى والخلقى والفكرى ، الذى كنا مترددين فيه من قرون عديدة ! .. »^(٣)

(١) انظر للمودودى : [الحكومة الاسلامية] ص ١١٣ ، ١٥٥ . ترجمة : أحمد إدريس . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧هـ سنة ١٩٧٧ م . و [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ١٣٠ . ترجمة : د . سمير عبد الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١ م . و [موجز تاريخ تهديد الدين وإحياله] ص ٣٩ ، ٦٣ . ترجمة : محمد كاظم سباق . طبعة بيروت سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥ م .. الخ .. الخ .

(٢) المودودى [الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

(٣) المودودى [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٢٩ . ترجمة : محمد عاصم الحداد . طبعة بيروت سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥ م .

ولم يكن « الأمراء » و« الساسة » هم ، وحدهم ، المسئولون عن سيادة « الجاهلية الموروثة » ديار الاسلام .. بل إن حملة الدين وعلماءه يتحملون في ذلك وزرا كبيرا .. لقد كانوا « يستبدون بكتاب الله !.. ويعدون أنفسهم حملة له من دون غيرهم ، فيحرمون العامة علمه ، وينفذون في الناس أحكامهم ، يحلون ما يشاءون ، ويحرمون ما يريدون ، زاعمين أن الله ينطق بألسنتهم ، وبمثل هذه الحيلة يقهرون الناس على أن يتبعوهم ويتخذوهم أربابا من دون الله — وهذا هو الأصل للبرهمية ^(٤) والبابوية ^(٥) السائدة في مختلف أنحاء المعمورة إلى يومنا هذا ، بصور مختلفة وبأسماء متنوعة ، وهى التى اتخذت منها بعض الشعوب والقبائل والبيوتات آلة وحيدة لسيادتهم وسلطتهم على الناس !.. » ^(٦)

لقد تحولوا من « علماء دين » إلى « رجال دين » ، ثم حولوا الدين إلى قوة أعانت المستبدين على الاستبداد .. وهكذا أصبحوا ﴿ يضاهون قول الذين كفروا من قبل ﴾ ^(٧) .. ويتبعون سنن من قبلهم في طريق الجاهلية ، التى ما جاء الاسلام إلا ليمحوها ويرفع عارها عن جبين الانسان !..

أما تاريخ بدء تسرب هذه « الجاهلية الموروثة » إلى حياة الأمة ، فإن الأستاذ المودودى يعود به إلى عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان [٤٧ ق. هـ ٥٧٧ - ٦٥٦ م] رضى الله عنه وأرضاه !..

فقى رأى المودودى أن النبوة قد جاءت لتنجز مهاما ثلاثة :

أولاهما : إحداث الانقلاب الفكرى والنظرى فى عموم الانسانية ..

وثانيتهما : تكوين الجماعة المؤمنة بالفكر النظرى الالهى الجديد ، تعمل لانتزاع السلطة من أيدي الجاهلية المسيطرة ، مستخدمة الأسلحة المتاحة والمناسبة فى « المدنية » القائمة يومئذ ..

وثالثتها : إقامة الحكم الاسلامى — البديل للجاهلية — وتنظيم كافة شعب المدنية على الأسس الاسلامية الخالصة .. ثم الانطلاق لتوسيع الدائرة التى يسودها حكم الاسلام ...

(٤) الطبقة العليا — طبقة الكهنة ومفسرى الكتب الدينية — فى الديانة الهندوكية .

(٥) المثلة « للسلطة الدينية » فى المسيحية .

(٦) المودودى [نظرية الاسلام السياسية] ص ٢٢ ، ٢٣ . ترجمة : خليل حسن الاصلاحى . طبعة بيروت سنة ١٣٨٩ هـ سنة ١٩٦٩ م — ضمن مجموعة عناونها « نظرية الاسلام وهدى فى السياسة والقانون والدستور » .

(٧) التوبة : ٣٠ .

فالعقيدة أولاً ... ثم الجماعة التي تتجسد فيها هذه العقيدة حركة تسعى بين الناس ... ثم المجتمع الذي تتجسد فيه هذه العقيدة ... والذي ينطلق ، بالجهاد ، لتوسيع دائرة الاسلام وتقليص سيطرة الجاهلية وقبضتها عن رقاب البشر وحياتهم ...

تلك هي مهام النبوة — بل مهام كل النبوات والرسالات — .. ولقد أنجزها وأتمها الرسول ، ﷺ ، في السنوات الثلاث والعشرين التي عاشها بعد البعثة .. ثم سار على دربه أبو بكر الصديق [٥١ق.هـ ١٣هـ ٥٧٣ - ٦٣٤ م] وعمر الفاروق [٤٠ق.هـ ٢٣هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] رضى الله عنهما ... فلما انتقل الأمر إلى عثمان بن عفان سار على ذات النهج عدة سنين .. ثم .. حدثت الثغرة ، التي نجم منها قرن الجاهلية من جديد ! .. والمودودي يتحدث عن هذا التحول ، الذي يسميه : « وثبة الجاهلية » .. فيقول : إن « الخليفة الثالث .. كان لا يتصف بتلك الخصائص التي أوتيتها العظيمان اللذان سبقاه ، فوجدت الجاهلية سبيلها إلى النظام الجماعى الاسلامى . وإن تيارها الجارف وإن حاول عثمان ، رضى الله عنه ، سده ببذل نفسه ومهجته ، إلا أنه لم ينكفىء . ثم خلفه على ، كرم الله وجهه ، واستفرغ جهده لمنع هذه الفتنة وصيانة السلطة السياسية في الاسلام من تمكّن الجاهلية منها ، لكنه لم يستطع أن يدفع هذا الانقلاب الرجعى المركوس حتى ببذل نفسه ، فأنهى بذلك عهد الخلافة على منهاج النبوة ، وحل محلها الملك العضود [Tyrant Kingdom] وبدأ الحكم والسلطة يقوم على قواعد الجاهلية بدلا من قواعد الاسلام »^(٨) ! ..

تلك كانت بداية « وثبة الجاهلية » القديمة من جديد !

ثم حدث — ولفترة لم تتعد العامين — في ظل حكم الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز [٦١ - ١٠١ هـ ٦٨١ - ٧٢٠ م] — حدث أن انحلت الجاهلية عن الحكم والسلطة ، لكنها عادت واستحكمت — بعد وفاته — من جديد ! .. فلقد « انتقلت أزمة السياسة والحكومة ، بعد عمر بن عبد العزيز ، إلى أيدي الجاهلية للأبد ! » .. فالأمويون والعباسيون والأتراك قد « استوردوا فلسفات اليونان والروم والعجم ، وأشاعوها بين المسلمين على صورتها التي كانت عليها .. فانتشرت ضلالات الجاهلية الأولى — [جاهلية اليونان وما نازرها] — وأباطيلها في جميع العلوم والفنون والتمدن والاجتماع »^(٩) !

وهنا نلاحظ أن المودودي ، في تقييمه لهذا الاتصال الحضارى والتفاعل بين العرب وغيرهم من الأمم ، قد اختلف مع حسن البنا في تقييم هذا الاتصال وذلك التفاعل ... فالبنا

(٨) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٣٤ - ٣٧ .

(٩) المرجع السابق . ص ٦٣ ، ٦٤ .

قد رآه ظاهرة صحية، لم تحول الأمة عن هويتها المتميزة^(١٠)، على حين يعتبره المودودي دعما جاهليا شد من أزر الجاهلية التي وثبت منذ عصر عثمان بن عفان!..

ثم يتتبع المودودي خط سير نمو التأثيرات الجاهلية في حياة المسلمين وتكوينهم العقلي... فالتار — رغم إسلامهم — أضافوا «إضافة جاهلية» عندما حكموا، لأنهم «كانوا أشد وأرسخ في جاهليتهم ممن سبقهم من ولادة الأتراك... فشاع التقليد الجامد إلى حد أن عاد مختلف المذاهب الفقهية والكلامية كأنها ديانات برأسها، وأصبح الاجتهاد معصية، وعادت البدع والخرافات أمورا مستندة إلى الشرع، وصار الرجوع إلى الكتاب والسنة ذنبا لا يغتفر» [مات بسببه في السجن مجتهد مناضل مثل ابن تيمية] ٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] — ؟! وتكون من العوام الجهلة الضلال، والعلماء أولى النظر الضيق من طلاب الدنيا، والملوك الجاهلين الغاشمين: اتحاد ثلاثي عجيب ؟!..»^(١١)

ولم يكن الماليك — بصدده هذه الجاهلية — بدعا عن سبقهم من الملوك والسلاطين.. فلقد حكموا في «الدولة» و«المجتمع»، بل وفي «شئونهم الشخصية» — في أغلب الأحوال — «بالدستور الحنكيزي»!.. ولم يبق للشرعية الإسلامية ميدان تحكمه إلا «الأمر الشخصي للعامة، من مثل النكاح والطلاق والميراث».. حتى لقد «أذنوا في قيام دور البغاء.. وضربت على البغايا ضريبة يودع دخلها في بيت مال «الدولة الإسلامية»^(١٢)...!؟

وهكذا بلغ امر استبداد الجاهلية بالحكم والسلطة، في حياة المسلمين، إلى الحد الذي أصبحت فيه علاقة المسلمين بشريعتهم كعلاقة أهل الذمة بشريعتهم، في ظل الدولة الإسلامية.. لا تتعدى «القانون الشخصي» إلى حكم الدولة والهيمنة على توجيه المجتمع والحياة!؟..

لكن... لأن الله، الذي أنزل الذكر، قد تكفل بحفظه.. ولأن هذا الدين قد صار فكرية الأمة، ورسالتها في الحياة، ومظهر امتيازها وتميزها عن الأمم الأخرى... فلقد عجزت ظلمة الجاهلية عن أن تمحو آية الاسلام!..

لقد زادت شوائبها، فذهبت بنقائه.. بل وهددته عندما خلعت فعاليته عن مجالات حياتية حيوية.. لكنها وقفت عند حدود: التشويه له، نتيجة اختلاطها به، دون أن تنجح

(١٠) حسن البنا [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٣٠ .

(١١) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٧٤ ، ٧٥ .

(١٢) المرجع السابق . ص ٧٤ .

في إجلاله عن مملكته .. فظل « الإسلام يعم ببركاته وخيراته — ولو على وجه غير مباشر — قصور الدول والحكومات ، ومدارس الفلسفة والحكمة ، ودور التجارة والصناعة ، وزوايا الخلوة والاعتكاف ، وسائر شعب الحياة ، واستمر نفوذه في العامة ، على رغم أنف جاهلية الشرك ... وظل مستوى أخلاق الشعوب المسلمة أعلى وأرفع دائما من أخلاق سائر الأمم . وفوق ذلك كله ، ما خلا عصر من العصور من أناس استمسكوا بعروة الاسلام وسعوا في إحياء هدايته العلمية والعملية في حياتهم أنفسهم وفي الحلقة المحدودة الواقعة تحت تأثيرهم ونفوذهم »^(١٣)

ولهذه « الردة الجاهلية » ، التي خالطت الاسلام واختلطت بتعاليمه ، والتي أقصته عن مجالات حياتية حيوية ، وشوهت بعض عقائده في تصورات العوام .. ولدى المتصوفة ، وفقهاء التقليد والجمود ... لهذا التقييم الذي حدده الاستاذ المودودي لمسيرة الاسلام والجاهلية ، واختلاطهما في الواقع الذي عاشه ويعيشه المسلمون .. برزت في كتابات الرجل أوصاف « الردة » و« الكفر » في وصف « المجتمع » ، وإن تخرج أو عارض في إطلاقها على « الفرد » أو « الجماعة » المسلمة !..

فهو ، فيما يتعلق « بالفرد » يفرق بين « الاسلام القانوني » ، الذي يدخل « الفرد » في إطاره ، ويكتسب حقوقه ، ويتمتع بحمايته ، بمجرد تحصيله لحده ، وهو : النطق بالشهادتين ، والتصديق بأساسيات الدين .. يفرق بين هذا « الاسلام القانوني » — الذي إذا وقف عند هذا الحد كان « ناقصا » — وبين « الاسلام الكامل » ، الذي هو « جوهر الاسلام » ، عندما ينطبع « الذهن » و« السلوك » بطابع الاسلام ... ففي الحالة الأولى يقف « الفرد » عند « شكل الاسلام » ، وفي « إطاره القانوني » ، أما في الحال الثاني فإنه المسلم الكامل ، المتدين « بجوهر الاسلام » ! .. فإذا ما سلك الانسان في شئونه « الاجتماعية » — كالسياسة والاقتصاد — السلوك الاسلامي كان كمن « يرتد جزئيا » عن الاسلام !..

« فالمسلم ، من الناحية القانونية ، هو من ينطق بالشهادة شفاهاة ، ولا ينكر أساسيات الدين . وبهذا المعنى يدخل في دائرة الاسلام كل مسلم لا يزيد في جوهره عن ذلك . وليس في وسعنا أن نسميه كافرا ، أو نمنعه حقوقه التي يحصل عليها في المجتمع الاسلامي بمجرد إقراره بالاسلام . غير أن هذا ليس الاسلام عينه ، بل هو إجازة أو تصريح بالدخول في دائرة الاسلام . أما جوهر الاسلام فهو : أن تطوع ذهنك وفق مبادئ الاسلام ، ويصبح أسلوب تفكيرك هو أسلوب القرآن في التفكير ، وتصير نظرتك إلى الحياة وأمورها هي نظرة القرآن لها ، وتزن الأشياء بالمعيار الذي اختاره القرآن وحدده ، وأن يكون هدفك الشخصي والجماعي هو الهدف الذي بينه القرآن وأقره ، وأن تتخلى

(١٣) المرجع السابق . ص ٤١ ، ٤٢ .

عن مختلف طرق الحياة وتختار طريقا تحدد اختياره بما تلقاه من قوانين القرآن والسنة الحميدة ، فإن قبل عقلك هذا ، وتوحدت مشاعرك ومشاعر القرآن ، فإن السبيل الذى تسلكه فى الحياة لن يكون غير ماسما القرآن : سبيل المؤمنين .. (١٤)

هكذا وسع المودودى من إطار « الاسلام القانونى » — « شكل الاسلام » — ليشمل كل من نطق بالشهادتين ولم ينكر أساسيات الدين ، ومنع وصفه « بالكفر » أو حرمانه حقوق المسلم فى المجتمع الذى يعيش فيه ، حتى لو كان عاصيا !... وأيضاً ضيق من نطاق « الاسلام الجوهري » ، حتى لقد جعل نطاقه — بعدما عدد من شروطه وعلاماته — يكاد أن يكون خاصاً بالصفوة الصالحة المناضلة فى سبيل سيادة الاسلام !..

لقد حنا المودودى على « الفرد » ، فخرج من « تكفيره » ، ما وجد إلى دخوله فى إطار « الاسلام القانونى » منفذاً .. ولقد كتب — وهو الذى اتهم بالكفر من تيار الجمود ، المدافع عن « الجاهلية الموروثة » ؟! — يقول : « إن من يلعن مؤمناً كان وكأنه قتله ، وإن من يكفر مؤمناً كان وكأنه قتله . إن التكفير ليس حقاً لكل فرد . والتكفير جرم اجتماعى أيضاً ، إنه ضد المجتمع الإسلامى كله ، ويضر كثيراً بالمسلمين ككل ... وللأسف ، إن علماءنا الكرام ليسوا على استعداد لترك هذا السلوك بأى شكل من الأشكال ، لقد أهملوا التفريق بين الأصول والفروع ، وبين النص والتأويل ، فجعلوا من الفروع أصولاً ، طبقاً لما فهموه أو فهمه أسلافهم السابقون عليهم — وكان من نتيجة هذا أن كفروا من يقوم برفض فروعهم أو تأويلاتهم الدينية ! . ليت العلماء يشعرون بخطئهم ، ويرجحوا الاسلام والمسلمين ، بل يرجحوا أنفسهم ، ويتراجعوا عن هذا السلوك المشين الذى أخجلوا به أمتهم ، هذه الأمة التى وضعتهم — أى علماء الدين — بين رموش عيونها ؟! .. » (١٥)

لكن .. بقدر « تخرج » المودودى فى « تكفير » الفرد بالمعاصى المتعلقة بالتكاليف الفردية — فروض العين — كانت « جرأته » فى الحكم « بالردة الجزئية » ، المفضية إلى « الردة النهائية » على هذا « الفرد » إن هو عصى الله وخالف شريعته فى « التكاليف الاجتماعية » .. وكذلك على « المجتمع » الذى يسلك هذا السبيل !..

فهو يخاطب « الفرد » قائلاً : إنك « إن سلكت فى قضاياك السياسية والاقتصادية مسلكاً يتفق وخطة أخرى غير خطة الاسلام المحكمة ، فإن صنيعك هذا يعتبر ارتداداً جزئياً ، يفضى بك إلى ارتداد كلى نهائى » (١٦) !....

(١٤) [الحكومة الاسلامية] ص ١٣ .

(١٥) د . سمير عبد الحميد ابراهيم [أبو الأعلى المودودى : فكره ودعوته] ص ٨٣ ، ٨٤ . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩ هـ سنة ١٩٧٩ م .

(١٦) [الحكومة الاسلامية] ص ١٤ .

ويقطع بانتفاء « الاسلامية » عن « المجتمع » الذى يسلك هذا السبيل ، فيقول : « ولعمر الحق ، لا يمكن لإنسان — مالم يكن مصابا فى عقله — أن يتصور كون أحد من المجتمعات فى الدنيا إسلاميا على الرغم من اختياره منها غير منهاج الاسلام لحياته إن المجتمع إذا جاء ، على بصيرة منه ، وبإرادته الحرة ، يقرر بأن الشريعة لم تعد منهاجا لحياته ، وأنه سوف يصنع منهاج لحياته بنفسه أو يقتبس من مصدر غير مصدرها ، فليس ثمة سبب لتطلق عليه كلمة : « المجتمع الاسلامى » أبدا .. »^(١٧)..

والأستاذ المودودى لم يفرق بين الخروج عن الشريعة — من الفرد أو المجتمع — إنكارا لها وجحودا ، أو الخروج عليها تقصيرا وعصيانا ... الأمر الذى جعل صياغاته هذه تفعل ربما عكس ما أراد الرجل ، فتسهم فى شيوع تهم « الكفر » و « الردة » التى ألصقها كثيرون ممن تأثروا بفكره ، سواء على الأفراد أو على المجتمعات ، حتى لقد أزعج هذا الأمر إسلاميين كثيرين ، تخرجوا من مغبة الآثار المترتبة على شيوع « التكفير » فى حياة المسلمين .. ولقد تأكد حدس هؤلاء ، خصوصا بعد أن أصبح « التكفير » سلاحا تشهره « جماعات إسلامية » ضد « جماعات إسلامية » أخرى .. فغدا مرضا يجعل بأس المسلمين بينهم شديدا ١٩ ..

» » »

وبعد أن عرض الأستاذ المودودى ، لمظاهر « الجاهلية الموروثة » ، ولتطورها ، منذ أن نجم قرننا فوثبت فى عهد عثمان بن عفان حتى عصرنا الحالى ... دعا إلى إنهاء هذه الثنائية التى أفسدت وتفسد على المسلمين دنياهم وآخرتهم ... فالجاهلية تمنعهم أن يحيوا حياتهم الإسلامية الصافية ، فينالون ثوابها فى الآخرة ... والاسلام يمنعهم أن يحيوا الحياة المادية الصرفة التى يحيها أهل « الجاهلية الغربية الحديثة » ، فهم محرومون من مظاهر قوتها المادية وتفوقها الدنيوى ١٩ .. ولذلك فلا بد من فصل « الجاهلية » عن « الاسلام » ، واستخلاص الاسلام ، وتجديده ليكون للأمة « سبيل المؤمنين » الذى دعانا الله إلى التزامه فى أمور الدين والدنيا .. « فلا بد أن نخلل مزيج الاسلام ، والأوضاع القديمة غير الإسلامية .. ثم نميز الأوضاع القديمة غير الإسلامية ، ونأخذ جوهر الاسلام الخالص ، الذى يثبت خلوصه ونقاؤه إذا عرضناه على مقياس الكتاب والسنة ... لابد من انجاز ذلك مهما كانت مقاومة الذين لهم ولوع شديد بجزء من أجزاء هذه الأوضاع القديمة ١٩ .. »^(١٨)

(١٧) [القانون الإسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان] ص ١٥٣ ، ١٥٤ . ترجمة : محمد عاصم الحداد . طبعة بيروت سنة ١٣٨٩ هـ سنة ١٩٦٩ م — ضمن مجموعة عناوينها : [نظرية الاسلام وهدفه فى السياسة والقانون] .

(١٨) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

ذلك هو السبيل لمواجهة « الجاهلية الموروثة » .. وتلك واحدة من مهام المجابهة والتصدى « للتحدى الحضارى » المفروض على الأمة ، والذي جمع إلى هذه « الجاهلية الموروثة » : « جاهلية التغريب » التى وفدت علينا فى ركاب الغزاة الأوربيين ..

وفى مواجهة « الجاهلية الوافدة » :

ولقد كان طبعيا فى ظروف بلد مستعمر كالهند ، أن تكون المعركة الكبرى بين الصحوة الإسلامية وبين فكرية « التغريب » الوافدة مع الغزوة الاستعمارية الحديثة ، فهى الخطر الرئيسى والأكبر على « الحاضر » وعلى « المستقبل » ، بل وعلى « الماضى الموروث » ، نقتيا ذلك الماضى الموروث أو مشوبا « بالجاهلية القديمة » .. لقد كان « التغريب » هو الطامة الكبرى التى تصدى لها الأستاذ المودودى و[الجماعة الإسلامية] ، بل لقد كانت هذه « الفكرية التغريبية » هى التى استفزت الضمير المسلم فى الهند واستنفرت لينتفض فى هذه الصورة الحادة التى تجسدت فى المودودى وجماعته الإسلامية .. فعلى قدر خطورة التحدى كان الرد الذى انبعث لمواجهته ..

وعلى هذه الجبهة كان الابداع الأعظم لأبى الأعلى المودودى .. لقد أدرك الرجل ، ما أدركه الشيخ حسن البنا ، من أن الخطر الأعظم للغزوة الاستعمارية الغربية على بلاد الاسلام مائل ومتمثل فى « الجانب الفكرى والحضارى » .. فهو يثير « دهشة » الصفوة المثقفة ، على حين يستفزها ويغضبها جانب الاحتلال العسكرى والسيطرة السياسية والنهب الاقتصادى .. وعلى حين لايرد بذهن أحد — سوى القلة الخائنة العميلة — أن مستقبلنا يجب أن يكون فى الخضوع للسيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية للاستعمار ، فإن الصفوة المثقفة المتغربة ترى — بإخلاص المؤمن — أن نهضتنا المنشودة وقوتنا المأمولة ، بل وانعتاقنا وتحررنا من « الغرب » هى فى سلوك طريقه ، والتشبه به ، أى فى التخلي عن موروثنا القديم ، ذى الصورة العاجزة الكريهة ، صورة « الجاهلية القديمة » ، واختيار « الوافد الغربى » الحديث ..!

فنحن هنا ، بإزاء « التغريب » ، أمام « احتلال » محبب إلى نفوس الصفوة المتغربة ، جعلت منه هدفا وغاية ، تقيم لأجلها المؤسسات ، وترسل البعثات ، وتنفق الجهود لدعم أركان هذا « الاحتلال » ..!

ثم إن نجاح خطة التغريب ، فضلا عن أنها ستفصل حاضر الأمة عن ماضيها ،

وتسلخها عن الروح القدسية السارية في عقلها وضميرها انبعاثا من دينها الخفيف ، وتحرمها التميز والتمايز الحضارى الذى يجعل لها دورا مستقلا ومطلوبا في العطاء الحضارى الانسانى ... فضلا عن هذه المثالب التى يهدد بها التغريب حاضر الأمة ومستقبلها ، فإنه يمثل النصر النهائى والكامل لروح العداء الصليبية التى حركت الغرب تاريخيا ، ومازالت تحركه ، للعدوان على أمتنا ، ومن ثم يمثل تكريس هزيمتنا أمام هذه الروح الصليبية ، عندما نتحول إلى « هامش حضارى » تابع لهذا الغرب !.. وفوق ذلك كله ، فإن تحولنا إلى « هامش تابع » في الحضارة ، هو السبيل لتكريس التبعية في « السياسة » و « الأمن » و « الاقتصاد » ... فكأننا ، إذا سلكننا هذا الطريق ، سنكون قد سعينا لا للتحرر وإنما لتكريس وتأييد الاستعمار ١٩..

هكذا أبصر الأستاذ المودودى ، في عبقرية المسلم الذى انطبع عقله وضميره بالطابع التمييز لحضارة الاسلام ، أبصر خطر الحضارة المادية الأوربية على الحاضر والمستقبل للإسلام والمسلمين : فكرا ، ووطنا ، وثروة .. وإنسانا ! .. فحدد أن التغريب هو الهزيمة الحقيقية ، بل قمة الهزيمة أمام الأعداء التاريخيين .. إنه « الاختيار البائس » للجاهلية بديلا عن الاسلام ١٩..

لقد أفاض الرجل في الحديث عن أن المسلمين بعد أن انهزموا أمام سيوف البلاد الغربية « قد استسلموا لثقافتها وحضارتها وفلسفتها ، فما لم يستطع سيف البلاد الغربية انجاز اكملته فلسفتها ، ولم تجر على العالم الاسلامى سيطرتها السياسية ماجره عليه غزوها الحضارى والفكرى من البليات والمصائب ، فالسيطرة السياسية كانت تتحكم في الأجساد فقط ، أما السيطرة الحضارية والفكرية فقد تحكمت في العقول والأذهان ! .. » (١٩)

ويحلل المودودى موقف مختلف الفرقاء تجاه هذا « الوافد الغربى » ، وكيف استقطبت الصفوة إلى تيارين وموقفين رئيسيين :

أولهما : موقف الذين تجاوبوا مع « الوافد الغربى » [التجاوب الانفعالى] .. فاندھشوا له وبه ، وأقبلوا عليه إقبال من غلبت عليهم الدهشة فغشيت منهم البصائر والأبصار !.. ولقد قال هؤلاء : إنه « لا قبل لنا بالمقاومة ، بعد أن غلبنا على أمرنا ، واستولى علينا غيرنا ، وإننا إذا حاولنا المقاومة بؤنا بالفشل والخسران من كل وجهة ، فلا بد لنا إذن أن نستفيد من كل فرصة من فرص الرقى والحياة تسنح لنا في هذا النظام الجديد !.. » (٢٠) .. كان هذا هو منطق أصحاب موقف [التجاوب الانفعالى] ... منطق المهزوم ، اليائس ، الباحث عن الاستفادة

(١٩) [الطريق إلى وحدة الأمة الاسلامية] ص ٢١ . ترجمة : د . سمير عبد الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٤٠١ هـ .

(٢٠) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٦١ ، ١٦٢ .

مما يراه نهاية « الممكن » وأقصاه !..

ورغم رفض المودودي لهذا الموقف ، وإدائته لأصحابه الذين صارعهم وناضل ضدهم .. إلا أنه ينصف الرعيل الأول منهم ، من « جيل الهزيمة » في القرن الماضي ، ويذكر لهم رفضهم الجمود وجاهليته القديمة الموروثة ، واستفادتهم قدر الإمكان مما حملت الحضارة الغازية من أسباب الرق والاختراع .. « فلا مجال للريب في أن هذا التجاوب الانفعالي لم يكن كله ضررا فحسب ، بل كان فيه بعض جوانب النفع أيضا . فقد انتشع بذلك سحاب الجمود السابق ، وعرفنا به ما جاء به العصر الجديد من مظاهر الرق والاختراع .. »^(٢١) .. أما سلبيات هذا الموقف — موقف التجاوب الانفعالي — فهي كثيرة ، خطيرة .. « فلقد تغير بهذا التجاوب الانفعالي تصورنا للدين ، والأخلاق ، وفلسفتنا للحياة ، وتبدلت قيمنا ، وتزعزعت أسس طباعنا الفردية والاجتماعية ، وإننا وإن خرجنا من التقليد الأعمى لأسلافنا ، فقد منينا بمثله لغيرنا من الضالين المضلين ، مما أضر بنا ضررا فادحا ، وأهلكنا من الوجهة الدينية والدنيوية معا .. »^(٢٢)

أما الفريق الآخر ، الذى لم ينفعل بالوافد الغربى ، فلقد تمثل في [التجاوب الجمودى] .. تجاوب أهل « التخلف الموروث » ، الذين فزعوا من هذا الوافد ، وصدمت قوته وحيويته ضعفهم وعجزهم ، فانكفأوا على الذات الموروثة المتخلفة عن روح العصر ، بل والغريبة عن جوهر روح الاسلام الأول .. وأداروا الظهور لهذا الوافد ، وأغلقوا دون تأثيراته نوافذ العقول وأبواب القلوب .. « لقد كانت هذه الطائفة صخرة من الجمود في وجه هذا الوافد ، فسعت سعيها للمحافظة على ما كان أهل القرن الثامن عشر تركوه وورثه عنهم أهل القرن التاسع عشر من أوضاع في العلم والدين والأخلاق والاجتماع والتقاليد ، وأرادوا أن يستبقوا كل شيء منها بكل ما يحتوى عليه من أجزاء صالحة وغير صالحة ، وأن لا يقبلوا أى تأثير للحضارة الجديدة ... كذلك لم يصرفوا لحظة من أوقاتهم ، بجد واهتمام ، في تحليل ما ورثوه عن الأقدمين ، ومعرفة ما يحسن الإبقاء عليه وما يحتاج إلى التغيير ، وكذلك ما تفكروا أصلا في معرفة ما يحسن أخذه وما ينبغي رفضه مما جاءت به الحضارة الغربية .. »^(٢٣)

وكما اعترف المودودي بما لدى أصحاب [التجاوب الانفعالي] من إيجابيات ، أبرز كذلك إيجابيات أهل [التجاوب الجمودى] .. فقال : « وإني معترف بما كان ، ولا يزال

(٢١) المرجع السابق . ص ١٦٧ .

(٢٢) المرجع السابق . ص ١٦٨ .

(٢٣) المرجع السابق . ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

في هذا التجاوب الجمودى من جوانب مهمة للنفع والافادة ، وفي القلب له مكانة يستحقها . فالحق أنه مابقى عندنا من علم القرآن والسنة والفقه إلا بفضله ، ومن حسناته التى لها قيمتها أن كان فينا رجال احتفظوا بما تركه أسلافنا من تراث في الدين والأخلاق وظلوا ينقلونه إلى الأجيال المتعاقبة .. « (٢٤)

لقد انقسمت الأمة ، تجاه الغزوة الفكرية الحضارية الغربية ، إلى هذين التيارين : المقبلون المتقبلون ، دون روية ولا موقف نقدى ، بل فى انبهار واندھاش وانفعال ... والرافضون المزورون ، اعتصاما بالقديم لقدمه ، دونما موقف نقدى من القديم الموروث ومن الوافد الجديد ... وغاب الموقف الأفعال المطلوب .. الموقف الوسطى .. والثالث .. موقف التجديد للدين والنقد للتراث والبعث لخصائص الحضارة الإسلامية وثوابتها ، ثم التفاعل مع الحضارات الأخرى ، من موقع المتميز والمستقل والرشيد ... وهذا هو الموقف الذى طرحه المودودى وجماعته الإسلامية على الناس ..

وإذا كان هذا هو تحليل المودودى لموقف الفرقاء المختلفين — وبمعنى أدق الفريقين المختلفين — من هذا الوافد الغربى فماذا عن رؤيته هو لجوانب الخطر فى هذا الوافد على الذاتية الفكرية والحضارية للإسلام والمسلمين ؟؟ ...

لا نبالغ إذا قلنا إن الاستاذ المودودى قد تمتع برؤية نقدية دقيقة وعميقة للحضارة الغربية ، بشقيها : « الليبرالى — الرأسمالى » و« الشمولى — الاشتراكى » ، وأنه قد قدم لنا فى هذا الميدان صفحة من أنصع صفحات فكره ، بلغ فيها عمق الموضوع الذى تصدى له .. إن الحضارة الأوربية ذات طابع مادى ، حتى لقد غلبت ماديتها على روحانية المسيحية ، التى اتسمت بالصوفية فى صورتها الشرقية الأولى ! .. فعندما تدينت أوروبا بالمسيحية تحولت مسيحيتها هذه إلى « طبعة جديدة وخاصة » ، وغدت مجرد مكون واحد من مكونات الحضارة الأوربية المادية وقسماتها ... وهذا الطابع المادى للحضارة الأوربية ليس وليد عصر النهضة ، بل هو ميراث يونانى قديم ، تميز منذ القدم بالافتقار إلى « التوازن » ، فغلب « المادة » على « الروح » ، حتى آلهة ذلك الموروث اليونانى كانوا فى وثنية اليونان أبطالا ماديين ، عالمهم هو عالم الانسان !..

والمودودى يسمى « جاهلية اليونان » — التى لم تعرف الأديان السماوية — بـ « الجاهلية المحضة » .. أما « جاهلية » الغرب المعاصرة ، فهى عنده « جاهلية الشرك » ، لأنها رغم تدينها بالمسيحية إلا أن « إشراكها » المادة مع الله ، جعل روحانيتها مادية ، وتدينها

(٢٤) المرجع السابق . ص ١٦٩ .

شكلا ، وألوهيتها صارت للبشر لا لله خالق البشر ! .. « فهناك مماثلة بين الطبع الخلقى الذى امتاز به أهل اليونان القديمة وروما الوثنية وبين ما يمتاز به الآن كثرة أهل أوربة اليوم ... فليس هناك فرق جوهري من الوجهة العلمية بين الشرك والجاهلية المحضة . والدليل على ذلك أن أوربة الحاضرة تمت اليوم فى نظرياتها الجديدة إلى اليونان وروما كما يمت الخلف إلى سلفه ... حقا إن طرق الشرك والجاهلية المحضة فى بناء المجتمع وتنشئته يختلف بعضها عن بعض قليلا .. إلا أنه لاشك أنهما من حيث الروح والجوهر سيان متماثلان فى فرض ألوهية البشر على البشر ، وقطع علاقة الانسان بالإنسان ، وتجزئة النوع الإنسانى أجزاء ، ثم جعل أفراد هذا النوع الواحد كالسباع يأكل بعضها بعضا ! .. » (٢٥)

بل إن هذا الطابع المادى السارى لحضارة الغرب الحديثة ، رغم مسيحيتها ، قد طبع تدنيها بطابعه ، ولم ينطبع هو بروحانية المسيحية ! « فأهل الغرب ، وإن لم يكونوا كلهم منكرين لوجود الله تعالى واليوم الآخر ، أو قائلين بالأخلاق المادية البحتة من الوجهة العلمية ، إلا أن الحق أن الروح التى تتمشى فى نظام حضارتهم ومدنيتهم بأسره هى روح الجحود لذات الله تعالى ، والإنكار لليوم الآخر ، وروح الأخلاق المادية الخسيسة . وقد بلغ من تغلغل هذه الروح فى حياتهم أنك تجد الذين يؤمنون بوجود الله تعالى واليوم الآخر من الوجهة العلمية ، ويعتقدون فى الأخلاق نظرية غير مادية ، تجدهم فى حياتهم الواقعية دهرين ماديين من حيث لا يشعرون ، لأنه ليس هناك من سبب يصل نظريتهم العلمية بحياتهم العملية فعلا ! .. » (٢٦)

وهذا التحليل حول تطويع « الحياة العملية » الأوربية « للتدين » ، يذكرنا بالكلمات البالغة قمة العمق ، التى تحدث فيها المفكر المعتزلى قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد [٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م] عن تطويع روما — أوربا — للمسيحية .. يقول : « إن المسيحية عندما دخلت روما ، لم تَنْتَصِرْ روما ، ولكن المسيحية هى التى تَرَوَّمَتْ ! »

ولقد عرض المودودى للنظريات الرئيسية التى طبعت الفكر الأوربى الحديث بطابعه المتميز ، وكشف عن دلالتها على أصالة الطابع المادى لحضارة الغرب ، وكيف أن هذه النظريات الحديثة لم تخرج بهذه الحضارة عن ذلك المسار ، بل لقد دعمت الطابع المادى والعدوانى فى هذه الحضارة ! ..

● **ففى فلسفة التاريخ :** سادت نظرية الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel [١٧٧٠ - ١٨٣١ م] « وخلاصتها : أن كل نظام للحضارة ، فى عصر من عصور

(٢٥) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢٦) المرجع السابق . ص ١٥ ، ١٦ .

التاريخ ، إنما يكون مبناه ، بجميع شعبه وصوره ، على أخيلة خاصة تجعله في العالم عصرا للحضارة والمدنية . فإذا أُذِرِكَ هذا العصر بدأت تظهر للعيون مواضع الضعف ومواطن الانحلال والتداعى في بنيانه ، فهناك تتنفس وترفع الرأس أخيلة وأفكار جديدة تصارعه ، ولا تنتهى هذه المصارعة إلا بعصر جديد من الحضارة والمدنية ، يكون فيه بقايا من الانقراض الصالحة للعصر المنقرض ، كما تتولد فيه حسنات ومحامد جديدة بحكم تأثير الأفكار الغالبة التى أغارت على عصر الحضارة المنقرض وأرغمته على المسألة ١٩» (٢٧)

ورغم ماقد يبدو في هذه النظرية الهيجلية في تفسير التاريخ من عناصر صدق ووجاهة ، إلا أنها تميل بكفة الميزان إلى عوامل « التغيير » و « التطور » و « نسخ الجديد للقديم » ، الأمر الذى يقلص حجم « الثوابت » الباقية عبر العصور .. حتى لو كانت هذه « الثوابت » هى « الدين » و « القيم » و « القسامات الحضارية » التى تميز الأمة كما تميز « البصمة » الانسان ١٩.. وهذا الميل إلى « التغيير » ، على حساب « الثبات » ، هو ما يرفضه روح الحضارة الاسلامية ، التى وازنت بين الأقطاب ، في مختلف الظواهر ، طبيعية كانت أو اجتماعية ، فبرئت من هذا الانحراف ..

وبمقاييس هذه الفلسفة الهيجلية في تفسير التاريخ ، فنحن — بعد الغزوة الاستعمارية ، التى غيرت واقعنا — نعيش واقعا جديدا لعصر جديد ، ينطبع واقعه بالطابع الأوربي ، في طرق التنمية والتحديث وطرائق العيش .. ومن ثم فإن « الطبيعى » أن تخلى « ثوابتنا » الموروثة الميدان للفكر والحضارة التى هى انعكاس لهذا « الواقع » الجديد .. ولما كان هذا الواقع « غريبا » ، فإن « الحضارة الغربية » هى التى يجب أن تسود ١٩

والمودودى يتساءل عن مخاطر هذه الفلسفة التاريخية علينا ، فيقول : « فهل نرجو من يكون قد رسخ في ذهنه مثل هذا التصور للتاريخ الانسانى ، أن تبقى في قلبه أثارة من التقدير أو ذرة من الإجلال للعصور التى مضى فيها الرسل والأنبياء ١٩ .. وهل يرجع مستهديا إلى عهد النبوة والخلافة الراشدة ١٩ . الحق أن هذه الفلسفة هى حملة فكرية منظمة مدججة بالبراهين والحجج تكاد تأتى الفكرة الدينية من أساسها !.. » (٢٨)

ولنحس إذا شئنا مثالا تطبيقيا على تأثير هذه النظرية الهيجلية في تفسير التاريخ على عقول « المتغربين » من أبناء العرب والمسلمين ، فعلينا أن نتأمل نظرتهم وتقييمهم للتراث ، وللدن .. إنه لديهم : رجعية ، وتخلف ، وصورة واقع مضى وانقضى ، فلا دور له في صنع الحاضر ، فضلا عن الغد !.. وعلى حين نجد « السلفية » قسمة مشتركة

(٢٧) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٤٥ .

(٢٨) المرجع السابق . ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

لدى «الاسلاميين» ، لأنها تعنى : العودة للمنبع فى «الثوابت» وفى «الأصول»
و«القسمات المميزة للأمة» ، فإن «المتقربين» يتحسسون مسدساتهم إذا «سمعوا مصطلح
«السلفية» فى أى ميدان من الميادين...!؟

هذا عن الفلسفة الهيجلية للتاريخ ... وهى إحدى معالم الفكر الأوربى الحديث ..

● وفى التطور الإنسانى عند دارون : وخلاصة نظرية دارون Darwin [١٨٠٩ - ١٨٨٢ م] : هى أن نشأة الحياة والأحياء وتطورهما محكومان بقانون : تنازع
البقاء ، وفى هذا التنازع قانون يقضى بأن البقاء للأقوى والفناء للضعيف...!؟

وإذا كانت الهيجلية — فى التاريخ — قد جعلت نسخ العصر الجديد «لثوابت»
العصر القديم مشروعاً وطبيعياً و«قانونياً» .. فإن الدارونية تجعل «نسخ» القوى
للضعيف ، بإفئائه وإزاحته من الطريق هو «القانون»...!؟

ولقد لعبت هذه الفلسفة الدور الأعظم لتبرير عدوانية الرجل الأوربى على غيره ،
 وعدوانية حضارته على غيرها من الحضارات .. فالاستعمار الاستيطانى الذى يبىد السكان
الأصليين — كما فى حالة الهنود الحمر — تبرره الدارونية .. والاحتلال العسكرى
والسيطرة السياسية والنهب الاقتصادى من قبل «القوة الأوربية» للبلاد «الضعيفة» ،
على نحو يجرد الأمم المغلوبة من السيطرة على مقدرات بلادها — أى يجلبها — وكأنه
يبيدها — عن مقدرات بلادها — يبرره قانون دارون الخاص بتنازع البقاء ، لأن الأقوى
هو الأصلح...!؟ — و«الصلاح» هنا تحدده مادية الحضارة الأوربية ، فتجعله مرادفاً
«للقوة»...!؟

لعبت هذه الفلسفة الدور الأعظم فى تبرير عدوانية الرجل الأوربى وحضارته ..
فوجدناه يفترس الشعوب المستضعفة .. ووجدنا حضارته تمسخ حضارات المستعمرات ،
تمهيداً لإزالتها ، والانفراد بالساحة ، لأنها هى «الأقوى» .. ومادامت هى «الأقوى»
فهى «الأصلح» .. والبقاء «لأقوى»...!؟

ولنحسب إذاً قارناً موقف الفاتحين العرب من المواريث الحضارية للبلاد التى فتحوها ..
وكيف احتضنوها ، وأحيوها ، ومزجوها بما لديهم من فكر إسلامى متوثب وشاب ،
وجعلوا من الجميع حضارة جديدة ، هى الامتداد المتطور لكل هذه المواريث
والمكونات .. إذاً قارناً موقف العرب المسلمين هذا بموقف الغزاة الأوربيين ، على جبهة
الحضارة ، برزت لنا معالم الفروق ، ووضعنا أيدينا على الأمثلة الحية التى تمايز بيننا وبينهم
فى هذا الميدان ..!

بل إننا نستطيع أن نضيف . فنقول : إن الدارونية لم تنهض . فقط . بدور « المبرر »
للرجل الأوربي وحضارته عدوانها على الغير .. بل إنها كشفت عن الطبيعة الأصلية - طبيعة
الاستعلاء والعدوانية - في هذه الحضارة الأوربية ...!٢

والاستاذ المودودي يقول عن الأثر السلبي لهذه النظرية : إن « التصور الذى تأصل فى
الذهن الإنسانى عامة للكون ، متأثرا بنظرية التطور هذه ، أنه : مضار للمصارعة والمنازعة ،
لاتزال الحرب قائمة فيه فى سبيل الحياة والبقاء ، وأنه من نظام الفطرة أن كل من اراد الحياة
والبقاء فعليه بالكفاح والمصارعة . كما أن من طبيعة الفطرة أنه لا يستحق البقاء ، فى نظرها ،
إلا من أثبت قوته ، فكل من يفنى ، فى هذا النظام القاسى ، فإنما يفنى لأنه ضعيف يستحق
القضاء ، ومن يبقى فإنما يبقى لأنه قوى من حقه البقاء . فالأرض وما فيها ، ووسائل الحياة وما
بها لا يستحقها إلا القوى الذى يثبت أهليته للبقاء والحياة ، ولا حق للضعيف فى هذه
الأشياء ، وعليه أن يحل المكان للقوى ، والقوى على حق تماما إذا أخذ مكان الضعيف بعد
إزاحته عنه أو قضائه عليه ...! »

ثم يمضى الأستاذ المودودي فيقول : « ولعمر الحق ، لو كان بقى فى ضوائر أهل الغرب
شئ يخالج ضمائرهم ، فقد أزاله دارون بحججه وشواهد ١٩ . ومهما يكن لهذه النظرية من
منزلة فى العلوم الطبيعية (٢٩) ، فقد حولت الإنسان ذئبا مفترسا لأخيه فى ميادين الاجتماع
والمدينة والسياسة ...! » (٣٠)

هذا عن دور الدارونية فى كشف عدوانية الحضارة الأوربية .. وتبريرها ! ..

● وفى الصراع الطبقي عند ماركس : وإذا كانت الهيكلية قد غلبت « التغير » على
« الثبوت » .. والدارونية قد برزت غلبة « القوة » وحدها .. وإذا كانت الأولى قد جعلت
« الصراع » هو قانون « الفكر » .. والثانية قد جعلت هذا « الصراع » هو قانون « الطبيعة
والفطرة » .. فإن « الصراع الطبقي » عند كارل ماركس [١٨١٧ - ١٨٨٣ م] قد أصبح
هو القانون الذى يحكم تطور « المجتمع » ، بل لقد اعتبر « التناقض والصراع » هو « المطلق »
الوحيد ، وما عداه - كل ماعداه - فهو نسبي ، يزيد وينقص ، بل ويزول ، بتغير الظروف
والملايسات ! .. وبعبارة الأستاذ المودودي : « فلقد جعل هيجل العالم الفكرى ميدانا

(٢٩) الآن قامت وتقوم شكوك علمية كثيرة حول « علمية » الدارونية ، وخاصة مقولات : وحدة أصل الأنواع ، وقانون
تنازع البقاء ، وكون البقاء دائما للأقوى . أما فكرة « التطور » فهى تراث إنسانى سابق على الدارونية .. وهذا
التشكيك فى « علمية » الدارونية يأخذ عليها « خصوصية » النماذج التى اعتمدت عليها ، وانقارها إلى الاستقراء فى
الملاحظات بينها عمت فى النتائج . ومصدر هذا التشكيك أبحاث علمية تمت وتم فى إطار الحضارة الغربية ذاتها .

(٣٠) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

للصراع ، وجاء دارون وقدم الفطرة كميدان للحرب ، ثم جاء بعده ماركس وصور المجتمع بنفس هذه الصورة !» (٣١) .

هكذا نفذ المودودي إلى « لب » المعالم البارزة في فكر الحضارة الأوربية الحديث .. وأبرز دلالتها على الطابع المادى لهذه الحضارة .. ذلك الطابع المادى الذى سرى ويسرى فى هذه الحضارة سريان الروح فى الجسد ، حتى لم يدع ناحية من نواحيها الأساسية ، تقريبا ، دون أن تظهر فيها آثاره ومعاله ...

● **فى الأخلاق :** التى ازدهرت فلسفتها فى جو التحلل من الدين ، ووجود الآخرة ، أو عدم الرهبة من حسابها ... قامت الأخلاق فى الحضارة الغربية على مزيج من « النفعية المحضة » [Utilism] و « اللذة » [Boicurianism] ... « فعلى هذه الفلسفة أسس بناء المدنية والحضارة فى الغرب ... فهذه الأخلاق ليس فيها مقياس مستقل للخير والشر ... فكل شئ مؤقت نسبي ، ويمكن أن يوضع وينقض فيها كل مبدأ فى سبيل المنفعة الذاتية أو القومية ! » (٣٢)

● **فى السياسة :** تأسست وتأسس كل خططهم على مبادئ الميكيافيلية [Macqiavellian] .. وفيها : القوة هى الحق ، والضعف هو الباطل ، ولامانع من العدوان سوى العقوبات المادية ، سواء أكان ذلك بين الطبقات داخل الدولة ، أو بين الأمم على الساحة الدولية (٣٣) ! ..

● **فى علاقة الفرد بالمجموع :** تطرفت « ليبراليتها الرأسمالية » فأنحازت لطغيان الفرد على المجموع .. على حين تطرفت « شموليتها الماركسية » فكرست طغيان المجموع على الفرد (٣٤) ... فاختل التوازن بينهما ، فى النظامين كليهما ، لغياب التوازن والموازنة التى تتميز بها الاسلام عندما أقام « التوافق » [Harmny] الغريب بين « الفردية » [Individualism] وبين « الاجتماعية » [Socialism] بحيث يتيسر للفرد نماء قوته وارتقاء شخصيته ، ثم يصبح عوناً ، بقوته الراقية ، فيما فيه خير للمجتمع وسعادته .. » (٣٥)

● **فى الفكر الاجتماعى :** وإذا كانت الحضارة الغربية قد انقسمت ، فى الفكر الاجتماعى ذلك الانقسام الحاد الذى استقطب أهلها بين « الليبرالية الرأسمالية » التى تركزى أوسع

(٣١) المرجع السابق . ص ١٤٩ .

(٣٢) المرجع السابق . ص ١٥٠ ، ١٥١ .

(٣٣) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه [ص ١٧ .

(٣٤) [الحكومة الإسلامية] ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٣٥) [نظرية الإسلام السياسية] ص ٥٦ .

الحريات في الاقتصاد .. وبين « الشمولية الاشتراكية » التي تضيق هذه الحرية الاقتصادية إلى حد إلغائها .. فإن المودودي يعلن رفض هذين المذهبين ، ويدعو إلى موقف إسلامي متميز في الاقتصاد .. فهو ينتقد « الفردية » الأوربية ، التي تضحي بالجماعة ، فردية القرن الثامن عشر ، ويرفض « جماعية » القرن العشرين ، التي تضحي بالفرد ، ويحبد « النظرية المعتدلة المتوسطة » بين هذين المذهبين^(٣٦) ..

إن المودودي يرفض كلا من « الرأسمالية » و« الاشتراكية » على حد سواء ... فالحضارة الغربية ، هي « الحضارة البورجوازية ، التي كانت ترفع رأسها في البلاد الغربية متدحجة بأسلحة التسامح والحرية الفردية وحق الجمهور في التصويت إزاء النظام الاجتماعي القديم » .. هذه الحضارة ، التي أثارت إعجاب « الليبراليين المتغربين » من مثقفينا بتسامحها وحرياتها ، ذات جوهر رأسمالي ، وكل ما أنجزته إنما تم لحساب الاستغلال الرأسمالي .. فلقد « كان زمامها بيد الرأسماليين ، وهم الذين كانوا رافعي لوائها ورواد جيشها .. وكانت تستند إلى جيش جرار من رجال الفلسفة والأدب والفن قاموا على قدم وساق لشن الغارة على من يعادى ويتجرأ — فردا كان أو جماعة — على التساؤل عن مصدر ثروة المستر جولد سمث — الصيرفي — ومورد أمواله المتكدسة في خزائنه ! »^(٣٧)

ومحاربة هذه الرأسمالية مهمة من مهام صراعنا ضد الغزوة الحضارية الغربية ، فهي « واجب متحتم في عنق المسلم أكثر مما هو متحتم في عنق الشيوعي^(٣٨) .. ! » .. لأن صراع الشيوعي والرأسمالي إنما هو صراع على « ملء البطن » ، داخل حضارة واحدة .. لكنه بالنسبة لنا صراع ندافع فيه عن ذاتيتنا الحضارية .. فواجب علينا « أن نستأصل شأفة الأخلاق الرأسمالية ، وعقلية الرأسمالية ، ونظام الرأسمالية استئصالا كلياً »^(٣٩) ، لأنها تتجاوز كونها خطرا اقتصاديا إلى كونها خطرا يفسد أخلاقياتنا الإسلامية وعقليتنا الإسلامية ... ولذلك يرى المودودي « أن اتباعنا لنظام الرأسمالية : خروج على الاسلام من حيث مجموعه .. ! »^(٤٠)

والاشتراكية ، كذلك مرفوضة من المودودي .. بل لقد رأى في اعتناقها ما يساوى

(٣٦) [الحجاب] ص ٥٢ — هامش — طبعة القاهرة .

(٣٧) [الربا] ص ٦٦ .

(٣٨) المرجع السابق . ص ١١٢ .

(٣٩) المرجع السابق . ص ٨٦ .

(٤٠) المرجع السابق . ص ٨٩ .

اعتناق المسلم للهندوكية وخروجه على الاسلام !؟ « فكلاهما يؤديان إلى نتيجة واحدة ، والتصدى لهما أمر ضروري وواجب علينا !... »^(٤١) .. فالاشتراكية تذكى نار الصراع الطبقي ، وهو خطر على تماسك الجماعة والقومية المسلمة ، في الهند ، لا يفيد منه سوى أعداء المودودي الرئيسيين : الهنادكة ، ثم هي تجذب العمال المسلمين إلى أقرانهم الهنادكة ، فتكون السيطرة للعمال الهنادكة على العمال المسلمين ، بحكم أغليبيتهم في البلاد وفي الحركة الاشتراكية ... كما أن نيران الصراع الطبقي تصيب أول ما تصيب الطبقة الوسطى المسلمة ، وهي العمود الفقري للإسلام والمسلمين .. « فطبقتنا الوسطى هي قوام الأمة وعماد أمرها »^(٤٢) ... والطبقة الوسطى المثقفة تعرف علوم الدين الاسلامي ، وتحمل شعورا طيبا تجاه الحضارة الإسلامية ، ولديها معرفة بأحكام الشريعة ، فهي تقوم — إلى حد ما — بالحفاظ على الحضارة الاسلامية ورعايتها ، وعامة الشعب يتلقون عنها ويتعلمون منها دينهم ، ويعرفون منها أحكامها ، ومن هنا فحين يقطع سبعون مليونا من عامة المسلمين صلتهم بعشرة ملايين مسلم ، ممن يمثلون الطبقة المتوسطة ، نتيجة للصراع الطبقي ، فإنهم — [السبعون مليونا] — سيصبحون غرباء عن الاسلام تماما .. وحين يخلو ذهنهم من القومية الاسلامية سيصبحون فرادى مشتتين ... وحين تنقطع صلتهم بالطبقة المتوسطة المثقفة المسلمة ، ويتحدون مع غيرهم من غير المسلمين المتأثرين معهم اقتصاديا ، فإن هذا يؤدي تلقائيا إلى « هندكتهم » ، وهكذا تشدهم القومية اللاإسلامية تدريجيا ، ويلدوبون في النهاية داخلها كحبة ملح تكون نهايتها حتمية !... »^(٤٣)

لقد كان الحفاظ على القومية الاسلامية والذاتية المتميزة للحضارة الاسلامية هو المهمة العظمى لدعوة المودودي وحركته ، والبوصلة التي حددت اتجاهه في كل الميادين ، والمبرر لتحالفاته ومعاداته .. كما كان الصراع ضد سيطرة الهندوك على مقدرات المسلمين معركته الكبرى ، التي ارتبطت بها معظم المعارك الفرعية والجزئية التي خاضها على مختلف الجبهات ..

والمودودي عندما رفض سبيل الرأسمالية والاشتراكية في الاقتصاد ، لم يزعم أن الاسلام يقدم « نظاما اقتصاديا » جاهزا ونهائيا ومتكاملا .. فما في الاسلام — على هذه الجبهة — « هي المبادئ التي قررها الاسلام لنظامنا الاقتصادي . ويجوز لكم أن تضعوا لكم ما تحبون من نظام اقتصادي في حدود هذه المبادئ . أما تقرير الأحكام التفصيلية والجزئيات

(٤١) [المسلمون والصراع السياسي الراهن] ص ٥٥ .

(٤٢) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٣٤ .

(٤٣) [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ٨٠ ، ٨١ .

فأرجئت إلينا في كل زمان ومكان ، وحسب الحاجات والظروف .. »^(٤٤)

ولقد اجتهد المودودي لوضع مبادئ لنظام اقتصادي إسلامي ، في ظرف الواقع الذي ناضل فيه .. فمال تصوره إلى نظام يمكن تحديد معاملة في هذه النقاط :

١ - اقتصاد حر .. يتميز عن الاقتصاد الرأسمالي بوجود قيود تحد من الحرية فيه ، بحيث لا تتعدى هذه الحرية المصلحة الإسلامية ، وقيم الإسلام ... « فنحن لا نختار سبيل الاقتصاد الحر المطلق ، كالنظام الرأسمالي ، ولا نختار سبيل تأميم وسائل الاقتصاد ووضعها تحت تصرف جماعي . بل علينا أن نضع نظاما اقتصاديا حرا ، يكون محدودا ببعض الحدود وملتزمًا ببعض القيود »^(٤٥) .. وهذه القيود ضرورية كي لا ينفق مالك الثروة « ثروته في وجه تلحق الضرر بالمجتمع ، أو بأخلاقه هو نفسه أو بدنه » وكي يقتصر الاستثمار على المجالات المشروعة ، دون تجاوز « للحدود التي وضعتها الشريعة على الكسب »^(٤٦)

٢ - رفض التأميم Notionalization « فالمجتمع الإسلامي يجب أن يكون أكثر أفرادة ، إن لم يكن كلهم ، أحرارا في اقتصادهم ، ولابد لهذا الغرض أن تكون وسائل الانتاج في أيدي الأفراد أنفسهم .. »^(٤٧) .. لكن للحكومة المسلمة أن تتدخل في الاقتصاد ، تجاريا وصناعيا ، فتنهض بما لا يقدم عليه الأفراد .. وتفرض إشرافها على المصارف بواسطة المصرف المركزي « حتى لا يشتط الرأسماليون في استعمال قوتهم المادية .. »^(٤٨)

٣ - ترك الأرض الزراعية ملكية فردية .. « فتلك هي الصورة الفطرية الصحيحة الوحيدة في نظر الإسلام .. »^(٤٩) .. مع وضع قانون زراعي « يقيم العلاقة بين ملاك الأرض والمزارعين ، الذين لا يملكون شيئا من الأراضي ، على قسطاس مستقيم وأسس صحيحة عادلة .. » .. ومع إعادة النظر في الملكيات الزراعية الشاسعة ، والتي يستحيل كون جميعها قد تكون وامتلك بطريق مشروع ، فيحدد حد أقصى لهذه الملكيات ، ويعوض أصحابها عن ما يؤخذ منهم ، وتوزع هذه المساحات على المعدمين « إلا أن هذا التحديد

(٤٤) [مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة] ص ١١٩ . طبعة الكويت سنة ١٣٩٧ هـ سنة ١٩٧٧ م .

(٤٥) المرجع السابق . ص ١١٩ .

(٤٦) [الحكومة الإسلامية] ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٤٧) [مسألة ملكية الأرض في الإسلام] ص ٩١ ، ٩٢ . ترجمة محمد عاصم الحداد . طبعة الكويت سنة ١٣٨٩ هـ سنة ١٩٦٩ م .

(٤٨) [الحكومة الإسلامية] ص ١٩٩ . و [الربا] ص ١٤٢ .

(٤٩) [مسألة ملكية الأرض في الإسلام] ص ٤٧ .

لا يجوز أن يكون أبديا .. بل هو حل مؤقت «^(٥٠) لإزالة الخلل والمظالم من الريف ..

٤ - قصر جمع الثروة على السبل المشروعة .. دون وضع حد أعلى لثروة الفرد .. « فلو أمكن لرجل من الناس أن يصبح (المليونير) ، بطرق الحلال ، فالاسلام لا يمانع ذلك ... على أنه ليس من السهل أن يصبح الانسان (المليونير) على طرق الحلال ، إلا النزر اليسير من أكرمه الله بصورة استثنائية .. «^(٥١)

تلك هى أبرز المعالم التى صاغها الأستاذ المودودى ، لتكون « مبادئ » للنظام الاقتصادى البديل ...

لقد رفض المودودى كلا من « الرأسمالية » و « الاشتراكية » ، كجزء من رفضه لما هو غريب فى الحضارة الأوربية عن النهج الإسلامى فى الاقتصاد والاجتماع .. وهو النهج الوسطى ، الذى يدعو إلى « العدل » ، لكن العدل فيه لا يعنى « المساواة » .. فالمساواة الاقتصادية ، علاوة على استحالتها ، فإنها مما يأباه الاسلام « وينبغى أن يكون راسخا فى أذهان أصحابنا المتطلعين إلى الإصلاح ، أن الاسلام لا يقول بالمساواة فى قسمة الثروة ، وإنما يقول بالعدل فيها .. «^(٥٢)

وإذا كان رفض المودودى لكل من « الرأسمالية » و « الاشتراكية » ، كمذاهب اقتصادية واجتماعية أوربية ، هو من فضائل الحس الحضارى الإسلامى ، الذى قاد الرجل لمواجهة الغزوة الحضارية الأوربية .. فإننا نعتقد أن تصوره للملاح العامة للاقتصاد الإسلامى البديل قد أسفر عن « رأسمالية » ، لا يقلل من حقيقتها ما رسمه لها من حدود ، أو وضعه عليها من قيود ١٩ .. وإذا كنا معه فى أن الاسلام لا يدعو إلى « المساواة فى قسمة الثروة » .. فإن ملاحم الاقتصاد الذى تصوره لا تجعل هذا الاقتصاد كافلا وكفيلا بتحقيق « عدل الاسلام »^(٥٣) ١٩

لقد أجاد عندما رفض النموذج الغربى .. لكنه لم يكن مجيدا فى تحديد معالم النموذج الإسلامى العادل ، والبديل ! ..

(٥٠) المرجع السابق . ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٥١) [مفاهيم اسلامية حول الدين والنزلة] ص ١١٤ .

(٥٢) [مسألة ملكية الأرض فى الاسلام] ص ٩٢ .

(٥٣) انظر كتبنا : [الاسلام والثروة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م وطبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .. و [الفكر الاجتماعى لعل ابن أف طالب] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م . و [العدل الاجتماعى لمر بن الخطاب] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .. و [عمر ابن عبد العزيز] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .

هكذا تصدى الأستاذ المودودى لنقد الحضارة الغربية ، أو « الجاهلية الحديثة » والمعاصرة ، كما كان يسميها أحيانا .. وسلط الأضواء على افتقادها فضيلة « الوسطية » والموازنة بين المتقابلات ، والتأليف بين أقطاب الظواهر ... فلقد تغلب فيها « الصراع » على « الوحدة » .. و« التغيير » على « الثبات » .. و« القوة » على « الحق » .. و« المادة » على « الروح » .. و« الدنيا » على « الآخرة » .. و« الكم » على « الكيف » .. و« اللذة » على « الغاية » .. و« الطمع » على « الرضا والقناعة » .. و« العقل » على « الوحي والنقل » .. و« الفلسفة » على « الشريعة » .. و« العلم الطبيعي » على « الحكمة » .. و« الفردية » على « الجماعية » — أو العكس — .. و« تفرد الانسان وتوحده » بدلا من « انتائه » ... الخ .. الخ ..

وحتى روعة فنون هذه الحضارة وآدابها — وهى حقيقة — فإنها لم تنجح فى الخروج بها عن « الدنيوية » الطاغية ، والمادية المستبادة بكل مناحيها .. الأمر الذى أعجزها عن إشباع الانسان إشباعا كاملا تاما ، فلم تصل به ، رغم القوة والوفرة المادية ، إلى التوازن الذى يحقق له ، من داخله ، السعادة والرضا ١٩ ..

* * *

التفاعل الحضارى :

لكن المودودى لم يكن صاحب موقف « متعصب » من الحضارة الغربية ، بكل جوانب إبداعها ، ولم يكن ذا عقل مغلق دون الاستفادة من إنجازاتها ، ذات الصبغة العلمية والعالمية ، التى لا تمثل خطرا على الذاتية الحضارية للأمة الإسلامية .. بل لقد نعجب إذا علمنا — بعد أن رأينا نقده لهذه الحضارة — أنه كان متبها من علماء الدين التقليديين « بالتغرب » ١٩ .. فكان رأيهم فيه : « أنه متأثر غاية التأثير بالغرب ، وكل شئ يصله من الغرب يجذبه إليه دون أن يشعر » ٥٤ (١٩) ..

لكن ، لا عجب ، « فهمة » الرجل ، أيضا عند هؤلاء ، تلك التى اعتبروها ذنبا « معارضا لمسلك جماعة العلماء ، هو : إصراره على الاجتهاد » ١٩ .. وهو ما يعتبر نقضا لناموسهم الذى دعوا إلى التزامه ، فقالوا : « إنا ، من حيث الجماعة ، نرى التقليد شيئا لازما فى هذا العصر ، ونرى أن شروط الاجتهاد — التى اشتراطها السلف — مفقودة فى علماء هذا العصر » ٥٥ (١٩) .. لذلك لم يكن غريبا أن يروا فيه « متأثرا بالغرب غاية التأثير » ،

(٥٤) محمد زكريا الكاندهلوى [المودودى .. ماله وما عليه] ص ٨٥ . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩ هـ سنة ١٩٧٩ م .

(٥٥) المرجع السابق . ص ٨٩ .

وفي ذات الوقت : « مستغرب لكل ما يصله عن طريق الدين »^(٥٦) ؟! ... فبحقائيس « تخلفهم الموروث » كان الرجل « مستغربا لما يزعمونه دينا » .. وبمقاييس « جمودهم المطلق » أمام الحضارة الغربية كان الرجل « متأثرا بالغرب غاية التأثير » ..!

لكن الرجل ، كما تشهد له كتاباته وممارساته ، كان صاحب موقف يميز بين ما هو نافع وما هو ضار بنهضة الأمة وذاتيتها الحضارية المتميزة ، سواء أكان ذلك مما ورثناه عن السلف ، أم مما جاءت به الحضارة الغربية الحديثة ..

فهو يعتبر « التفاعل الحضارى » والأخذ والعطاء بين الحضارات ظاهرة طبيعية ، ومطلوبة ، طالما لم تصل إلى درجة « التشبه والتقليد » اللذين يفقدان الأخذ والمقلد والمتشبه هويته الخاصة المميزة له ... فيقول : « أما موقف الاسلام من الحضارة والثقافة والتمدن ، وما يعم فيها من أخذ وعطاء ، فهو شيء فطرى فى الأمم التى تحتلط بعضها ببعض ، فهو لا يميزه فقط ، بل يريد له الازدهار ، فهو لا يريد لجدران التعصب بين الأمم أن تبقى قائمة ، فلا تأخذ أمة فى حضارتها من أمة أخرى شيئا » ...

ثم يذهب ليحكى مواقف ، تشهد لهذه الروح الإسلامية ، من عصر النبوة وصدر الاسلام .. « فلقد ارتدى رسول الله ﷺ ، الجبة الشامية ، التى كانت جزءا من زى اليهود ، فكما جاء فى الحديث : « فتوضأ وعليه جبة شامية »^(٥٧) ، وكان الرومان الكاثوليك يرتدونها ، وقد استعمل ، أيضا ، القباء الأنوشروانى ، كما جاء التعبير عنها فى الحديث : « جبة طيالة كسروانية »^(٥٨) . وقد ارتدى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، « البرنس » ، وكان عمامة طويلة [طرطور] ، وجزءا من زى دراويش النصارى . واستعمال مثل هذه الأشياء يختلف تماما عن « التشبه » ، فالتشبه هو أن يتشبه الرجل بأمة أخرى تشبها كاملا ، ويصبح التمييز بينه وبين أهلها أمرا صعبا ، على عكس ما اصطلاحنا على التعبير عنه « بالأخذ والعطاء » ، أى أن تقوم أمة بأخذ ما يناسبها من أمة أخرى ، ليصبح جزءا منها ، ومع هذا يظل لها وضعها القومى وسماتها وملاحمها القومية ! .. »^(٥٩)

° * °

(٥٦) المرجع السابق . ص ٨٥ .

(٥٧) رواه البخارى فى كتاب اللباس .

(٥٨) رواه مسلم فى كتاب اللباس والزينة .

(٥٩) [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

وفي مكان آخر يعرض المودودي لقضية الموقف من علوم الغرب .. فيدعو إلى الاستفادة إلى أقصى حد من العلوم الطبيعية والبحث ، التي لا تحمل ظلال فلسفة الغرب الالحادية والروح المادية لحضارته ... من مثل علوم الطب والاقتصاد والصناعة والزراعة ... الخ .. الخ .. ذلك لأن الاستمساك « بالعصبية القومية أو الوطنية في قبول هذه القواعد والمبادئ لا يضر إلا المتعصبين ! » ... بل لقد تحدث عن « مبادئ الأخلاق والمدنية والاجتماع والحضارة والاقتصاد والسياسة » وطلب أن يكون المعيار في القبول أو الرفض منها هو « ما تحمله في ذاتها من حسن أو قبح .. وليس انتفاءها لشعب (فلان) أو بلد (علان) ١٩ .. »^(٦٠) ... ففي الوقت الذي يجب أن نسعى ، في حرص ودأب ، على الاستفادة من إبداعات الآخرين في « نتائج أبحاثهم العلمية ، وثمرات قواهم الفكرية ، ومعطياتهم الاكتشافية ، ومناهجهم العملية ، التي تكون قد بلغت بهم معارج الترقى في الدنيا » .. يجب كذلك أن ننظر في موارث الأمم ، « فأى أمة في الأرض إذا وجدنا في تاريخها أو نظمها الاجتماعية أو في أخلاقها درساً نافعا ، فمن الواجب أن نأخذ منها ، ومن الواجب أن نستقصى أسباب رقيها وازدهارها بكل دقة وتمحيص ، ونأخذ منها ما نراه ملائماً لحاجتنا وظروفنا ، لأن هذه الأمور إرث مشترك بين الانسانية ، ومن الجهل المحض عدم إعطائها ما تستحق من الأهمية والتقدير ، والتردد في الأخذ بها بناء على العصبية القومية . ولكننا إذا أعرضنا عن هذه الأمور الجوهرية ، ورحنا نأخذ من أمم الغرب ملابسها وطرقها للمعيشة وآدابها للأكل والشرب ، بزعم أن فيها السر لنجاح تلك الأمم ورقيا ، فلا يكون ذلك إلا دليلاً على غباوتنا وبلادتنا وحماقتنا ١٩ .. »^(٦١)

وإذا كان الرجل قد حذر من « التشبه » بالغرب ، حفاظاً على تميزنا الحضارى ، فلقد ألح على ضرورة التمييز بين الاستفادة بوسائل الرق العلمية وبين ضلالات الفكر الغربى المفسدة لحضارتنا المؤمنة « فيجب أن نميز ما حازه الغرب من الرق الحقيقى فى المدنية والعلوم عن ضلالاته فى فلسفة الحياة ، ووجهة الفكر والنظر والأخلاق والاجتماع ، فنأخذ الأول ونستفيد به ونضرب الصفح عن الثانى ونظهر من أدناسه شئون حياتنا كلها . ومن البين ، الذى لا غبار عليه ، أنه لا يمكن أن يتحمل ذلك من جعلوا دينهم : التفرنج الخالص ، أو طبعة من طبعات الاسلام الافرنجية .

ويحتاج ذلك إلى أن يكون عندنا عدد من الرجال الجامعين بين العقلية الاسلامية والكفاءات الانشائية ، والمالكين للطباع الحكيمة والأخلاق الفاضلة والعزائم القوية ، ثم

(٦٠) [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ٤٤ .

(٦١) [اللباس] ص ٢٣ ، ٢٤ . طبعة بدون تاريخ ، ولا تحديد لمكان الطبع .

ليضطلعوا جميعا بهذا العمل الجليل بطريق منظم ..» (٦٢)

فالرجل ، على شدة نقده للحضارة الغربية ، وسطوع الأضواء التي سلطها على روحها المناقض لروح حضارتنا ، قد كان واعيا تماما بضرورة التمييز بين فلسفة تلك الحضارة وطابعها المادى وروحها الإلحادية ، ومذاهبها الأخلاقية التي حولت الانسان إلى حيوان نهم كاسر ... وتلك هى الجوانب التي حذر منها المودودى ، وأبرز مخاطرها ، لا على حضارتنا الاسلامية وأمتنا فقط ، بل وعلى الانسان الأوربي أيضا ...

كان واعيا بضرورة التمييز بين هذه الجوانب فى حضارة الغرب ، وبين العلوم والتطبيقات ، ذات الصبغة العلمية والفوائد النفعية ، والتي تسهم فى ترقية الحياة المادية وتقدمها .. فاعتبرها ميراثا إنسانيا ، ودعا إلى أن يكون معيار : « الحاجة » و « المنفعة » هو الفيصل فيما نقبله أو نعرض عنه من هذه العلوم والتطبيقات ...

وفى كل الأحوال كان الرجل داعية لأن تعتز الأمة بذاتها الحضارية ، فلا تسقط فى مستنقع « التقليد » ، فلقد كان عدوا « للتقليد » ، حتى ولو كان تقليد السلف .. وداعية للاجتهد ، الذى يفتح آفاق الرقى أمام الأمة ، إن فى شئون الدنيا أو فى علوم الدين !..

الموقف من القومية ..

وعلاقة الديمقراطية بالحاكمية :

وإذا كان هذا النقد الذى قدمه الأستاذ المودودى للحضارة الغربية ، وعلى وجه التحديد لطابعها المادى وروحها الملحدة وأخلاقيات اللذة والمتعة التى استشرت فى سلوكيات أبنائها ، ونزعة القوة والاستعلاء والعنف التى غدت وبالا على البشرية كلها ... إذا كان هذا النقد ، لهذه الجوانب ، قد أصبح مسلما به ، لا يثير خلافا عند غير « المتغربين » الذين جعلوا — وفق تعبيره — « دينهم التفرنج الخالص » !.. والذين لا يزالون متعلقين بأذيال « التغريب » رغم الدراسات الغربية التى تتحدث عن أزمة الحضارة الغربية والمآزق الذى دخلت فيه .. إذا كان فكر المودودى هذا قد أصبح مقبولا .. فإن للرجل انتقادات أخرى أثارت وتثير الجدل والغبار حول فكره .. وهى قد أحدثت ولا تزال تحدث بلبله كبرى فى صفوف كثير من الإسلاميين ؟!.. ونعنى بذلك آراء المودودى التى صاغها — خلال نقده

(٦٢) [واقع المسلمين وطريق النهوض بهم] ص ١٧٩ .

للحضارة الغربية — عن :

● القومية .. ● والديمقراطية .. ● والحاكمة الإلهية

لقد غدا المودودي ، ومنذ العقد السادس لهذا القرن العشرين ، من أكثر المفكرين الإسلاميين تأثيرا في حركة الصحوة الإسلامية المعاصرة ، على امتداد العالم الاسلامي كله .. ولقد أصبح له ، منذ ذلك التاريخ — أى منذ غياب القيادة التاريخية لجماعة [الاخوان المسلمين] باغتيال الإمام الشهيد حسن البنا — أصبح للمودودي في الحركة الإسلامية بمصر والوطن العربى تأثير واضح ومُتَمَّام ... الأمر الذى جعل كتاباته عن : « القومية » و « الديمقراطية » و « الحاكمة الإلهية » — وخاصة عندما اجتزئت بعض نصوصها .. وعلى الأخص عندما غفل المسترشدون بها عن الظروف الخاصة والملابسات المتميزة ، فى الهند قبل الاستقلال والتقسيم ، والتي كتبت فيها هذه الكتابات — الأمر الذى جعل هذه الكتابات توظف فى غير مكانها ، لتثمر غير ما أراد منها كاتبها ، بل وعكس الذى أراد ...

وإذا كانت هذه الدراسة ، التى نقدمها ، تأتى ثمرة « مسح شامل » لثلاثين كتابا من كتب الاستاذ المودودي ، ضمت جماع فكره ، وخاصة السياسى منه ، فلعلها أن تقدم فى هذه القضايا القول الفصل فى حقيقة مراد الرجل مما كتب فى هذه الموضوعات ..

يظن كثيرون أن الأستاذ المودودي قد رفض « القومية » و « الديمقراطية » ، ورأى فيهما ، بإطلاق ، فكرا غربيا وافدا ، فرفضه ووجه إليه النقد فيما وجه للحضارة الغربية من انتقادات .. وهذا البعض تسعفه نصوص يجتزئها ، وأهم من اجتزائها فهو يعزلها عن الملابسات الواقعية التى كتبت لها ، ثم هم لا يعرضون لرأى الرجل كنمرة لكل ما كتب فى الموضوع ..

لقد اكتفى هذا البعض بأن الرجل قد حدد أن « قواعد المدنية الغربية هى :

١ — العلمانية ، أو اللادينية [Secularism]

٢ — والقومية [Nationalism]

٣ — والديمقراطية [Democracy]^(٦٣)

وأنه قد رفض هذه القواعد الثلاث ، وأعلن بدائله الإسلامية لها ، فقال :

« ١ — إننا نقدم مبدأ التسليم لله وطاعته ، بديلا عن العلمانية .

(٦٣) [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ٩ . طبعة القاهرة سنة ١٣٧٩ هـ سنة ١٩٧٨ م .

- ٢ - ونقدم مبدأ الانسانية العالمية ، بديلا عن القومية المحدودة الضيقة .
٣ - ونقدم مبدأ سيادة الله ، وخلافة المؤمنين ، بديلا عن مبدأ سيادة الشعب أو حاكمية الجماهير « (٦٤) »

وأنه قد قال عن « القومية » : « إن مبادئ القومية تتناقض تماما مع مبادئ الاسلام ... إن اجتماع كلمتي : « مسلم » و « قومي » أمر عجيب جدا إن القومية حين تدخل إلى عقول وقلوب المسلمين من طريق ، فإن الاسلام يخرج من طريق آخر (٦٥) ... فالمسلمون : « حزب » ، لا « قوم » ، والقرآن يرى البشرية كلها حزبين اثنين فقط ، أولهما : « حزب الله » ، وثانيهما : « حزب الشيطان » (٦٦) .. »

بل لقد هاجم « الجنس » و « الوطن » — وهو ما نقله عنه وردده كثيرون ! — فقال : « لو ثمة عدو لدعوة الاسلام — بعد الكفر والشرك — فهو شيطان الجنس والوطن ..! » (٦٧) ..

وأنه كتب عن هذا الثالث : « الديمقراطية — القومية — العلمانية » يقول : « إلى أقول للمسلمين ، بصراحة : إن الديمقراطية القومية العلمانية تعارض ما تعتنقونه من دين وعقيدة .. إن الاسلام الذى تؤمنون به ، وتسمون أنفسكم « مسلمين » على أساسه يختلف عن هذا النظام المفقوت اختلافا بينا ، ويقاوم روحه ، ويحارب مبادئه الأساسية ، بل يحارب كل جزء من أجزائه ، ولا انسجام بينهما فى أمر مهما كان تأفها ، لأنهما على طرفى نقيض . فحيث يوجد هذا النظام فإننا لا نعتبر الاسلام موجودا ، وحيث وجد الاسلام فلا مكان لهذا النظام ..! » (٦٨)

لقد كتب الأستاذ المودودى هذه النصوص — ومثلها كثير — وهى التى اجتزأها البعض وحدها ، وعزلوها عن ملابس كتابتها ، فشوهوا فكر الرجل الذى أراده مما كتب حولها ...

ولهذا ، فإن كشف الغموض واللبس ، ومن ثم البلبلة ، التى أحاطت وتخييط بفكر المودودى هنا ، يحتاج إلى إلقاء الضوء على عدد من الحقائق الأساسية ...

(٦٤) المرجع السابق ص ٣١ .

(٦٥) [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٦٩ .

(٦٦) [الحكومة الاسلامية] ص ١٦٥ .

(٦٧) المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٦٨) [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ٤١ ، ٤٢ .

● لقد صاغ المودودي فكره السياسى ، الذى أفاض فيه الحديث عن « القومية » و« الديمقراطية » و« الحاكمية الالهية » ما بين [سنة ١٣٥٦ هـ سنة ١٩٣٧ م] و[سنة ١٣٦٠ هـ سنة ١٩٤١ م] وفى هذه الفترة كانت الهند تغل بالثورة الوطنية الديمقراطية ضد الاستعمار الانجليزى ، وكان [حزب المؤتمر الهندى] يسعى للحصول على الاستقلال ، وإقامة الهند الموحدة ، على أساس أن الهند تكون « قومية واحدة » ، لأنها « وطن واحد » ، ولقد تبنى [حزب المؤتمر] « العلمانية » ، باعتبارها الحل الأمثل فى بلد تتعدد فيه الديانات ... لقد ضم حزب المؤتمر « الوطنيين » الهنود ، على اختلاف دياناتهم ، لأنهم اعتبروا « وحدة الوطن » السياسية ، أرضا صالحة لقيام « قومية سياسية واحدة » .. المودودي يحدد أن هذا هو هدف « الوطنيين » الهنود ، فيقول : « إن الخصائص الثلاث للحكومة الحرة التى يريدها الوطنيون الهنود هى :

أولا : دولة وطنية — [أى قومية] — National State بمعنى الاعتراف بجميع مواطنى الهند كأمة واحدة ، ورفض فكرة كونهم أمة متعددة .

ثانيا : دولة ديمقراطية Democratic State بمعنى الاعتراف بأن جميع سكان الهند يمثلون مجموعة واحدة يطبق عليها مبدأ تحقيق رأى الأغلبية .

ثالثا : دولة علمانية Secular State بمعنى أن الدولة لا تعترف بأديان الأمم المختلفة بالهند ... »

ثم استطرد المودودي فتساءل قائلا : « وعلينا الآن أن ندقق فى نوعية هذه الدولة أساسا ، هل يمكن لنا ، كمسلمين ، أن نجعل من مثل هذه الدولة هدفا لنا ؟ هل يمكننا أن نعيش بداخل هذه الدولة كمسلمين ؟ هل يجوز لنا أن نساهم فى الجهاد والنضال من أجل إقامة مثل هذه الدولة ؟! » (٦٩)

ولقد كانت إجابة المودودي على هذه التساؤلات بالنفى .. النفى الذى وجه فيه وبه كل النقد وأمره إلى « الدولة القومية الديمقراطية العلمانية » .. والذى جاءت به النصوص التى قدمناها له عن « القومية » و« الديمقراطية » — تلك التى أسىء تفسيرها كثيرا !؟ —

● ولما كان حزب المؤتمر هو الذى يسعى لإقامة هذه الدولة « القومية — الديمقراطية — العلمانية » .. ويجتذب المسلمين إلى صفوفه ، فلقد تصدى له المودودي ، وحاربه .. وكتب تحت عنوان : [المسلمون وحزب المؤتمر] يقول : « يتضح بجلاء من التحليل العلمى والواقعى للحركة الوطنية والقومية ، وحركة تحرير الهند الوطنية ، أنه لا يوجد أى قدر مشترك بيننا وبين هذه الحركة ، إن موتنا هو حياتها ، وموتها هو حياتنا ، فلا يوجد بيننا وبينها أى اشتراك ، لا فى الأصول ولا فى الأهداف ، ولا فى أسلوب العمل . يوجد اختلاف

(٦٩) [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ٩٣ ، ٩٤ .

كلى تماما ، اختلاف شديد لدرجة أننا لا نجتمع معا على أية نقطة ، إن التباين بيننا ككتابين المشرق والمغرب ! » (٧٠)

كل هذا — ومثله كثير جدا — كتبه الاستاذ المودودى ضد « الدولة : القومية — الديمقراطية — العلمانية » .. وضد [حزب المؤتمر] ، الساعى لبناء « هند : قومية — ديمقراطية — علمانية » ..

● لكن .. لنسأل :

هل كان عداء الأستاذ المودودى للقومية وللديمقراطية — دعنا من العلمانية الآن فسبأقى حديثها عند حديث الحاكمية الالهية — هل كان عداؤه للقومية وللديمقراطية عداء مبدأ ؟ لتعارضهما مع مذهب الاسلام فى بناء الدولة وسياسة الأمة ؟ .. أم أن العداء قد ارتبط بالظرف الخاص الذى كان عليه المسلمون بالهند فى ذلك التاريخ ؟!..

نحن نقول — ولدينا الأدلة — أدلة الأستاذ المودودى نفسه — إن عداؤه للقومية وللديمقراطية لم يكن عداء مبدأ ، فضلا عن أن يكون مبدأ إسلاميا .. وإنما كان رفضا لفكر سياسى رآه ، فى ذلك الظرف التاريخى ، ضارا بالمسلمين الهنود بإسلامهم ..

لقد كانت نسبة السكان المسلمين إلى سكان عموم الهند ، فى ذلك التاريخ هى نسبة الربع إلى الثلاثة أرباع ... وكان معنى الدولة القومية الواحدة ، التى تحكمها الأغلبية ، وفقا للديمقراطية ، هو حكم الهنادكة وتحكمهم فى المسلمين ، بما وراء ذلك من إضرار بالمسلمين وإسلامهم .. ولقد أفاض المودودى الحديث حول هذا السبب الذى رفض لأجله « القومية » و « الديمقراطية » ، وأعلن أن الأغلبية الهندوكية ليست من نوع « الأغلبية المألوفة » فى الدول الديمقراطية ، الأغلبية المؤسسة على الرأى ، وعلى « الفروع » ، والتى تتحول فيها « الأقلية » إلى « أغلبية » أو العكس .. ذلك لأن التمايز بين الهنادكة والمسلمين ليس فى « الرأى » حول القضايا السياسية الجارية ، وإنما هو فى « الأصول الحضارية الثابتة » ، ومن ثم فستظل الأغلبية أغلبية أبدا ، وستظل الأقلية أقلية أبدا .. وفى ذلك السيطرة الأبدية للهنادكة على المسلمين ، بما يعنى — تبعاً لظروف الهند — من إضرار بإسلام هؤلاء المسلمين ومقوماتهم الحضارية الخاصة ..

ذلك هو السبب الحقيقى لرفض المودودى « للقومية » و « للديمقراطية » ، ولم يكن السبب نابعا من كونهما وافدا أوربيا ... ولدينا الأدلة ، من نصوص المودودى ، على هذا التفسير .. فالمودودى يميز بين « القومية السياسية » : القائمة على « وحدة الوطن » ، دون

(٧٠) المرجع السابق . ص ٢٥٥ .

وحدة الحضارة .. وبين « القومية الحضارية » ، التى تؤلف بين جماعتها البشرية أصول حضارية واحدة .. فيرفض الأولى ، لأنها هى التى كانت تجمع كل سكان الهند .. والتسليم بها كأساس لبناء الدولة الديمقراطية ، سيؤدى إلى تحكم الأغلبية الهندوكية فى المسلمين ... وهو يحذر الثانية ، لأن المسلمين فى الهند ، بمقياسها ، قومية متميزة ، ومن ثم فلا بد لهم من ذاتية سياسية متميزة ، تمكنهم من الحفاظ على خصوصيتهم الحضارية وتنميتها ...

« فالنوع الأول من القومية يطلق عليه القومية السياسية [Political Nationality] أى مجموعة من الناس يجمعهم ناظم سياسى خاص يرتبطون به ، ونتيجة لهذه الوحدة السياسية المجردة يعتبرون أمة . وليس من الضرورى لمثل هذا النوع من القومية أن تتحد جميع أفكار ونظريات المنتمين إليها ، أو تكون لديهم مثل متاثلة ، أو لغة واحدة أو أدب واحد أو أى نوع من طرق الحياة المتشابهة ، فهم رغم كل هذا يمثلون قومية سياسية واحدة ، رغم ورود الاختلاف فى كل ما أوردناه جميعا .. »

وهو يسلم بأن هذا النوع من « القومية السياسية » هو وحده الذى يربط سكان عموم الهند ، فبين هؤلاء السكان « توجد بلا شك أسس القومية السياسية » ...

لكن المودودى يرفض أن تكون هذه هى القومية التى تربط الناس برباط حقيقى . « فهذه القومية ليست القومية على الإطلاق ! .. » .. ذلك أن القومية الحقيقية ، عنده ، هى « القومية الحضارية » .. إنها : « النوع الثانى من القومية .. ما يطلق عليه : القومية الحضارية أو الثقافية [Cultural Nationality] وتضم هذه القومية أناسا لهم دين واحد وأفكار واحدة ، يتصفون بصفات أخلاقية واحدة ، وينظرون إلى أهم شئون الحياة نظرة مشتركة ، مما يصبغ مظاهر حياتهم الحضارية والثقافية بلون واحد . كما أنها تضم أولئك الذين يتحد لديهم معيار التحريم والتحليل ، والحب والكراهية ، والاعجاب والنفور ، والذين يقدر بعضهم أحاسيس ومشاعر البعض الآخر ، ويأمنون إلى عادات وخصائص بعضهم البعض ، والذين وجدت بينهم رابطة الدم والقلب نتيجة للتزاوج فيما بينهم ، ونتيجة لما بينهم من وحدة اجتماعية ، والذين يحركهم نوع واحد من المثل التاريخية . وباختصار : الذين يشكلون جماعة واحدة ، ووحدة متماسكة من الناحية الذهنية والروحية والأخلاقية والحضارة الاجتماعية ، فلو ظهر بينهم التعصب القومى فإنما يكون على أساس هذه القومية . كما أن من تضمهم هذه القومية ينمو بينهم فقط — شكل قومى مشترك Joint National type وفكرة قومية مشتركة Joint National Iden وعن طريق حب هذا الشكل القومى المشترك ، وعن طريق قوة هذه الفكرة القومية المشتركة تظهر « القومية » ، وهذا هو ما يتطور فيما بعد ليشكل « القومية الذاتية » National Self تكون لدى الأفراد فيها استعدادات ذاتية للانجذاب إليها . وحين تكون هناك أية موانع ، واقعية كانت أو خيالية ، تقف فى طريق نمو هذه القومية الذاتية فإن هذه العواطف

تلتهب من أجل إزاحة هذا المانع ، وتلك العاطفة هي الشيء الذى يطلق عليه إسم : القومية »

وكما نفى المودودى أن تكون « القومية السياسية » — الموجودة بالهند — قومية حقيقية .. فلقد قطع بأن ظروف الهند — الحافلة بقوميات متعددة — تنفى أن تكون بها « قومية حضارية ثقافية واحدة »^(٧١) ... ومن ثم فلا مجال للدعوة إلى بناء دولة قومية واحدة ، لأن القومية الحقيقية الواحدة غير موجودة بين عموم سكان الهند .. ومن ثم فلا يمكن قبول هدف حزب المؤتمر « الذى يتمثل فى قيام دولة وطنية جمهورية [ديمقراطية] علمانية ، كما أنه لا يمكننا أن نتحمل أو نستسيغ سياسته التى ترمى إلى القبض على السلطات السياسية تدريجياً ، ومساعدة الهنادكة لتكون لهم اليد الطولى على جميع أجزاء البلاد !.. »^(٧٢)

فالعداء هو للقومية التى ستسحق مقومات المسلمين الحضارية ، لأنها « قومية سياسية » فقط ، لا وحدة حضارية بين الذين يطلب أن يعيشوا فى دولتها الوطنية الديمقراطية ... ولو كان الحال غير ذلك ، والهند قومية حضارية وثقافية واحدة ، أو لو أن المسلمين فيها أغلبية لما عارض المودودى القومية ...

لقد عارضها لهذا السبب ... أما الانجليز فكانوا نظرياً مع القومية الواحدة ، لأنها جزء من فكرية حضارتهم .. وحزب المؤتمر ، ذو الأغلبية الهندوكية ، والذى تسود فكرته مثل الحضارة الغربية ، كان مع القومية الواحدة ، ودولتها الواحدة ، بحكم المصلحة أولاً ، والفكر التغريبي المتفق مع هذه المصلحة ... ولقد كان المودودى صريحاً عندما وضع النقاط على الحروف ، وأعلن أن رفضه للقومية الواحدة ، ودولتها الواحدة قد نبع من الحرص على قومية المسلمين الحضارية كى لا تسحقها الأغلبية الثابتة للهنادكة ، وأن هذا السبب فى الرفض خاص بظروف المسلمين الهنود .. فقال : « إن نظرية القومية التى أوردتها الغربيون إلى بلادنا كانت نظرية الوطنية اللادينية ، التى إذا اختلط بها مبدأ « القومية » أصبح ضغطاً على إبالة ، بحقنا على الأقل ، لأن بلادنا الهندية ثلاثة أرباع سكانها من غير المسلمين ، فقد جعلنا مبدأ « القومية » — على أساس الوطنية — بين أمرين : إما أن نرتد على أعقابنا عن ديننا الاسلام ، متحمسين لديانتنا الجديدة ، أو نعيش فى البلاد كافرين ، أى خارجين على الوطن بموجب ديانة القومية والوطنية ! .. »^(٧٣)

فالمرغوض هو « القومية السياسية » ، لأنها ليست قومية حقيقية .. أى ليست

(٧١) المرجع السابق . ص ١٧١ - ١٧٣ .

(٧٢) المرجع السابق . ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٧٣) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

قومية حضارية وثقافية .. ولأنها مؤسسة فقط على وحدة الأرض — الوطنية — .. ولأن أغليتها الهندوكية ستظل ثابتة ، وفي الديمقراطية ، التي تحكم فيها الأغلبية الأقلية سيحق الخطر بالقومية الحضارية للمسلمين ... فالحق والحقيقة أن المودودى مع القومية الحقيقية وضد اللاقومية ١٩

● ويزيد من وضوح هذا التفسير ، الذى قدمناه لرأى المودودى فى القومية — إن كانت لا تزال تمة حاجة لوضوح ١٩ — أن الرجل لم يكن له اعتراض على نشأة القوميات فى أوروبا ، عندما كان هدفها « أن تعطى القوميات المختلفة حرية ممارسة حق سيادتها فى أرضها بكافة الحقوق ، السياسية والتجارية والاقتصادية وغيرها ، بدلا من أن تكون أداة فى أيدي البابوات والقيصرة ، المتعسفين بإسم السلطات الروحية والزمنية !... » فقط كان اعتراضه على تطور هذه القومية إلا الاستعلاء والقداسة والاتحاد والعدوان^(٧٤).... ولذلك فهو يميز بين نوعين من القومية :

الأولى : القومية غير العدوانية .. وذات المضمون والهدف التحررى ... وهو معها يؤيدها .
والثانية: القومية العدوانية ، الأنانية ، المستغلة لغيرها من القوميات والشعوب .. وهو ضدها .. رافض لها ... وكلماته ، فى هذا التمييز ، الذى لا يدع مجالا لشك فى براءته مما ينسب إليه من عدااء للقومية ، بإطلاق ومن حيث المبدأ ، تقول : « أما القومية ، فإن أريد بها : الجنسية [Nationality] فهى أمر فطرى لا نعارضه ، وكذا إن أريد بها انتصار الفرد لشعبه ، فنحن لا نعارضه كذلك ، إذا كان هذا الحب لا يعنى معنى العصبية القومية العمياء التى تجعل الفرد يحتقر الشعوب الأخرى ، وينحاز إلى شعبه فى الحق والباطل على السواء . وإن أريد بها مبدأ الاستقلال القومى ، فهو هدف سليم كذلك ، فمن حق كل شعب أن يقوم بأمره ، ويتولى بنفسه تدبير شئون بلاده .

أما الذى نعترض عليه ونعتبره شيئا ممقوتا نحاربه بكل قوة فهو القومية التى تضع ذاتها ومصالحها ورغباتها الخاصة فوق جميع الناس ومصالحهم ورغباتهم ، والحق عندها هو ما كان محققا لمطالبها واتجاهاتها ورفعته شأنها ، ولو كان ذلك بظلم الآخرين وإذلال نفوسهم !... »^(٧٥)

إن المودودى لا يعادى القومية بإطلاق ، ومن حيث المبدأ .. فقط هو يعادى

(٧٤) [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ١٣ ، ١٤ .

(٧٥) المرجع السابق . ص ٢٥ ، ٢٦ .

« القومية العدوانية » .. وبالتحديد فهو يعادى القومية الاستعمارية الاوربية ، التى ذهبت تستعبد كل الهند ... ويعادى القومية الهندوكية التى سعت — على أساس وحدة الأرض والوطن — والتى لا تكوّن قومية حقيقية لسكان عموم الهند — سعت للسيطرة الأبدية على المسلمين فى شبه القارة الهندية ...

فهل بعد جلاء موقف المودودى ، من قضية « القومية » ، مجال لنقل بعض نصوصه التى عارض بها سيطرة الأغلبية الهندوكية على الأقلية المسلمة .. نقل هذه النصوص ، ليعارض بها نفر من الاسلاميين « القومية العربية » ، التى تصل نسبة المسلمين بين سكانها قرابة الـ ٩٥ ٪ من مجمل هؤلاء السكان ١٩... وهى القومية التى وصفها الشيخ حسن البنا فقال : « إن هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى المحيط كلها عربية ، تجمعها العقيدة ، ويوحد بينها اللسان ، وتولفها الوضعية المتساقطة فى رقعة من الأرض واحدة متصلة متشابهة ولا يحول بين أجزائها حائل ، ولا يفرق بين حدودها فارق . ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ، ولخير العالم كله ... فلن ينهض الاسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ووحدتها .. فالعرب هم أمة الاسلام الأولى وشعبه المتميز !.. » (٧٦)

وهل من الأمانة أن نأخذ نصوص الأستاذ المودودى فى قومية الهناذكة لنلصقها بقومية العرب المسلمة ، بأغلبية سكانها الساحقة ، وبالتكوين النفسى الإسلامى الذى هو حضارة العرب أجمعين ١٩ ..

بل إننا إذا ذهبنا نستقرئ الحل الذى قدمه الأستاذ المودودى لمستقبل الهند ، بقومياتها المتعددة ، وللعلاقة بين القومية الاسلامية وغيرها من القوميات التى تعيش فى شبه القارة الهندية ، فسنجد المودودى قد قدم هذه المعضلة « حلا قوميا » ١٩... لقد طلب لكل قومية « استقلالا ذاتيا » ، تمارس فى ظله حقوقها القومية وتنمى فى إطار « دولة داخل الدولة الاتحادية » التى تظل هذه « الدول » القومية جميعا .. فهو « حل قومى » ، ترسم معالمه التمايزات القومية فى شبه القارة الهندية ... ومن كلمات المودودى ، التى صاغ بها اقتراحه هذا نقراً قوله : « إن إقرار واستمرار الحياة القومية للمسلمين يستلزم ، بالضرورة ، ما يمكن أن نطلق عليه ، بالمصطلح السياسى الحالى : « دولة داخل دولة » . إن الدعائم التى يقوم عليها مجتمعهم لا يمكن أن تظل راسخة ثابتة طالما لا يوجد فى مجتمعهم « قوة حاكمة » و « هيئة

(٧٦) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١١٣ ، ١١٤ .

حاكمة ... » (٧٧) خاصة بهم ... « ولا حرج في أن تنال أم الهند الأخرى هذا النوع من الاستقلال ، أو الحكم الذاتي ، في سبيل الحفاظ على مصالحها القومية الخاصة . وبعد أن تحصل جميع الأمم داخل الهند على مثل هذا الاستقلال ، أو الحكم الذاتي ، فإن نظام الحكم المشترك يمكن أن يتحقق داخل الهند بطريقة سليمة ... » (٧٨)

أما نوع العلاقة بين هذه القوميات ، المستقلة ذاتيا ، في دولة لكل منها داخل الدولة ، أى نوع « الدولة الجامعة » ، فلقد طرح المودودي حوله تصورات ثلاثة :

- ١ - الاتحاد الفيدرالى ..
- ٢ - أو تميز القوميات في مناطق محددة جغرافيا ، مع إحداث « إبدال سكاني » خلال ربع قرن أو أكثر ، يصحبه تزايد استقلال « الدول » وتقليل صلاحيات « المركز » ..
- ٣ - أو انفصال الولايات الاسلامية واستقلالها واتحادها .. وكذلك الولايات الهندوكية ، مع إقامة « تحالف » و« تعاون » بينهما ..

وهي تصورات مؤسسة على المعيار القومى ، طرحها الأستاذ المودودي ، فقال : إن « أمامنا الآن ثلاثة تصورات لتشكيل مستقبل الهند :

التصور الأول :

إن الشكل الصحيح والعاقل لبناء دولة جمهورية — [أى ديمقراطية] — في بلد القوميات المتعددة هو :

أولا : أن تقوم على مبادئ وأصول الاتحاد الفيدرالى الدولى International Federatim وبعبارة أخرى : فهي ليست دولة أمة واحدة ، بل هي دولة اتحادية للأمم متعددة Astate of Federatel Natim.

ثانيا : تتمتع كل أمة داخل هذا الاتحاد بالاستقلال الحضارى والثقافى Culturol Autonony. أى تستطيع كل دولة أن تستخدم صلاحيات وسلطات الحكومة لإصلاح وتنظيم بيتها داخل دائرة حياتها الخاصة .

ثالثا : أن يقوم نظام عملها ، بالنسبة للمعاملات الوطنية المشتركة ، على المشاركة المتساوية equal Partnersinp. فيكون لكل منها استقلالها الذى تمارسه فيما يتعلق بمعاملاتها الخاصة ، ويمكنها أيضا أن تمارس عملا مشتركا فيما يتعلق بالمعاملات المشتركة . وفى ظل هذا النوع من النظام الاتحادى ، فإن « الإمارة » أو « الولاية » تنقسم بين المركز

(٧٧) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ٥١ .

(٧٨) المرجع السابق . ص ٩٩ .

والأجزاء المتحدة وبعد ذلك تواجه قضية الحكومة المركزية ... ويجب أن يؤسس هذا النظام الحكومى المشترك ، بالضرورة ، على مبادئ الأنصبة المتساوية أو المشاركة المتساوية ، لأن هذا الاتحاد بين الأمم صاحبة «الإمارة» ، وليس نظاما قائما على حكم الحكومة الواحدة Unitary ومختص بأمة واحدة .

التصور الثانى :

إذا رفض هذا التصور للاتحاد بين أمم الهند ، فمن الممكن إيجاد تصور آخر ، وهو إقرار حدود جغرافية منفصلة لكل أمة من الأمم ، تستطيع أن تبني فوقها دولتها الجمهورية — [أى الديمقراطية] — ، وتحدد فترة ٢٥ سنة أو أكثر أو أقل من ذلك لإحداث «إبدال سكاني» ، ويكون لكل دولة استقلالها الداخلى بصورة متزايدة ، بينما يحتفظ المركز الاتحادى بصلاحيات قليلة .

التصور الثالث :

إذا رفض هذا التصور أيضا ، فإننا نطالب فى النهاية بأن تنفصل ولاياتنا القومية ، وتشكل اتحادا فيما بينها ، وهكذا يمكن للولايات الهندية أن تقيم لها اتحادا منفصلا ، ثم يشكل تحالف Confedraty بين هذين البلدين ، أو أكثر ، ويمكن التعاون بينهما بشروط محددة ، وذلك من أجل الأهداف الخاصة ، مثل الدفاع والمواصلات والعلاقات التجارية ... » (٧٩)

تلك هى تصورات المودودى عن الحلول التى رآها للعلاقة بين القوميات الحضارية والثقافية فى الهند الكبرى ... وهى شهادة تثبت أن الرجل وإن حارب «القومية السياسية» ، المفتقرة إلى الوحدة فى الأصول والمكونات الحضارية للقومية ، فلقد ناضل فى سبيل «الحل القومى» للقوميات الحضارية ... ولم يكن أبدا عدوا للقومية .. كما حسب بعض الاسلاميين !..

هذا عن الشبهات التى علقت بفكره القومى ..

* * *

أما موقفه من «الديمقراطية» ، والذى زُعم أنه عاهاها عداء شديدا .. فإنه هو الآخر مما يحتاج إلى جلاء لبعض الغموض ، وكشف لما أحاطه من الشبهات !..

(٧٩) المرجع السابق . ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ . [وواضح من سير الأحداث أن المشكلة قد حلت بمزيج من التصور الثانى والثالث ، مع التعديل .. فتم الاستقلال الكامل للقومية الاسلامية ، مع ابدال سكانى فرضته أحداث الصراع العنيف !]

لقد قيل إن الرجل قد ارتاد الدعوة إلى «الحاكمية الإلهية» في الفكر الاسلامي الحديث .. فأحيا هذه الدعوة التي بدأها «الخوارج» في صدر الإسلام عندما أعلنوا أنه : [لا حكم إلا لله !] ... وقيل إن الرجل قد شدد على اختصاص الحاكمية بالله .. «الحاكمية القانونية» ، أى حاكمية التشريع .. و«الحاكمية السياسية» ، أى حاكمية التنفيذ .. ونفى أن يكون لبشر ، فردا كان أو حزبا أو طبقة أو شعبا ، أى حق ، ولو جزئى ، في هذه «الحاكمية الإلهية» ... ولما كانت «الديمقراطية» — كما هى في الغرب .. وكما تحدث عنها الرجل — هى «حاكمية الجماهير» فلقد رفضها الرجل كل الرفض ، وعادها كل العداء !..

قيل هذا ، وسيقت عليه شواهد من نصوص الرجل .. من مثل قوله : « إن وجهة نظر العقيدة الإسلامية تقول : إن الحق وحده هو الحاكم بذاته وأصله ، وأن حكم سواه موهوب وممنوح »^(٨٠) ... وإن أى شخص أو جماعة يدعى لنفسه أو لغيره حاكمية كلية أو جزئية ، في ظل هذا النظام ، هو ولا ريب سادر في الإفلك والزور والبهتان المبين ... فالله معبود بالمعاني الدينية ، وسلطان حاكم بالمعاني السياسية والاجتماعية ... وهو لم يهب أحدا حق تنفيذ حكمه في خلقه ... وإن الانسان لا حظ له من الحاكمية إطلاقا^(٨١) ... وإن الأساس الذى ارتكزت عليه دعامة النظرية السياسية في الاسلام أن تنزع جميع سلطات [Powers] الأمر والتشريع من أيدي البشر ، منفردين ومجتمعين ، ولا يؤذن لواحد منهم أن ينفذ أمره في بشر مثله فيطيعوه ، أو ليسن قانونا لهم فينقادوا له ويتبعوه ، فإن ذلك أمر مختص بالله وحده ، لا يشاركه فيه أحد غيره ، كما قال هو في كتابه : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم ﴾^(٨٢) ... فالخصائص الأولية للدولة الإسلامية ثلاث :

- ١ - ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو لسائر القاطنين في الدولة نصيب من الحاكمية ، فإن الحاكم الحقيقى هو الله ، والسلطة الحقيقية مختصة بذاته تعالى وحده . والدين من دونه في هذه المعمورة إنما هم رعايا في سلطانه العظيم .
- ٢ - ليس لأحد من دون الله شيء من أمر التشريع ، والمسلمون جميعا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، لا يستطيعون أن يشرعوا قانونا ، ولا يقدرّون أن يغيروا شيئا مما شرع الله لهم .

(٨٠) [الحكومة الإسلامية] ص ٨١ ، ٨٢ .

(٨١) المرجع السابق . ص ٧٠ ، ٧٣ .

(٨٢) يوسف : ٤٠ .

٣ - أن الدولة الإسلامية لا يؤسس بنيانها إلا على ذلك القانون المشرع الذي جاء به النبي من عند ربه ، مهما تغيرت الظروف والأحوال ، والحكومات Government التي بيدها زمام هذه الدولة State لا تستحق طاعة الناس إلا من حيث أنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أمره تعالى في خلقه (٨٣).....

وأن وضعية الدولة الإسلامية : أنها ليست ديمقراطية Democracy ، فإن الديمقراطية عبارة عن مناهج للحكم تكون السلطة فيه للشعب جميعا ... وهي ليست من الاسلام في شيء ، فلا يصح إطلاق كلمة الديمقراطية على نظام الدولة الإسلامية ... (٨٤)

نعم ... لقد قال الأستاذ المودودي ذلك .. ومثله كثير !... ونحن نعرف أن كلماته هذه من الممكن أن يؤدي اجتزاؤها ، وغياب وضعها إلى جوار غيرها من التي عرض فيها لذات القضية ، وأيضا غياب المعنى المحدد لما عناه الرجل من « الحاكمية » ، وما كتبه عن « الخلافة الإنسانية » عن الله في الأرض ... إن غياب ذلك من الممكن أن يوهم — وهو قد أوهم الكثيرين — أن الرجل عدو للديمقراطية ، لأن الحاكمية تعني تجريد الانسان من كل سلطات التشريع والتنفيذ ..

لكن لنبدأ ، أولا ، بتحديد معنى المصطلحات عند الرجل :

● إن معنى كلمة « الحاكمية » عنده هي : « السلطة العليا .. المطلقة » .. فهي ليست السلطة « العليا » فقط .. بل و « المطلقة » أيضا .. إنها لا تطلق إلى على ال [فقال لما يريد] والذي [لا يُسأل عما يفعل] (٨٥) ..

● ومعنى كلمة « الديمقراطية » — في الحضارة الغربية — هي : « حاكمية الجماهير ... وسيادتها المطلقة من كل قيد ، سوى ما تصنعه الجماهير لنفسها ... » (٨٦) .. أي أن للجماهير السلطة العليا ، والمطلقة .. والآن نكتفي بأن نسأل :

هل يدعى مسلم ، مهما بلغ إيمانه بالديمقراطية ، أن الجماهير يجب أن تكون ، في ديمقراطيتنا ، مطلقة السلطة ، فلا تسأل عما تفعل ؟ وتفعل ما تريد ؟ حتى لو أحلت الحرام وحرمت الحلال ، الثابت دلالة وورودا عن الله سبحانه وتعالى ۱؟ أم أن سلطة الجماهير

(٨٣) [نظرية الاسلام السياسية] ص ٣١ - ٣٣ .

(٨٤) المرجع السابق . ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٨٥) [تلويح الدستور الاسلامي] ص ٢٥١ ، ٢٥٣ . ترجمة محمد عاصم الحداد . طبعة بيروت سنة ١٣٨٩ هـ سنة ١٩٦٩ م ضمن مجموعة عنوانها « نظرية الاسلام وهدية في السياسة والقانون » .

(٨٦) [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ٣٦ ، ٣٧ .

وسلطان الأمة وسلطاتها يجب أن تقيد بما قطع فيه الله بالتشريع ، فهي حرة داخل الإطار الإلهي ؟؟..

وبعد هذا التساؤل .. لنواصل عرض الفكر المتكامل للأستاذ المودودي ...
إن الرجل لم يقل بوجود تشريع إلهي كامل لما هو قائم وما يستجد من القضايا والمشكلات ، حتى يمكن أن يتصور أنه مجرد الانسان من كل حق في التشريع والتقنين ، كما توهم بعض نصوصه المجتزأة ... بل الرجل يقول : « إن مجالس الشورى أو البرلمانات لا يباح لها أن تسن نظاما أو تصدر حكما فيما ورد فيه نص صريح واضح في شريعة الله ... أما ما لم يرد فيه نص شرعي — وهو المجال الأوسع — فلاهل الحل والعقد أن يجتهدوا في سن الأنظمة التي تحقق مصلحة الأمة بالمشورة المتبادلة .. على أن تكون منسجمة مع الإطار العام لأسس الشريعة ... » (٨٧)

إذن فللبشر أن يسنوا القوانين والنظم فيما لا نص فيه .. وهو المجال الأوسع !... بل إن المودودي يسمي هذه السلطة ، التي تمارسها مجالس الشورى والبرلمانات ، يسميها « حاكمية » ١٩.. وذلك عندما يذهب لإبداع تعريف للحكومة الاسلامية ، والتي يراها إلهية ، أى « ثيقراطية » Theo-Cracy لأن صاحب السلطة المطلقة والعليا في التشريع مجتمعتها هو الله ... ولكنها ليست ثيقراطية الغرب الكنسية التي تتحكم فيها طبقة السدنة Priest Class . لأنها في الاسلام أيضا ديمقراطية Democracy لأن الاسلام قد أقر « نيابة الشعب واستخلافه عن الله ، في ظل سيادة الله وحاكميته » .. فالحكومة الاسلامية لذلك هي — عند المودودي — : « الثيقراطية — الديمقراطية » أو الحكومة الالهية الديمقراطية .. لأنه قد خول فيها للمسلمين « حاكمية شعبية مقيدة » Limited popalar Sovereignty ... » (٨٨)

إذن ، ففي الاسلام « حاكمية شعبية » ، وإن تكن مقيدة بالنصوص القطعية — التي تناولت المجال الأقل من شئون المجتمع ، وتركزت لأصحاب « الحاكمية الشعبية » « المجال الأوسع » — كما قال المودودي ١٩.. —

بل وحتى فيما وردت به النصوص الالهية نجد لأصحاب « الحاكمية الشعبية » مجالا كبيرا .. وبعبارات المودودي ، فإن « هناك مع هذا العنصر القطعي ، غير القابل للتغيير والتعديل ، عنصراً آخر يوسع في القانون الاسلامي إلى حيث لانهاية ، ويجعله يرحب بالتغيير والرق في كل حالة من حالات الزمان المتطورة ، وهو يشتمل على عدة أنواع :

(٨٧) المرجع السابق . ص ٤٠ .

(٨٨) [نظرية الاسلام السياسية | ص ٣٤ ، ٣٥] والاسلام والمدينة الحديثة | ص ٣٦ .

١ - تعبير الأحكام أو تأويلها أو تفسيرها ... وهو باب واسع جدا في الفقه الاسلامى . فالذين لهم عقول ثابتة .. يجدون أمامهم مجالا واسعا للتعبيرات المختلفة حتى في أحكامها القطعية الصريحة ، فكل منهم يرجح — على حسب فهمه وبصيرته — تعبيرا من هذه التعبيرات على غيره ، محتجا بالدلائل والقرائن . وهذا الاختلاف في تعبير الأحكام مازال له وجود بين أصحاب الفقه والعلم من الأمة من أول أمرها ، ولا بد له أن يبقى مفتوحا في المستقبل أيضا ..

٢ - القياس .. وهو تطبيق حكم ثبت من الشارع في قضية ، على قضية أخرى تماثلها ، أى بقياسها عليها ..

٣ - الاجتهاد .. وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة وتطبيقها في قضايا جديدة لا توجد لها النظائر والأشباه في الشريعة ..

٤ - الاستحسان .. وهو وضع ضوابط وقوانين جديدة في دائرة المباحث غير المحدودة على حسب الحاجات ، بحيث تنفق إلى أكبر درجة مع روح نظام الاسلام الشامل .

فهذه الأمور الأربعة إذا تدبرتم ما فيها من الامكانات ، فإن الشبهة لا تكاد تساوركم بأن القانون الاسلامى قد ضيق نطاقه في حين من الأحيان عن تلبية حاجات تمدن الانسان المتزايدة المتجددة ، والوفاء بمطالب أحواله المتطورة .. «^(٨٩)

فالأحكام القطعية القليلة .. من مثل

١ - الأحكام الصريحة القطعية الواردة في القرآن والأحاديث .. كالحدود .. والميراث ..

٢ - والقواعد العامة الواردة في القرآن والأحاديث ، كحرمة كل شيء مسكر ، وكل بيع لا يتم فيه تبادل المنفعة بين الجانبين على تراض منهما ...

٣ - والحدود المقررة في القرآن والسنة لنحد بها حريتنا في الأعمال ولا نتجاوزها ، كحد أربع نساء لتعدد الزوجات ، وحد ثلاث مرات للطلاق ، وحد ثلث المال للوصية ...

هذه الأحكام القطعية هى من « الثوابت » المحددة لصورة مدنية الاسلام المتميزة .. ولا بد لكل مدنية من ثوابت « لا تقبل التزحزح والتغيير ..! »^(٩٠)

فإذا علمنا أن « القرآن ليس هو بكتاب الجزئيات ، بل هو كتاب المبادئ والقواعد الكلية ، ومهمته الحقيقية أن يعرض الأسس الفكرية والخلقية للنظام الاسلامى بوضوح ،

(٨٩) [القانون الاسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان] ص ١٧٣ - ١٧٥ .

(٩٠) المرجع السابق . ص ١٧١ ، ١٧٢ .

ثم يشبها تثبيتا قويا بكلتا الطريقتين : التدليل العقلي ، والتحريض العاطفي . أما ما يتعلق بالصورة العلمية للحياة الاسلامية فإنه لا يرشد الانسان إليها بوضع قوانين وأنظمة تفصيلية ... بل إنه حدد الحدود الأساسية .. »^(٩١) فقط ..

إذا علمنا كل ذلك أدركنا — بمنطق المودودي — ومن خلال نصوصه كيف وسع الاسلام مجال « الحاكمية البشرية المقيدة » .. وما هو نطاق القيود الالهية على هذه الحاكمية البشرية ..

والأستاذ المودودي ، بعد أن نفى أن تكون « الحاكمية البشرية » ، في الاسلام ، لفرد أو طبقة ، أو كهنة سدنة ، تحدث عن خلافة الانسان ونيابته عن الله .. فالأمة نائبة عن الله ، وهي تنتخب حاكمها ، ونوابها ، وأهل الحل والعقد فيها ، بطريقة ديمقراطية ، الأمر الذي « يجعل الخلافة الاسلامية « ديمقراطية » ، على العكس من القيصرية أو البابوية أو الشيوعية [الدولة الدينية Theocracy] على حسب ما يعرفها الغرب ورجاله .. »

ويستطرد المودودي فيقول إن « ديمقراطيتنا الاسلامية — هي كديمقراطية الغرب — لا تتألف الحكومة فيها ولا تتغير إلا بالرأى العام . ولكن الفرق بيننا وبينهم : أنهم يحسبون ديمقراطيتهم حرة مطلقة العنان ، ونحن نعتقد الخلافة الديمقراطية متقيدة بقانون الله عز وجل .. »^(٩٢)

وفي مكان آخر يفصل في الطابع الديمقراطي للنظام السياسي الاسلامي ، فيقول : « إننا نعارض سيادة فرد أو أفراد أو طبقة سيادة مطلقة تستأثر بالسلطة ، أكثر من معارضة المتحمسين للديمقراطية الغربية ، ونؤكد المساواة في الحقوق وتكافؤ الفرص أكثر من تأكيد أنصارها ، ونحارب كل نظام يكبت الحريات ، فلا يبيح حرية التعبير أو التجمع أو العمل ، أو يضع العراقيل في سبيل بعض الأفراد لاختلافهم في الجنس أو الطبقة أو أصل الولادة ، بينما يعطي الآخرين حقوقا وامتيازات خاصة . فإذا كانت الديمقراطية الغربية تعتبر هذه الأمور جوهرها [Essence] وروحها فإنه لا خلاف بينها وبين ديمقراطيتنا الاسلامية نحن نؤمن بحاكمية الله تعالى ، ونقيم نظام حكمنا على فكرة الاستخلاف أو النيابة ، وهي نيابة ديمقراطية ، جوهرها وروحها ، يتم فيها انتخاب الخليفة أو الرئيس أو الأمير وفق رأى الجماهير وإرادتهم الحرة ، كما يتم فيها انتخاب أهل الحل والعقد والشورى كذلك ، وهم

(٩١) [المبادئ الأساسية لفهم القرآن] ص ٦٢ . تعريب : خليل أحمد الحامدي . طبعة الكويت سنة ١٣٩١ هـ سنة ١٩٧١ م .

(٩٢) [تدوين الدستور الاسلامي] ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

الذين لهم الحق المطلق في نقد تصرفات الحكام ، ومحاسبتهم .. » (٩٣)

وإذا كان المودودي قد مال ، في كتابه [نظرية الاسلام السياسية] — الذى كتبه سنة ١٩٣٩ م — إلى « أن للأمير الحق في أن يوافق الأقلية أو الأغلبية من أعضاء مجلس الشورى في رأيها ، كما أن له أن يخالف أعضاء المجلس كلهم ، ويقضى برأيه » (٩٤) .. أى مال إلى عدم إلزام الشورى للحاكم ... فلقد عاد وعدل عن هذا الرأى في كتابه [تدوين الدستور الاسلامى] — الذى كتبه سنة ١٩٥٢ م — وقال : إنه « لا مندوحة لنا من أن نجعل الهيئة التنفيذية تابعة لآراء أغلبية أعضاء المجلس التشريعى ! » (٩٥)

فهل بقيت ثمة شبهة ، أو بقى أى غبار على فكر الرجل ، يبرر الظن بعدائه للديمقراطية ، بدعوى أن مفهومه للحاكمية الالهية ينافيها ؟ ...!

لا نعتقد .. ولا نظن !..

واخيرا .. فإن هناك حقيقة هامة قامت وراء نقد المودودي للديمقراطية الغربية ، التى كانت أساسا من أسس الدولة القومية الواحدة التى سعى [حزب المؤتمر] لاقامتها في الهند الموحدة .. وهذه الحقيقة تقول : إن عداء المودودي هذا قد نبع من عدائه لفكرة القومية الهندية الواحدة ، فكلاهما كان يعنى — في ظروف الأقلية المسلمة والأغلبية الهندوكية — سحق الشخصية الحضارية والقومية الثقافية للمسلمين ... والمودودي ، في نصوص كثيرة له ، يميز بين الديمقراطية — بمعنى النيابة عن الأمة وحكم الأغلبية — وبين تطبيقها في ظل أغلبية ثابتة ، على أقلية ثابتة — لاختلافهما في الأصول والحضارة — .. فهى ، في رأيه ، هنا ستكون « بربرية » ، ولن تكون « ديمقراطية » !.. يقول — في نص هام جدا من نصوصه هذه — موضحا فكره ، وحاسما موقفه : « إنه لا يمكن لأى عاقل أن يعارض الديمقراطية ، ولا يمكنه القول بأنه يجب أن يكون هناك حاكم ملكى أو أرستقراطى ، أو أى نوع آخر من أنواع الحكم . إن القضية التى تقلقنا منذ فترة طويلة ، وتزيدنا قلقا يوما بعد يوم ، هى أن نظام الحكم في الهند يسير منذ حوالى ثمانين سنة (٩٦) مضت على أساس المؤسسات الديمقراطية ، على افتراض وجود قومية واحدة ، وذلك بسبب القيادة الخاطئة والحكم الخاطيء من جانب الإنجليز من ناحية ، وحسن حظ وأناية الهنادكة من ناحية أخرى . ولا يجب أن نخلط هنا بين الديمقراطية نفسها والمؤسسة ذات النوع الجمهورى ، على افتراض

(٩٣) [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ٢٦ - ٣٨ .

(٩٤) [نظرية الاسلام السياسية] ص ٥٩ .

(٩٥) [تدوين الدستور الاسلامى] ص ٢٧٦ .

(٩٦) كتب هذا الكلام سنة ١٩٣٧ م .. والاشارة إلى تاريخ هزيمة الهند أمام بريطانيا في خمسينات القرن التاسع عشر .

وجود القومية الواحدة ، فينبهما فرق السماء والأرض ، ولا يعنى الاختلاف مع واحدة أننا نختلف مع الأخرى . فحقيقة الأمر أنه لا يوجد في الهند قومية واحدة ، ولا توجد بالهند الأسس التى يمكن أن تقوم عليها القومية الواحدة . ولكن لنفترض أن الهنادكة والمسلمين والنبوذيين والسيخ والمسيحيين وغيرهم يمثلون أمة واحدة .. فإن من الممكن تطبيق قاعدة الجمهورية [الديمقراطية] هذه بينهم على أساس أن يسير الحكم طبقا لما ترتضيه الجماعة التى تمثل الأغلبية بين هذه الأمم^(٩٧)... إنه حين يتم تطبيق أصول الحكومة المنبثقة عن الأغلبية [أى حكومة الأغلبية] فى النظام الديمقراطى ، فإن هذا يعنى أن المجموعة كثيرة العدد تتولى الحكم ، وتنال أغراضها ورغباتها بقوة الحكومة ، كما أن المجموعة قليلة العدد تصبح مستبعدة وتضحي برغباتها ومصالحها فى سبيل رغبات ومصالح الأغلبية ، وهذا هو ما يطلق عليه : استبداد الأغلبية .. وهو أعمق حرج وأسوأ علامة على وجه ديمقراطيات هذا الزمان ... ويمكن لمبادئ حكومة الأغلبية أن تكون فى مكانها الصحيح حين يتم الاتفاق أصلا على الأمور الأساسية للمواطنين ، وأن يكون الاختلاف بينهم اختلافا فى الآراء فقط ، وليس فى المصالح ، ومن الممكن فى مثل هذا النظام أن تصبح أقلية اليوم هى أغلبية الغد ، وأن تصبح أكثرية اليوم أقلية الغد ... ولكن اختلاف الأهداف .. أو الأصول الدينية ، أو العواطف القومية ، أو اختلاف أسلوب الحياة وغيرها من مثل هذه الأمور لا يمكن أن تنتهى عن طريق الدلائل أو الاستنتاجات ، ومن هنا فإن المجموعة التى تشكل الأغلبية سوف تظل دائما هكذا ... فمن الخطأ ، إذن ، أن نطلق على هذا الشيء اسم : الديمقراطية ، ويجب أن نطلق عليه اسم : البربرية^(٩٨)...! إن عزيمتنا القومية لا تزداد ولا تنضج فى ظل هذا النظام ، بل هى تختنق وتعتصر للنهية ، وتقتلع جذورها ، ففى هذا النظام نحن قلة فى العدد ، وهذا النظام يعطى ما عنده لمن هم كثرة فى العدد ... إن القوة جميعها سوف تتحرك لتستقر فى أيدي الآخرين ... وهم سوف يسحقون وجودنا بقوة وبشدة ١٩ ..»^(٩٩)

هكذا وضحت مواقف الرجل الفكرية كل الوضوح .. وظهر جليا ، من خلال هذه النصوص ، التى تعمدنا الافاضة فى ايرادها لكيلا تكون هناك حجة لمن يجتزئون النصوص ١٩ .. ظهر جليا أن الرجل لم يكن عدوا « للقومية » ولا « للديمقراطية » ..

● فهو قد رفض « القومية السياسية الواحدة » لكل الهند .. لأنها كانت تعنى سحق

(٩٧) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ١٠٨ .

(٩٨) [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٩٩) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ١٠٩ .

الأغلبية الهندوكية للقومية الحضارية والثقافية للأقلية المسلمة ... فموقفه هذا كان دفاعاً عن « القومية » الحققة .. وليس عداً « للقومية » ... ثم هو قد قدم لهذه العضلة حلاً قومياً ، نابعا من تعدد القوميات في شبه القارة الهندية ...!

● وهو قد رفض مؤسسة الدولة الديمقراطية ، القائمة على حكم الأغلبية ، لا رفضاً منه للديمقراطية ، بل لأنها — في ظروف الهند — حيث تتعدد القوميات — ستؤدي إلى دوام الحكم بيد الأغلبية الهندوكية ، واستبعاد الأقلية المسلمة عنه دائماً ، لدوام ارتباط الأغلبية بالأصول الحضارية القومية .. وهذا الموقف هو رفض لتوظيف المؤسسات الديمقراطية في غير موضعها ، وليس رفضاً للديمقراطية ، فهو نفسه يقول : « إنه لا يمكن لعاقل أن يعارض الديمقراطية » ؟! ..

● ونظريته في الحاكمية الإلهية لا تنفى انخيازه للديمقراطية ... فالحاكمية ، بمعنى السلطة المطلقة .. سلطة الفعال لما يريد .. الذى لا يُسأل عما يفعل .. ليست مما يدعيه البشر ... ونطاق التشريع الإلهي القطعى محدود ، وأغلبه كليات وقواعد عامة ... أما ما عداه فاختصاص « الحاكمية البشرية » الحكومة بهذه الكليات وبروح الشريعة العام — التى هى فكرية الأمة ومعياري الخير والشر والصواب والخطأ في حياتها — ... والأمة ، عن طريق نوابها وممثليها ، هى التى تمارس هذه « الحاكمية البشرية » .. فهى إذن — هذه الحاكمية — ديمقراطية في الجوهر والمضمون والأساس ...

هكذا انجل الغموض الذى أحاط بفكر الأستاذ المودودي السياسى ... وهو الغموض الذى ، علم الله ، كم دفع أناساً بعيداً عن جادة الصواب ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟!

وهكذا اكتمل عرضنا لفكره — فكر [الجماعة الإسلامية] بالهند وباكستان — الذى مثل مجابهة هذه الفصيلة من فصائل « الصحوة الإسلامية » « للتحدى الحضارى » ، الذى فرض على الاسلام والمسلمين ، بشقيه : « التخلف الموروث » — أو « الجاهلية القديمة » ، بتعبير المودودي .. و« التقدم الأوربي التغريبي الوافد » — أو « الجاهلية الحديثة » ، كما سماها الرجل أيضاً

أداة البحث :

ولإنجاز هذه المهمة الحضارية التاريخية .. مهمة « البعث الإسلامى الجديد » ، الذى يخلص الاسلام من « الجاهلية » ويعيد « المجتمع » إلى الاسلام ، الذى « ارتد » عنه ، ثم

الانطلاق بالإسلام إلى كل أرجاء الأرض لتحطيم الطواغيت والحكومات التي تحول بين شعوبها وبين النظر الحر والاختيار — المتخلص من الضغوط — في دين الله ... لإنجاز هذه المهمة — التي حددها الأستاذ المودودي لدعوته — كان لابد للرجل وأن يفكر في « الأداة » القادرة على إنجاز هذا الهدف الخطير والعظيم ...

لقد رأى أنه أمام « جاهلية » ، كما كان الاسلام يواجه الجاهلية عندما أوحى به الله إلى محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ... ولقد بدأ الرسول مواجهة الجاهلية بتكوين الجماعة المؤمنة ، التي تجسدت فيها العقيدة الجديدة ، حتى أصبح الفكر حركة تسعى لمحو الشرك والجاهلية لتقيم بناء الدين الجديد ، مجتمعاً تتجسد فيه العقيدة الجديدة .. فكان سعى الأستاذ المودودي — ونموذج الاسلام الأول والمسلمين الأوائل ماثل في ذهنه — كان سعيه ، منذ أن بلور فكره السياسي ، بين [١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م] و [١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م] ، لتكوين [الجماعة الإسلامية] بين المسلمين الهنود ...

لقد كتب المودودي عن « النموذج » النبوي الذي استرشد به ، في إقامة أداة البعث : التنظيم .. فقال : « علينا أن ندرس الأسلوب التنظيمي لرسول الله ، ﷺ ، فلو شئنا أن يكون للأمة الإسلامية تنظيم سليم فليكن على نفس النهج المحمدي . أقام الرسول ، ﷺ ، المجتمع الإسلامي على أساس انتقائه أولاً لأولئك الناس الذين يتسمون — بطبيعتهم وفطرتهم — بالصدق الخالص ، ويميلون بطبعهم إلى الحياة الطاهرة . ثم قام باستخدام أحسن وسائل التعليم والتربية ، فأصلحهم فرداً فرداً ، ووضع في قلب كل فرد هدفاً سامياً في الحياة ، وجعل من شخصية كل فرد شخصية قوية متينة حتى التف هؤلاء الأفراد وتجمعوا حول هذا الهدف السامي ، ولم يعد هناك خوف من أية قوة مهما كانت ، ولم يعد الطمع في أية فائدة أو الخوف من أى ضرر بقادر على أن يزعزعهم عن هذا الهدف ... » (١٠٠).

هكذا تكونت كتيبة السابقين إلى الاسلام ... وعلى هذا النحو سعى المودودي إلى تكوين الطليعة الساعية للبعث الاسلامي الجديد ..

كان المطلوب : « كتيبة مناضلة » تسعى لتحقيق : الانقلاب الاسلامي ، وبالثورة القادرة على مواجهة التحدى ، في كل ميادينه ... ولم يكن المطلوب مجرد « حلقة إسلامية » تلنف حول « مجتهد جديد » ١٩ .. فالمودودي قد أبدع في دراسته لتطور التجديد الاسلامي في كتابه [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] الذي كتبه [سنة ١٣٥٩ هـ سنة ١٩٤٠ م] إحياء للذكرى المجدد الهندي ولي الله الدهلوي [١١١٠ - ١١٧٦ هـ

(١٠٠) [المسلمون والصراع السياسي الراهن] ص ٦٨ .

١٦٩٩ - ١٧٦٢ م] .. وفي هذا الكتاب قيم إيجابية المجددين ، وألقى الضوء على جوانب القصور في حركاتهم التجديدية ، فكانت أبرز نواحي هذا القصور - في رأيه - أن الجهد الفكري التجديدي لم يتحول إلى « حركة سياسية ، تحدث الانقلاب في نظام الحكم ، وتنتقل مقاليد الحكم بواسطتها من أيدي الجاهلية إلى أيدي الاسلام ..! »^(١٠١) ... ولقد وقف أمام تجديد ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ - ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] فرآه أعظم من الذين سبقوه ، بمن فيهم الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١ م] - فلقد شابت تجديدات الغزالي شوائب من جاهلية عصره - كالتصوف والفلسفة - إلى جانب ضعفه في « علم الحديث » .. أما ابن تيمية ، فكان تجديده تخلصا للإسلام من الجاهلية كي يعود خالصا من جديد .. فهو :

• أولا : قد انتقد المنطق والفلسفة اليونانية انتقادا أشد وأدق مما فعله الغزالي ..
وثانيا : أقام من الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الاسلام وأحكامه وقوانينه ما كان يفوق أدلة الغزالي سوغانا إلى العقل وأحوى منها لروح الاسلام ..
وثالثا : لم يكتفى برفع النكير على التقليد الجامد فحسب ، بل ضرب المثال بمزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى ..

ورابعا : جاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق جهادا عنيفا ، ولاقى في سبيل ذلك أعظم المصائب ! .. »^(١٠٢)

وهذا الإعجاب الذي منحه المودودي لاجتهاد ابن تيمية وتجديده ، يلقي الضوء على النموذج الذي كان يفكر فيه ويسعى هو إليه .. خصوصا إذا علمنا أنه قد كتب كتابه الذي عرض فيه لقضية التجديد هذه وهو يسعى لتكوين [الجماعة الاسلامية] ، في الوقت الذي بلور فيه معالم فكره السياسي الذي رآه السبيل لتجديد دنيا المسلمين عن طريق تجديد دينهم ... فلقد أراد :

- تجديدا ، يتجاوز « الفكر » إلى « النضال » ، لوضع هذا « الفكر » في « التطبيق » ...
- تجديدا لا يهادن الجاهلية ولا يسالمها .. ولا يأتي بخلط جديد بين الاسلام والجاهلية الغربية الحديثة .. بل يسعى إلى « تنقية الاسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية .. وإلى العمل على إحيائه خالصا محضا على قدر الامكان » ..

(١٠١) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٧٩ .

(١٠٢) المرجع السابق . ص ٧٦ - ٧٨ .

● تجديدًا يحیی ويبعث « العقلية الاسلامية » — كنمط في التفكير والنظر للكون والمجتمع — من جديد ..

● تجديدًا يتجاوز علوم الدين إلى شئون الدنيا وعلومها وفنونها .. باستخلاص کلیات الدين ، والنظر إلى مستحدثات العصر في إطارها وضوئها .. وإعادة النظر في ملامح التمدن الاسلامی القديم ، لتكتمل للمجتمع المسلم أدوات الرق ، بالشریعة المتطورة الراقية .. « فالاجتهاد في الدين یعنی : أن يفهم المجدد کلیات الدين ، ويتبين اتجاه الأوضاع المدنية والرق العمرانی في عصره ، ويرسم طريقًا لإدخال التغير والتعديل على صورة التمدن القديم المتوارثة ، یضمن للشریعة روحها وتحقیق مقاصدها ، ویمكن الاسلام من الامامة العالمية في رقی المدنية الصحيح ... »

● ثم الانطلاق بهذه « الثورة الثقافية الاسلامية » ، بواسطة « الجهاد الاسلامی » ، من « القطر الواحد » .. إلى « الأقطار الاسلامية » .. إلى العالم كله .. « ليتولى الإسلام إمامة العالم ورئاسته في الأخلاق والأفكار والسیاسة !.. »^(١٠٣)

وتلك مهام لا يستطيع النهوض بها أو الوفاء بمطالباتها مجتهد تقف جهوده عند حلقة علمية .. أو كاتب يقف لإجتهاده عند التألیف والنشر لاجتهاداته على الناس : فالمطلوب هو : تجديد یخلص الاسلام من الجاهلية القديمة .. واجتهاد یبدع للحاضر والمستقبل على هدى من الكتاب والسنة « دون تقيد بمآثر أحد بعينه من المجتهدین الماضین ، أو المحصار في طريقه ومنهجه دون غيره » ، ودون رفض لكل مآثر الماضین ومنهجهم^(١٠٤) ... ثم تجسيد هذا الاسلام الخالص في « تنظيم » ، ليتحول « بنضال » هذا « التنظيم » إلى مجتمع إسلامی جدید ، نبیه على أنقاض المجتمعات « الجاهلية — المرتدة » المعاصرة !..

ف [الجماعة الاسلامية] — وليس المجتهد الفرد .. ولا الأفراد الذين ینقصهم التنظيم — هی السبیل الوحيد لحمل هذه الأمانة الكبرى ... بل لقد رآها المودودی : السبیل لتحقيق فكرة خلافة الانسان عن الله في الأرض !؟ .. « لأن نظام الاستخلاف في الأرض لا یمكن أن يتغير ویبتدل بمجرد وجود فرد صالح أو أفراد صالحین مششتین في الدنيا ، ولو كانوا في ذات أنفسهم من أولیاء الله تعالى ، بل ومن أنبیائه ورسله . إن الله لم یقطع ما قطع من المواعید لأفراد متفرقین مششتین ، وإنما قطعها لجماعة بمنسقة متمتعة بحسن الإدارة والنظام ، قد أثبتت نفسها — فعلا — أمة وسطا ، أو خیر أمة في الأرض ... إن نظام الإمامة لن یحدث فيه أى تغییر ولا انقلاب .. إلا بكفاح ونضال هذه

(١٠٣) المرجع السابق . ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١٢١ .

(١٠٤) المرجع السابق . ص ١٢٢ .

الفتنة المؤلفة — وتضحياتها — ضد كل قوى الكفر والفسق .. فى كل حلبة من حلبات الحياة .. نضالا يثبت جدارتها بالاضطلاع بأعباء الإمامة فى الأرض ... ذلك شرط لم يستثن منه حتى الأنبياء والرسل ، عليهم الصلاة والسلام . فأنى لأحد اليوم أن يتمنى على ربه أن يستثنيه منه !؟» (١٠٥)

وهذه [الجماعة الاسلامية] ، التى تقدمت تحمل أمانة تخليص الاسلام من الجاهلية ، والسعى ، بالنضال ، لإحلاله محل الفكر الجاهلى ونظمه الجاهلية .. عليها أن تحذر « التماس الوسائل لمسألة الجاهلية » (١٠٦) !... بل إن عليها أن تتحدى المجتمع الجاهلى ، فتميز عنه ، وتستعلى عليه ، وتتصدى له .. ولو كلفها ذلك روابط تقطعها ، ومصالح تضحي بها ، وتضحيات وآلام تتحملها ، بل وتسعى إليها !... إنها « الحرب » .. يدعو المودودى أعضاء الجماعة إلى خوضها ، فيقول : « عليكم أن تدخلوا فى حرب مع أهل بيوتكم وأقربائكم وأصدقائكم وبيئتهم التى ترتبطون بها ، لا بمعنى أن تصارعوهم أو تسابوهم أو تناظروهم ، وإنما بمعنى أن تكونوا — على انفرادكم وفى حياتكم الجماعية — بالغين من ولوعكم بغايتكم والتزامكم بمبادئكم وضوابطكم حيث لا يصبر على حياتكم ، المتقيدة بالمبدأ ، الذين يقضون حياتهم فى الدنيا بدون ما غاية ولا هم كالبهايم !. ويقوم أزواجكم وأولادكم وآباؤكم وأمهاتكم وأقرباؤكم وأصدقاؤكم احتجاجا على سلوككم ، حتى تصبحوا كالأجانب بين ذويكم وفى دياركم ، وتكونوا كالقذى فى عين الناس ، أو كالغصه فى حلقهم حيث يعملون لكسب معاشكم ، ويعود كرسى المكتب ، الذى يحلم الناس بالترقى عليه ، والترقيات والمناصب والجاه ، كالوقد الملىء جمرا بالنسبة لكم !... يجب أن تبادروا إلى الحرب مع كل واحد من الناس على قدر قربه منكم .. » (١٠٧)

فالأمر عظيم .. والتغيير المبتغى جذرى وشامل .. والخصم متحكم ، وقوى ، وعنيد .. وهو يواجه الاسلام والمسلمين من الداخل ومن الخارج ... فلا بد من هذه [الجماعة الاسلامية] المناضلة .. ولا بد لهذه الجماعة من « الأمير » المطاع !؟....

فطاعة « الأمير » — حاليا — كطاعة الرسول ﷺ ، فى صحابته وفى الجماعة الاسلامية الأولى .. لأن الأمير يأتى بعد الرسول .. والله سبحانه وتعالى قد طلب إلى المؤمنين أن يقدموا طاعة الرسول على مصالحهم وآرائهم وشقونهم الخاصة ، عند التعارض ﴿ وإما

(١٠٥) [الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية] ص ٤٠ .

(١٠٦) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٤٣ .

(١٠٧) [تذكرة دعاة الاسلام] ص ٣٤ ، ٣٥ . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧هـ سنة ١٩٧٧ م .

المؤمنون الذي آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم ﴿١٠٨﴾ ... « أى أن الرسول — وأمير الجماعة بعد الرسول — له أن يأذن أو لا يأذن ، حتى بعد بيانكم له حاجتكم . فإن رأى الرسول — أو الأمير بعده — أن الحاجة الاجتماعية أشد وأهم من حاجتكم الفردية ، فمن حقه أن لا يأذن لكم ، وليس لكم إذن أن تشكوه أو تسيئوا به الظن ! .. » (١٠٩) ..

« ذلك أن طاعة عامة أفراد الجماعة لأمرهم ، في المعروف — من الوجهة الدينية الخالصة — جزء من طاعتهم لله ورسوله ... فعلى عضو الجماعة أن يكون مبادرا إلى السمع والطاعة لأمره — فيما هو مشروع — على قدر ما يكون على اتصال بالله ورسوله ، وسيكون تقصيره في السمع والطاعة لأمره على قدر ما يكون مقصرا في اتصاله بالله ورسوله ! .. » (١١٠)

وهذه [الجماعة الاسلامية] المناضلة ، تحت إمرة أميرها المطاع .. ليس مطلوبا منها — قبل إحداث الانقلاب والقبض على زمام السلطة — أن تقدم تفاصيل « برنامجها » المحدد لجزئيات البديل الذى تدعو إليه ... إنها تدعو الناس إلى الإسلام .. وتقدم « الملاح العامة » للبديل الاسلامى .. أما التفاصيل و« البرامج » فـ « الأوراق » ، وإنما « الواقع » ، عندما تمتلك الجماعة مؤهلات تغييره ... « إن الناس عندما يطالبوننا بصياغة للعمل واضحة .. يحسبون أن موضع العمل هو القرطاس ! .. مع أن العمل إنما يكون على الأرض .. إن غاية ما يمكن من العمل على وجه القرطاس ، هو أن نوضح ما فى النظام الحاضر من مفساد ومضار ووبلات ، ونثبت المعقولة والصحة فى المقترحات التى نقدمها .. على وجه يجعل الناس يتصورون ، بوجه عام : كيف يمكن القضاء تماما على مافى النظام القديم من المفساد والمستقبحات ؟ وكيف يمكن تنفيذ المقترحات الجديدة مكانها ؟ .. أما الصورة الشاملة .. والمراحل الجزئية ، وحلول كل مرحلة .. فهى ممالا يمكن معرفته سلفا ، ولا الاجابة فيه بجواب قاطع .. » (١١١)

وإذا كانت هذه هى الأداة .. أداة « البعث الاسلامى الجديد » : الفئة المنتقاة المتخلقة بخلق « الاسلام المناضل » ، والمنظمة فى [الجماعة الاسلامية] تحت قيادة أميرها المطاع ..

(١٠٨) التور : ٦٢ .

(١٠٩) [تفسير سورة التور] ص ٢٢٧ . طبعة القاهرة . توزيع دار المسلم — بدون تاريخ — .

(١١٠) [تذكرة دعاة الاسلام] ص ٧٣ .

(١١١) [الربا] ص ١٢١ ، ١٢٢ . تعريب . محمد عاسم الحداد . طبعة القاهرة — دار الأنصار — بدون تاريخ .

وهي الجماعة التي تأسست وانتخب المودودي أميرا لها في [٣ شعبان سنة ١٣٦٠ هـ
٢٦ أغسطس سنة ١٩٤١ م] .. فماذا عن « أسلوب » هذه الجماعة لتحقيق « البعث
الاسلامى » ؟؟ ..

هل هو « الثورة » و« الانقلاب » ؟ .. أم « الإصلاح » و« التغيير الإصلاحي » ؟؟
إن بعضا من دارسى دعوة المودودي ، يرون أن حديث المودودي عن « الانقلاب
الاسلامى » — وله كتاب عنوانه [منهاج الانقلاب الاسلامى] — لا يعنى أنه كان
« ثوريا » ، ولا حتى « انقلابيا » بالمعنى الشائع ، أى الهيمنة على السلطة والعمل
بوسائلها .. فاستخدامه لتعبير « الانقلاب » لم يكن موفقا ، والأجدر بالتعبير عن وسيلته
مصطلح « التحول » .. فتركيزه إنما كان على التعليم والدعوة .. « (١١٢)

وبعض من رفاق المودودي ، الذين عملوا معه ، يذهبون هذا المذهب ، ويرون أنه
كان « يرفض ما يسمى بالأساليب الثورية ، ويؤكد أنه من الممكن تحقيق البعث الاسلامى من
خلال تكتيك آخر ... أكثر تعقلا وأكثر ترويا ، تتم فيه دراسة النظام السائد بهدف
استكشاف ما هو بغض فيه ، ومن ثم فهو يستحق التغيير ، وما هو صحى ، ومن ثم فهو
يستحق الحفاظ عليه .. » (١١٣)

ورغم تقديرنا لوجهة النظر هذه ، فإننا نعتقد بأن المهمة التى نهض لها الأستاذ
المودودي ، ماكان يمكن لواع بخطر أعدائها — ولقد كان الرجل واعيا بذلك كل
الوعى — أن يظن أو يتوهم إمكانية إنجازها بدون التغيير الجذرى والشامل ، أى الانقلاب ..
وهو مالا سبيل إليه إلا « الثورة » ! ..

ثم إننا نميل إلى التمييز ، فى مراحل دعوة الأستاذ المودودي ، بين المرحلة المبكرة —
والتي نعتقد أنه كان فيها داعيا للثورة — وبين المرحلة المتأخرة ، بعد قيام باكستان ، وهي
التي مال فيها إلى الطريق الإصلاحي ، سبيلا للتغيير الشامل الذى لم يتخل عنه أبدا ...
ففى المرحلة الأولى .. مرحلة المواجهة مع الانجليز والهنداكة .. كان يدعو إلى « خلق

(١١٢) جمال البنا [الدعوات الاسلامية المعاصرة] ص ١٦٠ . طبعة القاهرة .

(١١٣) د . خورشيد أحمد [نموذج المودودي للبعث الاسلامى] دراسة بمجلة [السلم المعاصر] ص ١٢ . عدد ٣١ —
رجب — شعبان — رمضان سنة ١٤٠٢ هـ .

العقلية الثورية والفكر الثورى » ، وإن يكن بالتدرج ! .. ويقول : إنه « من الواجب مراعاة التدرج من أجل خلق العقلية الثورية والفكر الثورى . إن تقديم الغذاء الزائد عن الحد يحمل الضرر للناس ، كما أن إعطاء الانسان غذاء أقل من حاجته يحمل أيضا نتائج سيئة .. » (١١٤)

وفى تلك المرحلة لم يكن يخفى عدم جدوى « التدابير القانونية » فى الإصلاح .. إذ لابد من « الأسلوب الثورى » ... « إنه لا وسيلة أمامنا سوى اتباع الأسلوب الثورى ، وذلك نتيجة لما وصلت إليه الظروف ... ولا مجال الآن لنجاح التدابير القانونية ... فليس أمامنا الآن سوى التضحية بالروح والمال لتغيير مسار الأحداث ... وطالما لا يمكن أن نوضح سلوكنا وعملنا أن المسلمين لديهم القوة والشجاعة لأن يموتوا من أجل حياتهم القومية ، فلن تتغير أية كلمة فى الدستور عن مكانها ، ولن تتراجع سيطرة الدولة القومية الجمهورية [الديمقراطية] العلمانية علينا ... فلو أراد المسلمون الحياة ، فيجب أن يكونوا — وخاصة الشباب منهم — على استعداد لتقديم دمائهم الزكية رخيصة فى سبيل الحياة ! .. » (١١٥)

وعندما عرض المودودى — فى تلك الفترة — لموقف الاسلام من « مشروعية الثورة » على أولى الأمر من الحكام ، نهج « نهجا ثوريا » فى تفسيره للأحداث النبوية التى رويت فى هذا الموضوع ..

ففى [صحيح مسلم] عن الرسول ، ﷺ : « يكون عليكم أمراء تعرفون وتكرهون ، فمن أنكر فقد برىء ، ومن كره فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع ؟ » فقالوا — [أى الصحابة] — : « أفلا نقاتلهم !؟ » فقال ﷺ : « لا ، ما صلوا ! .. »

وفى [صحيح مسلم ، أيضا ، قول الرسول ، ﷺ : « شرار أئمتكم : الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » .. قلنا — [أى الصحابة] — : « يارسول الله ، أفلا نناذبهم عن ذلك !؟ » قال : لا ، مأقاموا الصلاة .. لا ، مأقاموا الصلاة ! .. »

فلما عرض المودودى لتفسير هذين الحديثين قال : « .. وقد يظن من الحديث الأخير أو ما قبله أن ولى الأمر إذا أدى الصلاة فى حياته الفردية الخاصة فلا تجوز الثورة عليه ، لكن المراد بإقامة الصلاة فى الحقيقة هو إقامة نظام الصلاة فى حياة المسلمين الجماعية ، فلا يكفى أولوا الأمر أن يكونوا مصلين ، وإنما يتحتم عليهم ، إلى جانب هذا ، أن ينظموا إقامة

(١١٤) [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ١٤ .

(١١٥) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

الصلاة ، ويجعلونها قاعدة في نظام حكمهم ، لأنها الدليل على أن حكومتهم حكومة إسلامية ، وإلا فقد انحرفت عن قالب الحكومة الإسلامية . وهذا ما يتضح من رواية أخرى تقول : إن الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، قد عاهدنا — من جملة ما عاهدنا به — أن لا ننازع الأمر أهله .. « إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان »^(١١٦) .. «^(١١٧)»

ثم .. هل يتصور لفكر ولرجل يرى أن المجتمع قد ارتد عن الاسلام الحقيقي ، وعاد إلى الجاهلية .. وهو يسعى لمجابهة الكفر والجاهلية ، إلا أن يكون ثوريا ؟ .. وهل بالاستطاعة تحليل اعتقاد المودودي بإمكانية اقتلاع الجاهلية التي تعشش في المجتمع منذ عهد عثمان بن عفان ، والتي زادت الجاهلية الحضارة الغربية دعما وخطرا .. إمكانية اقتلاعها « من خلال تكتيك غير ثوري » ؟ ..

صحيح أن المودودي قد تحدث في كتابات كثيرة عن أن « التغيير ليس له من سبيل ، في نظام ديمقراطي ، إلا الخوض في معارك الانتخابات . وذلك بأن نرى الرأي العام في البلاد ونغير مقياس الناس في انتخابهم لممثلهم ، ونصلح طرق الانتخاب ونطهرها من اللصوصية والغش والتزوير ، ثم نسلم مقاليد الحكم إلى رجال صالحين يحبون أن ينهضوا بنظام البلاد على أسس الإسلام الخالص .. »^(١١٨)

لكن هذه الكتابات هي فكر المودودي في مرحلة ما بعد قيام باكستان .. المرحلة التي استقلت فيها القومية الإسلامية ، ولم يعد المسلمون فيها أقلية تخشى السيطرة الساحقة للأغلبية الهندوكية .. أما في المرحلة الأولى ، فلم يكن الانتخاب ولا السبيل الديمقراطي هو طريق المودودي للتغيير ، لأنه كان رافضا للديمقراطية ، بسبب من خطر تكريسها سيطرة الهندوك المهددة لقومية المسلمين بالتشويه والذبول والزوال ... فعندما لم تعد الديمقراطية خطرا على المقومات القومية للمسلمين نهج المودودي نهجا ديمقراطيا إلى التغيير .. أما في المرحلة الأولى فلقد كان ثوريا ! ..

ومن الكتابات التي تعكس النهج الاصلاحى ، الذى تحول إليه المودودى ، في مرحلته الأخيرة ، وتصور هذا « المزاج غير الثورى » ، تلك الرسالة التى كتبها أثناء سجنه بالسجن المركزى الجديد بملتان ، إلى السيد تشودهري غلام — [في رجب سنة ١٣٦٩هـ ٦ إبريل سنة ١٩٥٠] — والتي يقول فيها :

(١١٦) رواه البخارى ومسلم .

(١١٧) [الحكومة الإسلامية] ص ٧٥ ، ٧٦ .

(١١٨) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٨٨ .

« إن » مزاج « الإسلام يختلف عن أمزجة الحركات الثورية في العصر الحاضر ... فالاسلام حين يصل إلى مرحلة النجاح (أى الحكم) فإنه يتبع سياسة العفو بدلا من الانتقام والعنف والشدة والقهر والغدر الذى تتبعها الحركات الثورية المعاصرة ... وسياسة الاسلام في سبيل تغيير النظام الفاسد السابق ، وإحلال برنامج اصلاحي بدلا منه ، هى سياسة تتصف بالليونة والهدوء والتدرج وعدم العنف ، وإنقاذ الحياة الانسانية ، بقدر الامكان ، من التغييرات المفاجئة والطارئة ... لكن ، ليس معنى هذا الامتناع عن رفع المظالم الصريحة الثابتة التى تسود نظامنا الاقتصادى والاجتماعى ... » (١١٩)

لقد كان قيام الوطن المستقل لمسلمى الهند — باكستان — حدثا جلالا في حياة المودودى .. تخيل به أن « الحلم » قد أصبح « واقعا » .. فبدأ مرحلة الخنو على هذا « الحلم — الوليد » .. ولقد كان يسميها : « بيت الاسلام ! » .. وكتب عنها يقول : « إننى لا أعتبر هذه البلاد بلادنا ، بل هى بيت الاسلام . لقد واثنا الفرصة لأول مرة ، بعد قرون لنقيم دين الله في صورته الحقيقية ، ونقدم للعالم أجمع المثال العملى لفلاح هذا الدين ونجاحه . إنها نعمة كبيرة أنعم الله بها علينا ، ويجب علينا أن نصونها ونحافظ عليها بشتى الطرق وبأى ثمن . إننى أتمنى أن يشعر كل باكستانى بعاطفة تجاه هذه النعمة ، وأن يقدرها حق قدرها ، وأن يحفظها في قلبه وروحه ، وأن يشعر أنه لا توجد أية تضحية أعظم وأعلى من الحفاظ على هذه النعمة .

وعليك أن تتذكر دائما أن تقديم الروح رخيصة من أجل الحفاظ على دين الله أعلى مرتبة وأعظم من تقديم الروح من أجل الحفاظ على الثروة أو العزة أو الكرامة ، وأن الاستشهاد تحت هذه العاطفة استشهاد له أعلى الدرجات عند رب العالمين ... » (١٢٠)

° ° °

لكن الرياح لم تجر في باكستان بما أراد الذين حلموا بها ، وناضلوا حتى أصبح الحلم « حقيقة جغرافية » ...!

لقد قامت باكستان في ١١ شوال سنة ١٣٦٦ هـ ٢٨ أغسطس سنة ١٩٤٧ م ... وبعد عام من ذلك التاريخ اعتقلت حكومتها المودودى — [في ٤ أكتوبر سنة ١٩٤٨ م — ذو القعدة سنة ١٣٦٧ هـ] .. ولم يكن الرجل قد اعتقل من قبل ، لا من قبل الهنادكة ولا من قبل الانجليز ١٩ .. لقد قامت « باكستان الوطن » ، لكن الشريعة الاسلامية ، فيها ،

ظلت مطلباً يناضل من أجله المودودي وجماعته الإسلامية .. واستمر نضال الرجل ، وتكرر سجنه واعتقاله نحو خمس مرات ، قضى خلالها بالسجن قرابة الخمس سنوات ، حكم عليه في إحداها بالاعدام ١٩ ...

لكن نضاله من أجل باكستان : « بيت الاسلام » .. ومن أجل « البعث الاسلامي » العالمي ، استمر دون كلل أو هوادة أو لين ... وحتى عندما اعتلت صحته ، فاستغفى من إمارة [الجماعة الإسلامية] — [في رمضان سنة ١٣٩٢ هـ أول نوفمبر سنة ١٩٧٢ م] — عكف على استكمال مؤلفاته ، التي بلغت سبعين كتاباً ورسالة ... فأكمل تفسيره للقرآن الكريم .. وشرع في كتابة سيرة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، فأكمل منها مجلدين ، قبل أن ينتقل إلى جوار ربه في آخر شوال سنة ١٣٩٩ هـ — ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٧٩ م — . عليه رحمة الله .

الفصل الخامس

تـيـار

الرفض الكامل للواقع

في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٦٨ هـ [١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ م] استشهد الإمام حسن البنا ، المرشد العام لجماعة [الإخوان المسلمين] أبرز وأخطر وأوسع دعوات البعث الاسلامي الحديث وحركاته في القرن الرابع عشر الهجري — العشرين الميلادي — .. استشهد برصاص خصومه السياسيين : أحزاب الأقليات ، أعوان القصر الملكي ، وحلفاء الاستعمار .. وكان استشهاده في وضع النهار ، وفي واحد من أكثر شوارع القاهرة أهمية وحركة ١٩ ..

وكان العام الذي سبق اغتيال المرشد العام قد شهد عددا من حوادث العنف ، التي قامت بها « كتائب الإخوان » .. وتصاعد الصراع مع الحكومة ، فبلغ الذروة بقرار الحكومة حل الجماعة في ٦ صفر سنة ١٣٦٨ هـ ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ م .. فأعقبه — بعد عشرين يوما — اغتيال الإخوان لرئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا [١٣٠٥ — ١٣٦٨ هـ ١٨٨٨ — ١٩٤٨ م] فتصاعدت حملة القمع ضد [الإخوان] اعتقالا وسجنا وتعذيبا ...

فكانت المحنة الكبرى — الأولى — لجماعة [الإخوان المسلمين] ! التي تمثلت « ذروتها الحقيقية » في اغتيال المرشد العام .. ومنذ ذلك التاريخ دخلت دعوة [الإخوان] وحركتها في منعطف تاريخي جديد .. صحيح أن محنة الاعتقال والسجن والتعذيب قد انتهت بعودة [الوفد] — حزب الأغلبية — إلى الحكم في ٢٢ ربيع أول سنة ١٣٦٩ هـ ١٢ يناير سنة ١٩٥٠ م .. لكن « المحنة الحقيقية » قد استمرت .. محنة فقد الجماعة لإمامها الملهم ، وقيادتها التاريخية ، ومرشدها العام ! ..

لقد كانت إحدى سلبيات هذه الجماعة هي ذلك الفارق الكبير والمسافة الطويلة والمساحة الكبيرة بين القائد المرشد — وعيا ووضوح رؤية ، ومرونة حركة ، واتساع أفق ، وإدراكا لعظم الغاية ، ومن ثم الاصرار على « سياسة المراحل » ، الراضية للتعجل والمعجلة —

وبين رجالات « الصف الثاني » في الجماعة — دعك ممن خلف هذا الصف الثاني ١٩ — .. فلما افتقدت الجماعة « الربان » — والسفينة تكتنفها العواصف ، وتحيط بها ظلمات بعضها فوق بعض في بحر لُجِّي — فقدت مع « المرشد » كثيرا من « الرشد » الذي تمثل فيه ١٩ .. فدخلت بذلك الحدث المأساوى في منعطف جديد !..

وعندما كان شباب الجماعة يعذبون في السجون والمعتقلات [سنة ١٣٦٨ هـ سنة ١٩٤٩ م] ، ظهرت في فكر بعض هؤلاء الشباب — والطلاب منهم خاصة — ولأول مرة في تاريخ الاسلاميين بمصر — أفكار تتساءل عن « إسلام » المجتمع ١٩ وعن « إسلام » الأمة ١٩

إن الحكومة تعذبهم ، كما كان المشركون يعذبون الذين سبقوا إلى الاسلام !.. وليس لهم من ذنب إلا الدعوة إلى الاسلام ، دينا ودنيا ، عبادة وشريعة ، مصحفا وسيفا .. ﴿ وما نقوموا منهم إلا أن يُرْمَنُوا بالله العزيز الحميد ﴾^(١) !.. أما الأمة فلقد اتسم موقفها بالسلبية إزاء محنة الاسلاميين هذه ، للأحكام العرفية المعلنة منذ ٤ رجب سنة ١٣٦٧ هـ ١٣ مايو سنة ١٩٤٨ م .. ولأن هذه الأمة لا تميل ، بالطبع ، إلى العنف والارهاب حتى لقد صنعت أعظم ثوراتها بيضاء ، ولم تستسغ العنف والدم إلا في صراعها مع الغزاة ١٩ ..

فتحت وطأة « المحنة » التي تمارسها « الدولة » .. وأمام سلبية « الأمة » .. تساءل نفر من شباب [الإخوان] — وطلابها خاصة — :

● هل المسلمون هم : « جماعة المسلمين » ١٩ ..

● أم المسلمون هم : « جماعة الاخوان المسلمين » ١٩ ..

وكان هذا التساؤل ، الذي يطرح قضية « التكفير » وعودة المجتمع إلى « الجاهلية » ، جديدا ، بل وغريبا على مصر وعلى الفكر الاسلامى بها ... لكنه كان مطروقا ومتداولاً ، بواسطة الاستاذ أبو الأعلى المودودى [١٣٢١ — ١٣٩٩ هـ ١٩٠٣ — ١٩٧٩ م] وجماعته الاسلامية ، في الهند ، منذ عشر سنوات ... ومنذ ذلك التاريخ ، الذى أعقب غياب الشيخ حسن البنا ، بدأ فكر المودودى يجد طريقه إلى صفوف نفر من [الإخوان] .. ولعل البداية الحقيقية قد كانت تلك التى يحدثنها عنها أحد الإخوان ، فيقول : « فى سنة ١٩٤٩ م أرسلت ، من زنزانى رقم ٢٢ بسجن مصر ، خطابا إلى حلب ، طالبا من مكتبة الشباب المسلم مجموعة كاملة من رسائل أبو الأعلى المودودى ، لأقدم من خلالها دراسة عن فكر المودودى ، لأوقف عبث بعض الطلبة حينذاك . ووصلتنى ١٣ رسالة منها . وقد علمنا

(١) البروج : ٨ .

وتعلمنا أن لكل أرض مناخها ومناهجها وأساليبها . والاسلام واحد من لدن علم خبير ..» (٢)

لقد أُلقيت في أرض الاسلاميين بمصر ، وللمرة الأولى « بذرة » أفكار « التكفير » و « الجاهلية » .. صحيح أن الأغلبية قد رأت ، بعد دراسة فكر المودودي ، بالسجن ، أن فكره في هذه القضايا هو فكر سياسى ، يرتبط بظرف المجتمع الهندى ، ولا سبيل له ولا مجال في مصر ومماثلها .. فوحدة الاسلام الدين لا تنفى « أن لكل أرض مناخها ومناهجها وأساليبها » ١٩ .. لكن « البذرة » أُلقيت في التربة ، محاولة النمو بفعل ظروف « المحنة » التى نزلت بالاخوان ! .

والذين يتتبعون حركة « تأثير فكر » الأستاذ المودودي ، خارج المناخ الهندى ، ودخوله إلى الساحة المصرية والعربية ، لا يجدون لهذا الفكر أثرا يذكر إلا بعد غياب قيادة الشيخ حسن البنا .. ففى ظل الافتقار إلى القيادة الفكرية التى تملأ الفراغ الناجم عن استشهاد المرشد العام ، خلت الساحة لفكر أبرز قادة العمل الاسلامى في ذلك التاريخ : الأستاذ المودودي ! . ومنذ ذلك التاريخ ذاعت ترجمة فكره للعربية ، ونشر عدد من رسائله في القاهرة (٣) ..

وبعد قيام الثورة المصرية في أول ذى القعدة سنة ١٣٧١هـ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م انفتح باب العلاقة بين [الاخوان] والثورة ليفضى إلى « المحنة الثانية » ، والأكبر ، والتى لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجماعة على الإطلاق ... لم تحسن قيادة الجماعة تقدير الظروف التى كانت تحيط بمصر وبالثورة ، وافقدت « الرؤية التاريخية » التى كانت لحسن البنا .. ولم تبرأ من سلبية « العجلة والتعجل » ، التى طالما حذر منها المرشد العام الأول ... وكانت « للضباط الأحرار » الذين قادوا الثورة منطلقات فكرية ، ليست هى ، بالضبط ، منطلقات [الاخوان] ، ومن ثم كانت لهم توجهات ليس هى ، بالضبط ، توجهات [الاخوان] .. وكان الغرب والمتغربون من أحرص الناس على الصدام بين الثورة و [الاخوان] .. فبدأ الخلاف .. وتصاعد .. وحلت الجماعة في ٩ جمادى الأولى سنة ١٣٧٣هـ ١٤ يناير سنة ١٩٥٤م .. فلما حدثت محاولة اغتيال قائد الثورة جمال عبد الناصر [١٣٣٦ - ١٣٩٠هـ ١٩١٨ - ١٩٧٠م] بالاسكندرية في ٢٨ صفر سنة ١٣٧٤هـ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٤م دخل الاخوان المسلمون في محنة من السجن والاعتقال والتعذيب لم يسبق لها ، في تاريخ الاسلاميين ، مثيل ...

ولقد بدأت « بذرة » فكر الأستاذ المودودي ، عن « تكفير » المجتمع و « جاهليته »

(٢) انظر : غلاف كتاب [أبو الأعلى المودودي . فكره ودعوته] كلمة الناشر : سعد سيد أحمد .

(٣) في سنة ١٩٥٠م طبعت في القاهرة الترجمة العربية لكتاى المودودي [منهاج الانقلاب الاسلامى] و [نظرية الاسلام السياسية]

ولى سنة ١٩٥٣ طبعت رسائله [تدوين الدستور الاسلامى] ..

ترتوى من دماء « المحنة » ، وتنمو في مناخها ... واتسعت المساحة التي بدأت تعمم بفكر « الأزمة » المتوتر ، بدلا من « الفكر الطبيعي » ...! فتخلق في صفوف الجماعة ، من حول الأستاذ سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ - ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م] ذلك التيار الجديد .. تيار [الفصام الكامل مع الواقع]؟! الذى انطلق من فكر المودودى بل وتصاعد به أكثر وأكثر ..!

● لقد رأى المودودى فى « القومية السياسية الهندية » ، ذات الأغلبية الهندوكية : الخطر الذى سيقضى بـ « ديمقراطية الأغلبية الهندوكية » على ذاتية الاسلام والتميز الحضارى للمسلمين .. فرأى فى هذه القومية ، وفى ديمقراطيتها ، وفى سلطة جماهيرها عدوانا على « الحاكمية الالهية » .. فهى ، إذن ، « شرك » ، « يرتد » بالاجتماع إلى « الجاهلية » ..!

● ورأى سيد قطب فى « القومية العربية » ، التى قاد جمال عبد الناصر مدها ، وفى « ديمقراطيتها الموجهة » ، وفى سلطة الجماهير التى استقطبتها المشروع « القومى - الاجتماعى » الناصرى الخطر الساحق للإسلاميين المقيدين بالأصفاد ...! فحكم بعدوان هذا المشروع ، بكل مكوناته ، وجميع توجهاته على « الحاكمية الالهية » ، وقطع « بكفره » و« بجاهليته » ... ولما كانت « جماهير » الأمة و« وعامتها » قد استقطبت للمشروع الناصرى ، وأعطت ثقته لقيادة جمال عبد الناصر التاريخية .. فلقد خلعتها فكر هذا التيار عن « عرش الخلافة » والنيابة ، التى قررها الاسلام للإنسان والأمة ، عن الله سبحانه وتعالى ، لأنها قد « أشركت » فى « الحاكمية » غير الله ، فلم تعد - لارتدادها « بالكفر » إلى « الجاهلية » - قائمة بحق الخلافة ، متمتعة بشرفها ... وهنا كان تصاعد سيد قطب بفكر المودودى .. فالثانى حكم « بالكفر » و« الجاهلية » على « المجتمع » ، ولم يحكم بهما - صراحة وفى قطع - على « الأمة » .. أما سيد قطب فلقد حكم « بالكفر » و« الجاهلية » على « الأمة » و« المجتمع » جميعا؟! ..!

وبدلا من « خلافة » : « الجماعة : الأمة » ، قدم سيد قطب ، كبديل ، « خلافة » : « الجماعة : التنظيم » ، التى انفردت وتنفرد بالاسلام من دون الناس .. والتى عليها أن تبدأ من الصفر ، كما صنع الرسول عليه الصلاة والسلام ، و« جيل الصحابة الفريد » ..!

إن « خلافة الأمة عن الله » ، لم تكن تمنع قيام « الجماعة - الطليعة - المنظمة » ، للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾^(٤) .. ولكن هذه

(٤) آل عمران : ١٠٤ .

« الجماعة — الطليعة — المنظمة » كانت جزءاً من « الأمة المسلمة » ، أما والأمة — في فكر هذا التيار الجديد — قد « كفرت » وارتدت إلى « جاهلية أظلم » من الجاهلية التي عاصرها الإسلام الأول^(٥) .. فلقد انعدم الرباط الإيماني الذي يصل هذه « الجماعة — الطليعة — المنظمة » بـ « الأمة » ... فغدا « التنظيم الجديد » ، وحده : الأمة المسلمة ، بالانفصال عن الجاهلية والاستعلاء على الكفار ، والسعى — من نقطة الصفر — إلى بناء « العقيدة » ، وتجسيدها « بالحركة » في « الجماعة » ، التي عليها أن تقيم « المجتمع المسلم » ، وبفس النهج والخطوات التي تمت في « الحقبة المكية » من دعوة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، إلى الإسلام !..

ذلك هو « عنوان » الدعوة التي دعا إليها تيار [الفصام الكامل مع الواقع] ..

الحاكمية الإلهية :

لم يختلف موقف سيد قطب — في الجوهر — عن موقف المودودي في نظرية « الحاكمية » الإلهية ، فهي بمقتضى « لا إله إلا الله — كما يدركها العربي العارف بمبدولات لغته — : لا حاكمية إلا لله ، ولا شريعة إلا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله »^(٦) ... والحاكمية الإلهية عامة ، في الجانب « الإرادي » من حياة الإنسان ، كما هي في الجانب « الفطري » و« الوجودي » ، شاملة لما هو « دنيوي » ثموها لما هو « ديني » ، عامة فيما هو « سياسة » عمومها فيما هو « عبادة » ، وهي ، عند المسلم ، المعيار الموجه في « التطبيق » وفي « المعرفة والفكر والنظريات » على حد سواء .. فكما أن الحاكمية هي السائدة في « الكون » ، كذلك يجب أن تسود في « عالم الإنسان » .. فلقد جاء الإسلام .. ليرد الناس إلى حاكمية الله ، كشأن الكون كله ، الذي يحتوى الناس ، فيجب أن تكون السلطة التي تنظم حياتهم هي السلطة التي تنظم وجوده ...^(٧) ويجب « أن تعود حياة البشر ، بجمليتها ، إلى الله ، لا يقضون هم في أى شأن من شئوننا ، ولا في أى جانب من جوانبها ، من عند أنفسهم ، بل لابد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه .. »^(٨)

وحاكمية الله تتمثل في « شريعته » ، التي « تعنى كل ما شرعه لتنظيم الحياة البشرية ..

(٥) سيد قطب [معالم في الطريق] ص ٢١ . طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ . سنة ١٩٨٠ م .

(٦) المرجع السابق . ص ٢٩ .

(٧) المرجع السابق . ص ٥٣ .

(٨) المرجع السابق . ص ٥٥ .

وهذا يتمثل في : أصول الاعتقاد ، وأصول الحكم ، وأصول الأخلاق ، وأصول السلوك ، وأصول المعرفة أيضا .. «^(٩) ... فعموم « الشريعة » يبلغ الحد الذى يجعلها — فى نص سيد قطب هذا — شاملة « للعقيدة » أيضا ؟!..

وليس بمستساغ الخروج على « الشرع » — أى « الحاكمة » — بدعوى التعارض بين « الشرع » وبين « مصلحة البشر » .. « فمصلحة البشر مُتَضَمِّنَةٌ » فى شرع الله ... فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصالحهم فى مخالفة ما شرع الله لهم ، فهم :أولا : « واهمون » ... وهم — ثانيا : — « كافرون » .. فما يدعى أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفا لما شرع الله ، ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين ، ومن أهل هذا الدين !.. «^(١٠)

وإذا كان غير المؤمن بحاجة إلى أن يظهر له محاسن الشرع وحسناته ، فإن المؤمن لا حاجة له إلى شئ من ذلك .. فقبول الشرع هو « الاسلام » « ومن رغب فى الاسلام فقد فصل فى القضية ، ولم يعد بحاجة إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته .. فهذه إحدى بديهيات الايمان !.. »^(١١)

وعودة البشر إلى « الحاكمة الالهية » تعنى العودة إلى العقيدة ، التى تتجسد فى المجتمع ، الذى هو « دار الاسلام » .. وفى ذلك الرفض لرموز « الشرك » والخروج على « الحاكمة » من دعوات « قومية » و« وطنية » و« اجتماعية » .. الخ^(١٢)..

لكن اختصاص الله بالحكمة ، وشمول شرعه لكل أصول الفكر ، وتضمنه لجميع المصالح ، لا ينفى حق البشر فى « الاجتهاد » — بشروطه وفى ظل سيادة الحكمة — فيما لا نص فيه .. « فإذا كان هناك نص فالنص هو الحكم ، ولا اجتهاد مع النص . وإن لم يكن هناك نص ، فهنا يحى دور الاجتهاد — وفق أصوله المقررة فى منهج الله ذاته ، لا وفق الأهواء والرغبات »^(١٣) فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول ﷺ .. وليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه : هذا شرع الله ، إلا أن تكون الحكمة العليا لله معلنة ، وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه ، لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أى من البشر ، وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريد الله ... «^(١٤)

(٩) المرجع السابق . ص ١٣٦ .

(١٠) المرجع السابق . ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(١١) المرجع السابق . ص ٤٢ .

(١٢) المرجع السابق . ص ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(١٣) النساء : ٥٩ .

(١٤) [معالم فى الطريق] . ص ١٠٥ .

وكذلك .. فإن «الحاكمية الالهية» لا تعنى أن «الاجتهاد» هو مهمة فئة أو طبقة تماثل [الأكليروس] في المسيحية، و«الثيوقراطية» و«الحكم المقدس» في الحضارة الأوربية، قبل عصر نهضتها .. «فالسطة الدينية» في الاسلام هى «للنص الالهى»، لا «للإنسان»!.. فالتشريع بالاجتهاد «لا يمكن أن يكون لمن يدعى سلطانا باسم الله، كالذى عرفته أوربا ذات يوم باسم: «الثيوقراطية» أو «الحكم المقدس»، فليس شئ من هذا في الاسلام، وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله، ﷺ، وإنما هناك نصوص معينة هى التى تحدد ما شرع الله...^(١٥) ومملكة الله فى الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية فى الأرض رجال بأعيانهم — هم رجال الدين — كما كان الأمر فى السلطة الكنسية ... ولكن تقوم بأن تكون شريعة الله هى الحاكمية ...»^(١٦)

ذلك هو مفهوم سيد قطب «للكاكمية الالهية»: العبودية لله وحده، والتحرر من كل سلطة سوى السلطة الالهية، كما تحددت فى «الشريعة» الشاملة لكل مناحى الحياة .. وحيث لا نص فى الشريعة فالاجتهاد وارد، لكن مشروعيته مرهونة بسيادة نظرية الحاكمية وهيمنتها .. وهو حق لمن يفى بشروطه، ولا يكسب صاحبه قداسة تدخلنا فى إطار «الثيوقراطية الكنسية»!..

«ومفهوم «الحاكمية» هذا قد تابع فيه سيد قطب أثر المودودى .. وإن يكن — رغم اشارته للاجتهاد — قد أهمل ما ذكره المودودى من وجود «حاكمية بشرية مقيدة» فيما لانص فيه، وهو المجال الأوسع فى مساحة الشريعة — لتناهى النصوص وعدم تنهاى الحادثات — ولوقوف الشريعة عند الكليات، مع ضرب الأمثلة لتماذج التطبيق، وترك الجزئيات والتفاصيل للاجتهاد، وفق تغير المصالح بتغير الزمان والمكان — أهمل سيد قطب الحديث عن هذا الجانب الذى «يزن» صورة «الحاكمية» عندما يستكمل ملامح صورتها! — وإن كنا لا نعتقد أن الاستاذ سيد قطب كان ممن يمارى فى هذه البدئية الاسلامية — لكنه ركز أضواءه على جانب نزع السلطة من غير الله .. ربما لاعتقاده أن الظرف الذى كتب فيه قد مالت فيه الموازين ميلا شديدا، حتى لقد انفرد الطواغيت بالسلطة والسلطان جميعا من دون الله!؟..

لكن القضية التى نقلت سيد قطب خطوات أبعد مما بلغ المودودى بنظرية الحاكمية — وهى وثيقة الصلة — بملاحظتنا الأخيرة — هى تشخيصه للإسلام و«المسلمين» فى عصره، بل وفيما قبل عصره بقرون ..

(١٥) المرجع السابق . ص ١٠٥ .

(١٦) المرجع السابق . ص ٦٨ .

لقد كان حسن البنا يتحدث عن مصر التي « اندمجت بكليتها في الاسلام بكليته .. عقيدته ولغته وحضارته .. فمظاهر الاسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة في كثير من جوانب حياتها .. أسماؤها إسلامية ، ولغتها عربية ، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء .. وهذه المشاعر لا تهتز لشيء اهتزازها للإسلام وما يتصل بالاسلام ... »

وكانت دعوته متوجهة إلى تخليص هذا الاسلام مما شابه من موروث أضاف أو انتقص من الاسلام ، بالابتداع ، أو وافد غربي سعي ويسعى لاقتلاع الاسلام من حياة الأمة ، فأحدث بوجوده ثنائية في الفكر والسلوك^(١٧) ..

وكان المودودي — رغم ريادته — في العصر الحديث — الحديث عن « الحاكمية » و « التكفير » و « الجاهلية » — قد وقف عند القول « بارتداد » المجتمع ، دون « الأمة » ، ولذلك كانت « الديمقراطية » الانتخابات سبلا ، عنده ، للإصلاح المنشود .. فالأمة لم تكفر في نظره ، ومن ثم والاحتكام إليها سبيل لتخليص الاسلام من « الجاهلية » الموروثة ومن جاهلية التغريب^(١٨) ...

أما سيد قطب فلقد شخص حال الأمة فرآها قد دالت بحاكمية غير الله .. لا بمعنى أنها ركمت وسجدت لغير الله ، ولكن لأنها تلقت عن حاكمية الطواغيت « كل مقومات حياتها تقريبا » ؟ ومادامت قد أخذت « كل مقومات حياتها » عن الطواغيت ، فلقد « كفرت » بالاسلام كفرانا مبينا ؟ ..

يقول سيد قطب ، في الحديث عن المجتمعات الاسلامية المعاصرة : « يدخل في إطار المجتمع الجاهلي ، تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها انها « مسلمة » ! .

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الاطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله ، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضا ، ولكنها تدخل في هذا الاطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها ، فهي — وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله — تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله ، فتدين بحاكمية غير الله ، فتتلقى من هذه الحاكمية : نظامها ، وشرائعها ، وقيمها ، وموازينها ، وعاداتها وتقاليدها ، وكل مقومات حياتها تقريبا . ! . »^(١٩)

(١٧) حسن البنا : [دعوتنا في طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(١٨) المودودي [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٩) [معالم في الطريق] ص ١٠١ .

هنا ، وبهذا التشخيص ، تجاوز سيد قطب موقع المودودي على درب « تجهيل » المجتمع و« تكفيره » .. ثم استمر به السير حتى صرح بما لم يصرح به المودودي ، فحكم « بكفر » « الأمة » ، لا « المجتمع » و« الدولة » فقط ... وقطع في هذا الحكم قطع الوثائق المستيقن .. بل لقد حكم بكفر هذه الأمة منذ قرون وقرون !..

فبعد أن حكم على كل المجتمعات بالارتداد عن « الشريعة » ، إذ « ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض كل شريعة سواها .. »^(٢٠) .. تقدم فحكم بانعدام وجود الأمة المسلمة ، لا في عصرنا وحده ، بل ومنذ قرون كثيرة .. « فوجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة ... فالأمة المسلمة ليست « أرضا » كان يعيش فيها الاسلام . وليست « قوما » كان أجدادهم في عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الاسلامي .. إنما « الأمة المسلمة » جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الاسلامي .. وهذه الأمة — بهذه الموصفات — قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعا !.. »^(٢١)

وفي مكان آخر ، يزيد هذا الحكم تأكيدا فيقول : « إن موقف الاسلام من هذه المجتمعات كلها يتحدد في عبارة واحدة : إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره .. »^(٢٢) !

ومثل « المجتمعات » « الناس » ، أفرادا وجماعات .. فهم غير مسلمين ، ولا بد من دعوتهم للدخول في الاسلام من جديد .. فالمسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وإيمان ، مسألة شرك وتوحيد ، مسألة جاهلية وإسلام ، وهذا ما ينبغي أن يكون واضحا .. إن الناس ليسوا مسلمين — كما يدعون — وهم يحيون حياة الجاهلية .. ليس هذا إسلاما ، وليس هؤلاء مسلمين ، والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهليين إلى الاسلام ، ولتجعل منهم مسلمين من جديد .. »^(٢٣) !

وهذا الكفر الذي عم الأمة ، لم يقف عند كفر « الشريعة » وحدها .. بل إن للأستاذ سيد قطب إشارة إلى أن الأمة قد كفرت « بالعقيدة » أيضا .. فهو يقول : « ينبغي أن يكون

(٢٠) المرجع السابق . ص ٣٩ .

(٢١) المرجع السابق . ص ٨ .

(٢٢) المرجع السابق . ص ١٠٣ .

(٢٣) المرجع السابق . ص ١٧٣ .

مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين ، يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة — حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون !... فإذا دخل في هذا الدين .. عصابة من الناس .. فهذه العصابة هي التي يطلق عليها اسم « المجتمع المسلم » .. »^(٢٤)

لقد كفرت الأمة — في رأى سيد قطب — عندما خرجت على « الحاكمة » الالهية ... كفرت « المجتمعات » .. وكفر « الناس » .. إلا الجماعة الجديدة ، التي تبدأ الدعوة إلى الاسلام من جديد !..

وعموم الجاهلية :

ولما كان « الكفر » هو نقيض « الاسلام » .. ولما كان « الاسلام » هو النقيض « للجاهلية » — لأنه هو الذى نسخها وأخرج الناس من ظلماتها إلى نوره وتنويره — فإن الأمة ومجتمعاتها قد ارتدت ، بكفرها ، إلى « الجاهلية » ، بل إلى « جاهلية » أظلم من الجاهلية الأولى التى عاصرها الاسلام الأول ...! « إن الاسلام لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات .. مجتمع إسلامي ، ومجتمع جاهلي^(٢٥) ... والجاهلية ليست فترة من الزمان ، وإنما هي حالة تتكرر كلما انحرف المجتمع عن نهج الاسلام ، في الماضى والحاضر والمستقبل على السواء^(٢٦) ... ولذلك فإن العالم يعيش اليوم كله في « جاهلية » ، من ناحية الأصل الذى تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها . جاهلية لا تخفف منها شيئا التيسيرات المادية الهائلة ، وهذا الابداع المادى الفائق^(٢٧) ... فنحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التى عاصرها الاسلام أو أظلم ، كل ماحولنا جاهلية .. تصورات الناس وعقائدهم ، عاداتهم وتقاليدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم وآدابهم ، شرائعهم وقوانينهم ، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ، ومراجع إسلامية ، وفلسفة إسلامية ، وتفكيراً إسلامياً ... هو كذلك من صنع هذه الجاهلية^(٢٨) ...!! »

وكما جاء الاسلام ، أول ما جاء ، ليهدم الجاهلية ، وينسخ نظمها وتصوراتها .. وكارفض المسلمون الأوائل أية مصالح مع الجاهلية ، وكل الحلول الوسط مع تصوراتها

(٢٤) المرجع السابق . ص ٤٠ .

(٢٥) المرجع السابق . ص ١١٦ .

(٢٦) المرجع السابق . ص ١٨٢ .

(٢٧) المرجع السابق . ص ١٠ .

(٢٨) المرجع السابق . ص ٢١ .

ونظمها وقيمها ، سواء أكانت جاهلية مشركى العرب فى شبه الجزيرة أم جاهلية الشرق الفارسى أو الغرب البيزنطى .. كذلك يجب على الجماعة المسلمة الجديدة أن تصنع .. « فنحن نرفض هذه الأنظمة فى الشرق أو فى الغرب سواء ... نرفضها كلها ، لأنها منحطة ومتخلفة بالقياس إلى مايريد الاسلام أن يبلغ بالبشرية إليه . » (٢٩)

فالشيوعية ، التى بشرت بمجتمع يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون .. قد انتهى بها المطاف إلى إقامة مجتمعها على قاعدة غير « إنسانية » ، لأنها ، وقد رفضت طبقة « البرجوازية » قاعدة للمجتمع ، قد أقامت مجتمعها على قاعدة طبقية — أى غير « إنسانية عامة » — أساسها طبقة العمال « فتجمع الشيوعية هو الوجه الآخر للتجمع الرومانى القديم .. هذا تجمع على قاعدة طبقة « الأشراف » ، وذلك تجمع على قاعدة طبقة « الصعاليك » (البروليتريا) ... » وغياب « القاعدة الانسانية العامة » لهذا المجتمع ، جعل السيادة فيه « لعاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى !.. وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما فى الكائن الانسانى .. فهو ، ابتداء ، قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها ، باعتبار أن « المطالب الأساسية » للإنسان هى : « الطعام والسكن والجنس » — وهى مطالب الحيوان الأولية — وباعتبار أن تاريخ الانسان هو تاريخ البحث عن الطعام !!! .. » (٣٠)

وكما نرفض هذا الوجه من وجهى « عملة الجاهلية الغربية » ، القائم على قاعدة غير إنسانية ، لتأسيسه على قاعدة طبقة « الصعاليك » .. كذلك نرفض الوجه الآخر لعملة الجاهلية هذه ، ذلك الذى أسس مجتمعه ، هو الآخر على قاعدة غير إنسانية .. قاعدة الطبقة الثرية وحدها .. لقد انتهى دور هذا المجتمع الغربى ، ودور حضارته ، ودور نهضته العلمية ، ودور الرموز التى صاغها وعيدها ، من مثل « الوطنية » و« القومية » ... وانتهت حقبة قيادة الرجل الغربى للبشرية ، لاقصود فى حضارته عن أن تشبع الحاجات المادية للإنسان ، وإنما لعجزها عن أن تحقق إنسانيته ، بافتقارها إلى « القيم » ... وجاء دور قيادة الاسلام للعالم ، بالحفاظ على ما أبدعت الحضارة الغربية على جبهة التقدم المادى ، وإضافة « القيم الاسلامية » لهذا الصرح المادى ، كى تتزن الحضارة وتتوازن ، فتشبع حقاً مطالب الانسان ، من حيث هو « إنسان » !..

على هذا النحو الجيد ، فى مجمله ، تصور سيد قطب المواجهة بين الاسلام وبين الحضارة الغربية .. فعنده « أن النهضة العلمية الأوروبية قد أدت دورها .. هذا الدور الذى

(٢٩) المرجع السابق . ص ١٧٢ .

(٣٠) المرجع السابق . ص ٦٠ .

بدأت مطالعته مع عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي ، ووصلت إلى ذروتها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ... ولم تعد تملك رصيدا جديدا^(٣١) ... »

وعلى عكس حسن البنا ، الذي احتضن « الوطنية » و « القومية » ، ورآها حلقات ودوائر ومراحل تقضي إلى الجامعة الاسلامية ، فالعالمية الانسانية^(٣٢) ... بل وعلى عكس المودودي الذي جعل الحفاظ على « القومية الحضارية » ، إسلامية أو غير إسلامية ، الأساس الذي سعى لبناء مستقبل الهند وفق معايير^(٣٣) ... على العكس من البنا والمودودي ، لم يذكر سيد قطب « الوطنية » أو « القومية » بأى خير .. بل لقد رآهما ، مع « التجمعات الاقليمية عامة » ، رموزا ودعوات « أدت دورها .. ولم تعد تملك هي الأخرى رصيدا جديدا^(٣٤) ... »

وإذا كان الطابع المادى الالحادى للحضارة الغربية ، قد حرّمها « التوازن » ، فأفقدت إنسانها الاتزان ، عندما أتخّم ماديا ، بينما ظل داخله من الروحية والقيم خواء .. فإن الاسلام ، كتصور مستقل للكون والحياة ، وكحضارة متميزة ، امتازت بإعلاء كل ماهو إنسانى ، دون أن ترفض المادة .. هذا الاسلام هو المرشح لقيادة العالم الآن !..

« إن الاسلام : تصور مستقل للوجود والحياة ، تصور كامل ذو خصائص متميزة ، ومن ثم ينبثق منه منهج ذاتى مستقل للحياة كلها ، بكل مقوماتها وارتباطاتها ، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة ... »^(٣٥)

والحضارة الاسلامية ، من ثم ، متميزة بالتبعية لتمييز الاسلام — لأن الاسلام هو حضارته — بل هو الحضارة .. وماعداه فجاهلية ! .. وتميز الحضارة الاسلامية يظهر ويتأكد فى « ثبات الأصول والقيم » فيها ، رغم تعدد وتطور « تركيبها المادى والتشكيلى » ... وأصولها وقيمها الثابتة تدور حول عبودية الانسان لله وحده — ومن ثم تحرره من كل الطواغيت — وإعلاء كل مايؤكد إنسانية الانسان ، ويجعلها فوق النزعات المادية والحيوانية ... فنوابت هذه الحضارة ، هي مقوماتها .. من مثل « العبودية لله

(٣١) المرجع السابق . ص ٦ .

(٣٢) [دعوتنا] مجموعة الرسائل . ص ١٧ . و[دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل ص ١١٢ - ١١٥ . و[رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٧٦ - ١٧٨ .

(٣٣) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٣٤) [معالم فى الطريق] ص ٦ ، ٧ .

(٣٥) المرجع السابق . ص ١٦٢ .

وحده ، والتجمع على آصرة العقيدة فيه ، واستعلاء إنسانية الانسان على المادة ، وسيادة القيم الانسانية التى تنمى إنسانية الانسان لا حيوانيته .. وحرمة الأسرة .. والخلافة .. فى الأرض — [عن الله] — على عهد الله وشروطه .. وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها فى شئون هذه الخلافة^(٣٦).... وفى هذه الحضارة الاسلامية ، وحين تكون « إنسانية » الانسان هى القيمة العليا فى المجتمع ... يكون هذا المجتمع متحضرا .. أما حين تكون « المادة » — فى أية صورة — هى القيمة العليا .. سواء فى صورة « النظرية » كما فى التفسير المادى للتاريخ أو فى صورة « الانتاج المادى » كما فى امريكا وأوروبا وسائر المجتمعات التى تعتبر الانتاج المادى قيمة عليا ... فإن هذا المجتمع يكون مجتمعا متخلفا ... أو بالمصطلح الإسلامى مجتمعا جاهليا !...

والمجتمع المتحضر .. الإسلامى .. لا يحتقر المادة ، لا فى صورة النظرية (باعتبارها هى التى يتألف منها هذا الكون ، الذى نعيش فيه ، ونتأثر به ونؤثر فيه أيضا) ولا فى صورة « الانتاج المادى » ، فالانتاج المادى من مقومات الخلافة فى الأرض عن الله .. ولكنه ، فقط ، لا يعتبرها هى القيمة العليا ، التى تهدر فى سبيلها خصائص « الانسان » ومقوماته !....

والقيم الانسانية والأخلاق الانسانية — [التى هى من ثوابت حضارتنا] — ليست مسألة غامضة مائعة ، وليست كذلك قيما « متطورة » متغيرة متبدلة ، لا تستقر على حال ولا ترجع إلى أصل ، كما يزعم التفسير المادى للتاريخ !.. إنها القيم والأخلاق التى تنمى فى الانسان خصائصه التى يتفرد بها دون الحيوان^(٣٧) !

وأمام تميز الحضارة الاسلامية وامتيازها .. وفى مواجهة « الجاهلية الغربية » ، بشقيها « الليبرالى — الرأسمالى » و« الشمولى — الشيوعى » ، فإن لواء قيادة العالم معقود للإسلام والمسلمين .. « إن قيادة الرجل الغربى للبشرية قد أوشكت على الزوال .. لا لأن الحضارة الغربية قد أفلست ماديا ، أو ضعفت من ناحية القوة الاقتصادية والعسكرية .. ولكن ، لأن النظام الغربى قد انتهى دوره ، لأنه لم يعد يملك رصيذا من « القيم » يسمح له بالقيادة . فلا بد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة المادية التى وصلت إليها البشرية ، عن طريق العبقرية الأوروبية فى الابداع المادى ، وتزود البشرية بقيم جديدة جدة كاملة — بالقياس إلى ما عرفته البشرية — وبمنهج أصيل وإيجابى وواقعى فى الوقت ذاته . والإسلام — وحده — هو الذى يملك تلك القيم وهذا المنهج ... »^(٣٨)

(٣٦) المرجع السابق . ص ١٣٢ .

(٣٧) المرجع السابق . ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(٣٨) المرجع السابق . ص ٦ .

فالمطلوب . إذن . هو :

● إدراك الخصائص التي تتميز بها الحضارة الإسلامية وتمتاز عن جاهلية الغرب .. والحرص على نقاء هذه الخصائص .. وتنقيتها مما ران عليها في ظل الجاهلية التي عمت وضربت أطنابها ...

● وتمييز علوم التقدم المادى التي أبدعها الغرب عن تصوراته الفلسفية والفكرية والأخلاقية الجاهلية .. وضم علوم التقدم المادى إلى «قيم» الحضارة الإسلامية .. فهما تجتمع مؤهلات القيادة العالمية الجديدة ... ولذلك . كان من الأهمية بمكان تحديد : ماذا نرفض من الغرب ؟ .. وماذا نأخذ عنه ؟ ..

ولقد أدرك سيد قطب أن هزيمتنا الروحية أمام الغرب - بعد هزيمتنا العسكرية والسياسية - قد أصبحت خطراً محدقاً على ما يتميز به الإسلام ويمتاز في ميدان «القيم» و«التصورات» . فدعا إلى تحديد الحدود والفواصل . بحسم ووضوح . بين خصائصنا وبين «الحضارة الجاهلية»^(٣٩) .. ودعا إلى الانسلاخ عن «فكرية التغريب» التي جاءت في ركاب الغزوة الاستعمارية . ثم باضت وأفرخت في عقولنا وقلوبنا حتى أفسدت علينا الكثير من العقائد والقيم والمعايير والأخلاق والتصورات ..

ولقد ضرب سيد قطب المثل بنفسه .. فهو قد عاش أربعين عاماً «تغيبش تصورات» ورؤاه هذه التأثيرات الجاهلية .. وذلك على الرغم من انتهائه الإسلامى وكتاباته الإسلامية طوال تلك السنوات .. فما بالك بمن لم تكن له هذه الحصيلة الإسلامية ؟! - .. وما هو يدعو إلى الانسلاخ عن جاهلية الغرب ، كما انسلخ هو عنها ، وإلى إدانة حقبة التغريب وإسقاطها من عمرنا . كما أدانها هو وأسقطها من عمره ... إنه يحدثنا بلغة «النقد الذاتى» و«الاعتراف» ، فيقول : «إن الذى يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة . كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع فى معظم حقول المعرفة الانسانية .. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته .. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره ، فإذا هو يجد كل ما قرأ ضئيلاً ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم - وما كان يمكن إلا أن يكون كذلك - وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره ، فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها ، وعلى انحرافها . وعلى ضآلتها ، وعلى قزامتها .. وعلى جمعيتها وانتفاشها . وعلى غرورها وادعائها كذلك !!! وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين فى التلقى !!!^(٤٠) ... وعلى الرغم من اتجاهى الإسلامى فى ذلك الحين ، إلا أن

(٣٩) المرجع السابق . ص ١٧٤ .

(٤٠) المرجع السابق . ص ١٤٣ . ١٤٤ .

هذه الرواسب كانت تغبش تصویری وتطمسه ! . كان تصور « الحضارة » — كما هو الفكر الأوربي — يخاليل لي ، ويغبش تصویری ، ويحرمني الرؤية الواضحة الأصيلة »^(٤١)

تلك كانت تجربة سيد قطب مع « رواسب التغريب » .. ولقد انسلخ عنها ، وواجهها في حسم ، وبرؤية شديدة الوضوح .. ودعا إلى أن يسلك الناس هذا السبيل ! ..

لكن الرجل — كما أشرنا — لم يكن رافضا لكل ما أنتجته النهضة الأوربية .. فعلموها في الطبيعة والتقدم المادى ، التي أثمرت تلك الحضارة المادية ، والتي أثمرتها هذه الحضارة المادية ، يعتبرها وليدة « العبقريّة الأوربية في الابداع المادى » .. وهو لا يرفضها ، وإنما يطلب أن تزايل « قيم » الاسلام « وتصوراته الايمانية » للكون والحياة و « أخلاقياته » ، تلك التي تعلو من « إنسانية الانسان » فوق « المادة » ، نظرية كانت أو إنتاجا .. وذلك حتى تتكامل للحضارة الساقان اللتان تستطيع إذا هي سارت عليهما تهيئة المناخ الصالح للإنسان السوى .. ولذلك دعا المسلمين إلى أن يأخذوا عن الغرب « العلوم البحتة » ، في الوقت الذى يجب أن يرفضوا فيه « الالهيات » و « الفلسفة » و « الانسانيات » ، « إذ المسلم لا يملك أن يتلقى ، في أمر يختص بحقائق العقيدة ، أو التصور العام للوجود ، أو يختص بالعبادة ، أو يختص بالخلق والسلوك ، والقيم والموازن ، أو يختص بالمبادئ والأصول في النظام السياسى ، أو الاجتماعى ، أو الاقتصادى ، أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنسانى وبحركة التاريخ الإنسانى .. إلا من ذلك المصدر الربانى . ولا يتلقى في هذا كله إلا عن مسلم ، يثق بدينه وتقواه ، ومزاولته لعقيدته في واقع الحياة ..

لكن المسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة ، كالكيمياء ، والطبيعة ، والأحياء ، والفلك ، والطب ، والصناعة ، والزراعة ، وطرق الإدارة — من الناحية الفنية الادارية البحتة — وطرق العمل الفنية ، وطرق الحرب والقتال — من الجانب الفنى — إلى آخر ما يشبه هذا النشاط .. يملك أن يتلقى في هذا كله عن المسلم وغير المسلم ... ويجوز أن يشتغل فيها المسلم وغير المسلم ، لأنها من الأمور الداخلة في قول رسول الله ﷺ : « أنعم أعلم بأمور دنياكم »^(٤٢) ... ومن ثم فلا خطر فيها من زيغ العقيدة ، أو ارتداده إلى الجاهلية^(٤٣)

أما جانب العقائد والالهيات والفلسفة والأخلاق وتصورات الكون والحياة والعلاقة

(٤١) المرجع السابق . ص ١١٨ .

(٤٢) رواه مسلم وابن ماجة وابن حنبل .

(٤٣) المرجع السابق . ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

بين القيم الانسانية وبين المادة .. أما هذا الجانب الذى تتكون منه « الثقافة » ، فإن سيا قطب لا يمنع فيه « الاطلاع » على إنتاج الجاهلية الغربية ، لا لتتخذ منه مصدرا لثقافتنا ، بدعوى أن « الثقافة تراث إنسانى » — وهى دعوى كاذبة عند الإطلاق — وإنما يكون الاطلاع بهدف النقد وكشف ما فى هذا الجانب من فكر الغرب من ضلال ... فالمسلم « قد يطلع على كل آثار النشاط الجاهلى ، ولكن لا ليكون منه تصوره ومعرفته فى هذه الشئون كلها ، وإنما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية ! وليعرف كيف يصحح ويقوم هذه الانحرافات البشرية ، بردها إلى أصولها الصحيحة فى مقومات التصور الاسلامى ، وحقائق العقيدة الاسلامية ... إن حكاية أن « الثقافة تراث إنسانى » لا وطن له ولاجنس ولا دين .. هى حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية — دون أن تتجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية « الميتافيزيقية » لتتأرجح هذه العلوم ، ولا إلى التفسيرات الفلسفية لنفس الانسان ونشاطه وتاريخه ، ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعرية جميعا ، ولكنها فيما وراء ذلك إحدى مصادم اليهودية العالمية ، التى يهجمها تجميع الحواجز كلها — بما فى ذلك ، بل فى أول ذلك حواجز العقيدة والتصور — لكى ينفذ اليهود إلى جسم العالم كله ، وهو مسترخ مخدر ، يزاولون فيه نشاطهم الشيطاني^(٤٤) ! .. »

ولقد ضرب سيد قطب المثل على إمكانية وضرورة التمييز بين علوم الغرب البحتة وتطبيقاتها — وهى ما يمكن أخذها عنه — وبين فلسفته وإنسانياته — وهى ما يجب الحذر منها .. والتصدى لها — .. ضرب المثل بما صنعت أوروبا ، عندما أرادت أن تنهض ، مع حضارتنا الاسلامية .. لقد أخذت عنا « الاتجاه التجريبي » الذى أقامت عليه حضارتها الصناعية ، وفى ذات الوقت رفضت « التصورات الاسلامية والأصول الاعتقادية الاسلامية » ، التى كان هذا « الاتجاه التجريبي » وثيق الصلة بها فى الحضارة الاسلامية .. لقد أخذت ما لاءم الطابع المادى لحضارتها ، وتركت ما كان ، لو أخذته ، كفيلا بإحداث تغير جذرى فى طابع تلك الحضارة وطبيعتها .. فعلينا نحن أن نعنى هذا الدرس التاريخى فى الأخذ والعطاء بين الحضارات .. فنأخذ عن الغرب ما يلائم طابعنا الحضارى ، وندع ، بل ونحذر ، تلك الجوانب الكفيلة بتغيير الطابع الإنسانى المؤمن لحضارتنا ، وقلبها حضارة مادية ، كما هو الحال فى الجاهلية الغربية ... « إن الاتجاه التجريبي ، الذى قامت عليه الحضارة الصناعية الأوروبية الحاضرة ، لم ينشأ ابتداء فى أوروبا ، وإنما نشأ فى الجامعات الاسلامية فى الأندلس والمشرق ، مستمدا أصوله من التصور الاسلامى وتوجيهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية ، ومدخراته وأقواته ... ثم قطعت أوروبا ما بين المنهج الذى اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الاسلامية ، وشردت به نهائيا بعيدا عن الله .. »^(٤٥)

(٤٤) المرجع السابق . ص ١٣٩ - ١٤١ .

(٤٥) المرجع السابق . ص ١٤٢ .

بل إن علينا أن لا نفقد الحذر أو نتخلى عن الاحتياط ونحن نأخذ عن الغرب « العلوم البهتة » ، التى نحن مضطرون — فى وضعنا الراهن — لأخذها عنه .. فهناك « ظلال فلسفية » لهذه « العلوم البهتة » ، فى فكرية الغرب ، كفيلة ، إذا نحن تركناها تتسرب إلى فكريتنا ، بتلويت صفاء نبعنا الفكرى الإسلامى « لأن هذه الظلال معادية فى أساسها للتصور الدينى جملة ، وللتصور الإسلامى بصفة خاصة »^(٤٦)

فيجب علينا ألا ننسى — ونحن مضطرون لنأخذ عن الغرب علومه البهتة — أننا أبناء « حضارة مؤمنة » ، ارتبطت فيها العلوم جميعا ، بما فيها « العلوم البهتة » ، بالقاعدة الإيمانية ... إننا أبناء « الحضارة المؤمنة » ، التى يذكر فيها اسم الله فى كل شىء ، وبكل مجال وميدان ... نستفتح الأكل باسم الله .. ونختتمه بحمده .. ونهل بذكره على الذبائح .. ونلجأ إليه عند الحزن ، وعند السرور .. فى وقت الضحك ، وساعة البكاء .. كل مسعى الإنسان عبادة ، حتى تروىحه عن النفس .. بل ومباشرة متع الجنس المشروع !.. إنها الحضارة التى قال الإمام الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م] عن غاية العلماء من العلم فيها : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله !؟ .. » .. فإذا كتب التيفاشى [٥٨٠ - ٦٥١ هـ ١١٨٤ - ١٢٥٣ م] فى طبيعة الأرض — الجيولوجيا — كتابه « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » افتتحه بـ « الحمد لله . بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين »^(٤٧) كما يصنع الفقهاء فى استهلال مصنفات الفقه الإسلامى !؟ .. وإذا صنف ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ - ٤٥٦ هـ ٩٩٤ - ١٠٦٤ م] فى « الحب » كتابه « طوق الحمامة فى الألفة والألف » فإنه يفتتحه بـ « بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين ... أفضل ما أبتدىء به حمد الله عز وجل بما هو أهله ، ثم الصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله خاصة ، وعلى جميع أنبيائه عامة .. »^(٤٨) وفى ختام كتابه هذا عن « الحب » يقول لقارئه : « جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين ، آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .. »^(٤٩) فكأنه يصنف فى الألهيات !؟ ..

إن حضارة هذه هى الصلة بين سائر علومها وبين القاعدة الإيمانية — التى هى محورها — لا بد وأن يحذر أهلها وهم يأخذون من حضارة الغرب علومها البهتة من « الظلال

(٤٦) المرجع السابق . ص ١٤٨ .

(٤٧) انظر ص ٣٧ من هذا الكتاب . طبعة القاهرة — هيئة الكتاب — سنة ١٩٧٧ م . وهو بتحقيق : د . محمد يوسف حسن ود . محمود بسيوى خفاجى .

(٤٨) انظر [رسائل ابن حزم] ج ١ ص ٨٤ . تحقيق : د . احسان عباس . طبعة بيروت سنة ١٤٠١ هـ سنة ١٩٨٠ م .

(٤٩) المصدر السابق . ص ٣١٠ .

الفلسفية « الضارة بالقاعدة الايمانية .. » فالعلم الذى ينقطع عن قاعدته الايمانية ليس هو العلم الذى يعنيه القرآن ويشئى على أهله .. إن هناك ارتباطا بين القاعدة الايمانية و علم الفلك ، و علم الأحياء ، و علم الطبيعة ، و علم الكيمياء ، و علم طبقات الأرض .. وسائر العلوم المتعلقة بالنواميس الكونية ، والقوانين الحيوية .. إنها كلها تؤدى إلى الله ، حين لا يستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله - كما اتجه المنهج الأوربي فى النهضة العلمية - مع الأسف - بسبب تلك الملاحظات النكدة التى قامت فى التاريخ الأوربي خاصة بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة الغاشمة ! .. » (٥٠)

فحتى لا تتكرر مأساة الفصام النكد بين « العلم » وبين « القاعدة الايمانية » علينا أن نحذر ، ونحن نأخذ عن جاهلية الغرب « علومها البحتة » أية ظلال فلسفية إلحادية ارتبطت هناك بتلك العلوم .. فبدلك .. وبذلك وحده .. نضمن إعادة هذه العلوم ، فى مناخنا الحضارى ، لترتبط بالقاعدة الايمانية مرة أخرى .. فتصبح « لله » ، بعد أن طلبوها هناك « لغير الله » ، بل وربما « للتخلص من الايمان بالله » ! .. وبذلك يتم الاتساق بين هذه العلوم وبين عقيدتنا وتصوراتنا للكون ، وقيمنا الانسانية وأخلاقياتها .. فتتكامل للإسلام والمسلمين مؤهلات القيادة العالمية ، بعد أن دخلت الجاهلية الغربية مأزقها التاريخي ، واصطدمت بسور من الافلاس ليس إلى تجاوزه من سبيل ! ..

السييل إلى البعث الإسلامى :

وأمام « عموم البلوى » ، « كفرا » ارتدت به الأمة ومجتمعاتها ، منذ قرون كثيرة ، إلى « جاهلية » أظلم من تلك التى عاصرها الاسلام زمن البعثة ... أمام هذه البلوى التى عمت وطمت .. وفى ظروف « محنة » الاسلاميين بمصر ، وما تميزت به هذه « المحنة » من قهر ينهال عليهم من الخارج ، وخلخلة تفت فى عضدهم من داخل صفوفهم ! ... أمام هذا الوضع ، بما هو « واقع » منه ، وبما هو « تصور » ؟ ! .. تساءل الأستاذ سيد قطب :

« ... فكيف تبدأ عملية البعث الإسلامى ؟ » (٥١) .

ولقد أجاب على هذا السؤال على النحو الذى أجاب به ، من قبل ، الأستاذ المودودى .. فما دما قد وصلنا إلى عموم « الكفر والجاهلية » ، على النحو الذى شهده

(٥٠) [معالم فى الطريق] ص ١٤٧ .

(٥١) المرجع السابق . ص ١١ .

المسلمون الأولون ، فلا بد وأن يكون طريقنا للبعث الاسلامى الجديد هو نفس طريقهم للبعث الاسلامى الأول .. فنحن نبدأ من أول الطريق ، كما بدأوا .. ونسلك نفس النهج .. ونعبر ذات المراحل .. لنصل إلى البعث الإسلامى الجديد ..

● فالخطوة الأولى هى تكوين « الجماعة المؤمنة » ، بداية من الفرد الواحد .. والبداية بالعقيدة ، والعقيدة وحدها فى هذه المرحلة ، التى تشبه من كل الوجوه « المرحلة المكية » من حياة الاسلام الأولى .. لأنها « مرحلة الحضانة والتكوين » ..!

● وليس المطلوب « دراسة » للعقيدة ، تقف عند حدود « الدراسة » و« النظر » ، وإنما الأهم هو تجسيد العقيدة فى « الجماعة » ، بواسطة « الحركة » ، حتى تتحول هذه الجماعة إلى « مجتمع » تتجسد فيه هذه « العقيدة » .. « مجتمع » ، ليس بمعنى « الدولة » و« السلطة » ، وإنما بمعنى « الجماعة المؤمنة » ، حتى ولو كانت فردا أو بضعة أفراد .. « فحين يؤمن الانسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الاسلامى (حكما) ... وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر ... يكون المجتمع الاسلامى قد وجد (فعلا) .. والثلاثة يصبحون عشرة ، والعشرة يصبحون مائة ، والمائة يصبحون ألفا ، والألف يصبحون اثنى عشر ألفا .. ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامى !.. » (٥٢)

● وفى مرحلة « الحضانة والتكوين » هذه ، لابد وأن يكون النهج ، نهج « التكوين العقيدى » هو ذات النهج الذى سلكته الجماعة الاسلامية الأولى ، فى المرحلة المكية ... فلا بد من رفض كل المنابع الجاهلية ، والاقتصار ، فقط ، على هذه المرحلة بالدات ، على نبع واحد هو : القرآن الكريم .. فجميع ماحولنا جاهلى .. ثم إن نقاء المنبع — وهو الذكر الذى حفظه الله — بالغ الأهمية فى مرحلة « الحضانة والتكوين » ، كى لا يتسم الكيان الوليد فى هذا الطور الحديث ... « لقد اختلطت ينباع » ... ومن ثم فلا بد من التأسى بجبل الصحابة « الذى استقى من النبع القرآنى وحده ، فكان له فى التاريخ ذلك الشأن الفريد ... » (٥٣)

وهذا التلقى للعقيدة ، ليس يكفى فيه « وحدة المنبع » ، على نحو ما فعل جيل الصحابة ، بل لابد ، من أن يكون تلقينا كتليهم « للتنفيذ » لا لجرد « البحث والدراسة والمتعة الفكرية » .. فالجماعة المؤمنة : كتيبة منظمة تتلقى العقيدة من القرآن وحده ، تلقى الجندى لأمر القائد .. للتنفيذ .. لا لجرد « العلم » !.. « إن منهج التلقى للتنفيذ والعمل هو

(٥٢) المرجع السابق . ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٥٣) المرجع السابق . ص ١٧ .

الذى صنع الجيل الأول . ومنهج التلقى للدراسة والمتاع هو الذى خرج الأجيال التى تليه .. ولقد كان ذلك عاملا أساسيا فى اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد ... فلا بد ، إذن — فى منهج الحركة الاسلامية — أن تتجرد ، فى فترة الحضانة والتكوين ، من كل مؤثرات الجاهلية التى نعيش فيها ، ونستمد منها ، لابد أن نرجع ابتداء إلى النبع الخالص الذى استمد منه أولئك الرجال — [جيل الصحابة الفريد] — .. ولابد أن نرجع إليه — حين نرجع — بشعور التلقى للتنفيذ والعمل ، لا بشعور الدراسة والمتاع !..» (٥٤)

● وفى مرحلة « التكوين العقيدى » هذه ، يمتزج « التكوين العقيدى » بـ « التكوين العمل للحركة » ، لأن العقيدة ، هنا لا تقف عند حدود « الدراسة النظرية » ، بل تتحول « حركة » المؤمن بالعقيدة إلى « عقيدة متحركة » .. جماعة تحيا القرآن ، ويتجسد فيها نورا يمشى على الأرض ويسعى بين الناس !.. الأمر الذى يمزج هذا المزيج « بالبناء الواقعى للجماعة المسلمة » ... « عقيدة » تتجسد « بالحركة » فى المؤمنين بها ، لا كأفراد ، وإنما « كجماعة مسلمة » .. تتلقى من النبع الصافى الوحيد — القرآن — تلقى الجند أمر القائد للعمل والتنفيذ ! .. ولقد كان ذلك ، أيضا ، من خصائص « العهد المكي » .. ففيه « لم تكن مرحلة بناء العقيدة .. منعزلة عن مرحلة التكوين العمل للحركة الاسلامية ، والبناء الواقعى للجماعة المسلمة . لم تكن مرحلة تلقى « النظرية » ودراستها ! ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدى للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلى معا .. وهكذا ينبغى أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى !..» (٥٥)

● وعندما تتكون هذه « الطليعة » التى تعزم هذه العزيمة ، وتمضى فى الطريق « إلى البعث الاسلامى الجديد .. فعليها أن تحدد طبيعة « العلاقة » بينها وبين « الجاهلية » المحيطة بها ، فى هذه « المرحلة المكية » ، مرحلة « الحضانة والتكوين » ..

فلا بد لهذه « الطليعة » من الانسحاب من النسيج الداخلى للمجتمع الجاهلى ، حتى لا « يقومون » فعلا « بتقوية المجتمع الجاهلى .. بدلا من أن تكون حركتهم فى اتجاه تقويته .. لإقامة المجتمع الاسلامى » (٥٦) !.. « فحتى فى هذه المرحلة لا مهادنة ولا تصالح مع الجاهلية ، ولو جزئيا ...

(٥٤) المرجع السابق . ص ١٧ ، ١٩ ، ٢١ .

(٥٥) المرجع السابق . ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٥٦) المرجع السابق . ص ٥٥ ، ٥٦ .

لكن هذه « الطليعة » ، في مرحلة « الحضانة والتكوين » — [المكية] — هذه لا تستطيع أن تقطع كل الصلات بالمجتمع الجاهلي ، بل هي مضطرة لإقامة بعض الصلات معه ، بل إن قدرا من هذه الصلات مطلوب لتوسيع دائرة هذه « الطليعة » ١٩.. فالمطلوب ، إذن ، هو إقامة قدر من « العزلة » وقدر من « الاتصال » ... إن هذه « الطليعة تقضي في خصم الجاهلية .. وهي تزاوئ نوعا من العزلة من جانب ، ونوعا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة^(٥٧).. إنها المخالطة مع التميز ، والأخذ والعطاء مع الترفع ، والصدع بالحق في مودة ، والاستعلاء بالإيمان في تواضع ... »^(٥٨)

● وفي مرحلة « الحضانة والتكوين » هذه .. فإن « الطليعة » ليست مطالبة بتفصيل البرامج والتصورات للدولة الإسلامية التي تسعى لإقامتها ... فلم يكن ذلك واردا — وهو لم يحدث — في « العهد المكي » من تاريخ الإسلام الأول .. وعلى الجماعة المؤمنة أن لا تستجيب لتحدى الجاهلية التي تتساعل عن ملاح « البديل الإسلامي » .. فخطوات البعث الإسلامي الجديد ومراحله حددتها ، سلفا ، خطوات البعث الإسلامي الأول ومراحله ... ففي مكة ، وعلى امتداد ثلاثة عشر عاما ، كانت المهمة العظمى والأولى والوحيدة ، هي تأسيس العقيدة ، وتجسيدها ، بالحركة ، في الجماعة المؤمنة .. فلما قامت « الدولة » ، بالمدينة ، بعد الهجرة ، ارتبطت التصورات والبرامج بظهور المشكلات الواقعية ، ولم تندمج هذه البرامج ، سلفا ، قبل ظهور المشكلات ، ولا قبل قيام السلطة التي يطلب منها حكم الواقع ومواجهة مشكلاته بالحلول الإسلامية ... فيجب على الجماعة المؤمنة أن لا تقع في « الفخ » ، فتتمكن « الجاهلية من أن تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة الإسلامية ، فتجعلهم يتعجلون خطوات المنهج الإسلامي ... أو تخرجهم فتسأهم : أين تفصيلات نظامكم الذي تدعون إليه ؟ وماذا أعددتهم لتنفيذه من بحوث ومن دراسات ومن فقه مقنن على الأصول الحديثة ..! كأن الذي ينقص الناس ، في هذا الزمان ، لإقامة شريعة الإسلام في الأرض هو مجرد الأحكام الفقهية والبحوث الفقهية الإسلامية ١٩ وكأنما هم مستسلمون لحاكمية الله ، راضون بأن تحكمهم شريعته ، ولكنهم فقط لا يجدون من « المجتهدين » فقها مقننا بالطريقة الحديثة .! وهي سخرية هازلة يجب أن يرتفع عليها كل ذى قلب يحس لهذا الدين بحرمة !.

إن الجاهلية لا تريد بهذا الإحراج إلا أن تجد لنفسها تعللة في نيل شريعة الله ،

(٥٧) المرجع السابق . ص ١١ ، ١٢ .

(٥٨) المرجع السابق . ص ١٧٦ .

واستبقاء عبودية البشر للبشر .. وإلا أن تصرف العصبة المسلمة عن منهجها الربانى ، فتجعلها تتجاوز مرحلة بناء العقيدة فى صورة حركية ، وأن تحول منهج أصحاب الدعوات الاسلامية عن طبيعته التى تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة ، وتحدد ملامح النظام من خلال الممارسة ، وتسبب فيها التشريعات فى مواجهة الحياة الاسلامية الواقعية بمشكلاتها الحقيقية !..» (٥٩)

فللبحث الاسلامى — فى هذه المرحلة التكوينية — مراحل ومناهجه .. وطالما لم تُقم « الطليعة » بعد المجتمع الذى تحكمه « الحاكمية الالهية » ، فلا ضرورة لتفصيل البرامج والتصورات لواقع لسنا مسئولين عنه ، ولا نملك القضاء فى مشكلاته وأمراضه بالأصلاح والعلاج .. « وحين يقوم هذا المجتمع ، بالفعل ، يبدأ عرض أسس النظام الاسلامى عليه ، كما يأخذ هذا المجتمع فى سن التشريعات التى تقتضيا حياته الواقعية ، فى إطار الأسس العامة للنظام الاسلامى .. فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الاسلامى الواقعى العملى الجاد .. » (٦٠)

تلك هى الخطوات الأولى للبحث الاسلامى الجديد ... والمهام الأساسية للمرحلة المناظرة « للعهد المكى » .. والسييل لبلورة أداة هذا البحث : « الطليعة » ، التى تعزم هذه العزمة .. وتمضى فى الطريق » (٦١)

° ° °

وعندما تمضى « الطليعة — المؤمنة » فى طريقها ، فتتجاوز مرحلة « الحضانة والتكوين » العقيدى ، وتقيم « المجتمع الفعلى » ، الخاضع للحاكمية الالهية ، والمنظمة جميع شئونه وفق شريعة الاسلام ... فإن هذا المجتمع سيكون « مجتمع العقيدة » ، تنجسد فيه ، وتحدد له فلسفته وتصوراته وتطبيقاته وعلاقاته .. وترسم له الحدود . وتعين له الهوية .. والرعية .. سيقوم « على آصرة العقيدة وحدها ، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريية والحدود الاقليمية السخيفة ١٢ . » (٦٢) .. المجتمع الذى هو « دار الاسلام » .. ورعيته « كل من يدين بالاسلام عقيدة ، ويرتضى شريعته شريعة . وكذلك كل من يرتضى شريعة الاسلام نظاما — ولو لم يكن مسلما — كأصحاب الديانات الكتابية

(٥٩) المرجع السابق . ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٦٠) المرجع السابق . ص ٤١ .

(٦١) المرجع السابق . ص ١١ .

(٦٢) المرجع السابق . ص ٥٨ .

الذين يعيشون في « دار الاسلام » ... » (٦٣)

و « دار الاسلام » هذه ليست إقليما ولا وطناً ولا دولة ، فقط ... فكما أن الاسلام هو إعلان تحرير للإنسان — كل إنسان — من عبودية غير الله .. فإن أرضه هي كل الأرض .. وداره هي كل الديار ١٩.. ولذلك فإن على المسلمين ، من أهل « دار الاسلام » ، أن ينطلقوا ، بالجهاد ، لإزالة كل صور العقبات والضغط ، التي تمثلها الحكومات والنظم الجاهلية ، والتي تحول بين شعوبها وبين الاستماع إلى « بيان الاسلام » وحجة دعوته ، والاختيار الحر أمام « عقيدة » هذا « الدين »!..

إن سيد قطب — متابعاً للمودودي — يرى أن الجهاد الاسلامي ليس ، فقط ، دفاعاً عن الدعوة في وطن بعينه .. بل هو أيضاً هجوم على « النظم والحكومات » التي لا تدين بالحاكمة الالهية .. ومهمة الجهاد الاسلامي وأهله هي :

- ١ - إزالة هذه النظم والحكومات ، بالوسائل المكافئة لما تتصدى به لهذا الجهاد الاسلامي!..
- ٢ - وتطبيق الحاكمة الالهية في كل مجتمعات الأرض ، أى حكمها بمنهج الاسلام وشريعته ..

٣ - وعرض الاسلام ، كعقيدة — وهي عنده أخص من الدين كمنهج وشرعة ١١٩ — عرضه على شعوب الأرض ، بالبيان والحجة ، مع ترك الحرية لها تؤمن بالعقيدة الاسلامية أو لا تؤمن بها ، وفق مبدأ [لا إكراه في الدين]^(٦٤) .. فمن آمن انضم للأمة المؤمنة ، ومن أثر البقاء على دينه ، وسالم الاسلام كعقيدة ، وخضع لنظامه ومنهجه وشريعته — [الحاكمة] — فهو في كنف الاسلام والمسلمين ..

« إن الاسلام إعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد ، فهو يهدف ابتداءً إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الانسان للإنسان .. ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحراراً — بالفعل — في اختيار العقيدة .. بعد رفع الضغط السياسى عنهم ، وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم ... إن النظام الذى يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده ، وذلك بتلقى الشرائع منه وحده ، ثم ليعتنق كل فرد — في ظل هذا النظام العام — ما يعتنقه من عقيدة ! وبهذا يكون « الدين » كله لله .. إن مدلول « الدين » أشمل من مدلول « العقيدة » ، إن الدين هو المنهج والنظام الذى يحكم الحياة ، وهو في الاسلام يعتمد على العقيدة ، ولكنه في عمومها أشمل من العقيدة .. وفي الاسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهج العام ، الذى يقوم على أساس

(٦٣) المرجع السابق . ص ١٥١ ، ١٥٧ .

(٦٤) البقرة : ٢٥٦ .

العبودية لله وحده ، ولو لم يعتقد بعض هذه الجماعات عقيدة الاسلام .والذى يدرك طبيعة هذا الدين — على النحو المتقدم — يدرك معها حتمية الانطلاق الحركى للإسلام ، فى صورة الجهاد بالسيف — إلى جانب الجهاد بالبيان — .. ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية فقط .. وإنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير « الانسان » فى « الأرض » .. بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشرى ، وفى مراحل محددة ، لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة ... إن دعوة الاسلام تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد ، مخاطبهم بحرية ، وهم مطلقو السراح من جميع المؤثرات .. فهنا « لا إكراه فى الدين » .. أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية ، فلا بد من إزالتها أولاً بالقوة ، للتمكن من مخاطبة قلب الانسان وعقله ، وهو طليق من هذه الأغلال ! .. «^(٦٥) .. فلا بد أولاً من « تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلى بين جماهيرها وهذه العقيدة ، تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها ... »^(٦٦) .. فالاسلام لن يتخلى عن الجهاد بالسيف — الطرق والوسائل المكافئة — ويترك النظم التى لا تدين بالحاكمة الالهية وشأنها ، حتى لو سلمته وكفت عدوانها عن داره « فالمعسكرات المعادية للإسلام قد يجرى عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الاسلام ، إذا تركها الاسلام تراول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الاقليمية ، ورضى أن يدعها وشأنها ولم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريرى العام !. ولكن الاسلام لا يهادنها ، إلا أن تعلن استسلامها لسلطانه فى صورة أداء الجزية ، ضمانا لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها »^(٦٧) ..!

تلك هى مقولة الأستاذ سيد قطب — المأخوذة عن الاستاذ المودودى — فى الجهاد الاسلامى — وهى مقولة لا أعتقد أنهما قد سبقا إليها من أحد تقدمهما ١٩٠٠ .. وهى مقولة تثير الكثير من الجدل والخلاف ...

● فلقد يقال — مثلاً — إن المطلوب هو تأمين الحرية والاستقلال لدار الاسلام .. وتأمين حرية الدعوة والدعاة ، وإزالة العوائق من سبيلهما ، على النطاق العالمى .. فإن تحقق ذلك سلماً فلا ضرورة للقتال ضد النظم التى لا تدين ، فى مجتمعاتها ، بالحاكمة الالهية ! ..

● ولقد يقال — أيضاً — إن معنى [ويكون الدين كله لله] ليس القتال حتى تستسلم كل النظم فى جميع أرجاء الأرض ، ويحكمها المسلمون بالحاكمة الالهية ، ذلك لأن حديث

(٦٥) [معالم فى الطريق] . ص ٧١ - ٧٤ .

(٦٦) المرجع السابق . ص ٦٥ .

(٦٧) المرجع السابق . ص ٨٧ .

الآية هو عن « المشركين » في مكة ، وليس عن « أهل الكتاب » .. ثم إن الآية تقول : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾ (٦٨) .. فالقتال أساسا لمنع فتنة المشركين للمؤمنين عن دينهم ، أى تعذيبهم حتى يرتدوا .. ومنع الفتنة يعنى حرية العقيدة ، فيكون الدين لله ، عندما تنتفى ضغوط الفتنة على الضمير ... وهذه الفتنة عن الدين قد وصفها القرآن بأنها ﴿ أشد من القتل ﴾ (٦٩) ؟! .. وليس معنى كون الدين كله لله هو عموم الحاكمية أى « الدين » الاسلامى كل أرجاء الأرض ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾ (٧٠) والأمة هنا : الدين والملة .. والاختلاف فيه حكمة إلهية ، وحكم إلهي (٧١) .. وكذلك الاختلاف فى « الشريعة » .. فبعد أن طلب القرآن — أولا — من اليهود أن يتحاكموا إلى « التوراة » : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للدين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ (٧٢) .. وبعد أن طلب القرآن — ثانيا — من النصرارى التحاكم إلى الانجيل : ﴿ وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٧٣) .. وبعد أن طلب — ثالثا — من المؤمنين أن يتحاكموا إلى القرآن الكريم : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .. ﴾ ... عقب القرآن بما يقطع بأن إرادة الله ومشيقته هى « تعدد الشرائع » و« المناهج » .. فقال : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن لیبلوکم فیما آتاکم فاستبقوا الخیرات ، إلى الله مرجعکم جمیعاً فینبئکم بما کنتم فیہ تختلفون ﴾ (٧٤)

فالاختلاف والتعدد فى الشريعة والدين إرادة إلهية ومشیئة إلهية ... فقط يجب :

(٦٨) الأنفال : ٣٩ .

(٦٩) البقرة : ١٩١ .

(٧٠) هود : ١١٨ .

(٧١) القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ج٩ ص ١١٤ ، ١١٥ . طبعة دار الكتب المصرية .

(٧٢) المائدة : ٤٣ ، ٤٤ .

(٧٣) المائدة : ٤٧ .

(٧٤) المائدة : ٤٨ .

١ - أن تسود « دار الاسلام » شريعة قانونية واحدة .. هي القانونى الاسلامى — فقه المعاملات — لأن أهل الكتاب فى « دار الاسلام » ليست لديهم « شريعة » مناظرة فى تنظيم شئون الدنيا .. وارتضاؤهم القانون الاسلامى — من منطلق قومى وحضارى — أولى لهم من ارتضاء فلسفة الغزاة فى القانون !..

٢ - أن تقف الدعوة للإسلام ، خارج « دار الاسلام » ، عند حدود « البيان والحجة » ، طالما رفعت النظم والحكومات غير الاسلامية من أمام الدعوة والدعاة ، ومن أمام ضمائر شعوبها ضغوط القهر والحواجز والعقبات ..

فالجهاد الاسلامى قد يكون دفاعيا .. وقد يكون « هجوميا » .. لكن فى هذا الاطار .. الذى إن تأملناه جيدا فإننا واجدوه ، دائما وابدا : دفاعا عن حرية « دار الاسلام » واستقلالها ، ودفاعا عن « حرية » الدعوة والدعاة إلى الاسلام !..

● ولقد يكون مفيدا — أيضا — أن ننبه إلى الخطأ القائم فى تمييز الاستاذ سيد قطب بين « الدين » وبين « العقيدة » .. وجعله « الدين » أشمل من « العقيدة » ، وتحديد له معنى « الدين » بأنه « المنهج والنظام » — أى [الحاكمية] ... فالحق :

١ - أن « الدين » يشمل : « العقيدة » و « الشريعة » .. فالمنهج والنظام — [الحاكمية] — ليس هو « الدين » ، وإنما هو « الشريعة »

٢ - ثم لو كان « الدين » هو [الحاكمية] التى يجب أن نُكرِّه عليها أهل الأرض جميعا ، مع ترك الحرية لهم فى « العقيدة » — كما قال الاستاذ سيد قطب — لقال الله فى قرآنه : لا إكراه فى « العقيدة » .. ولما قال ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ !!؟ ...

” ” ”

هكذا — وبعد هذه « الجملة الاعتراضية » على تصور « الجهاد الاسلامى » عند سيد قطب — وهو التصور الذى تابع فيه المودودى — ... هكذا شخص سيد قطب « الواقع » .. وحدد السبيل إلى « البعث الاسلامى الجديد » ...

● لقد انطلق من حكم المودودى « بكفر المجتمع » .. فشمل « بالكفر » « الأمة » أيضا ..
● وأعلن ، فى حسم ووضوح رؤية ، أن سبيل « البعث الاسلامى الجديد » هو رفض الجاهلية العامة الشاملة .. والبدء — كما صنع المسلمون الأوائل فى العهد المكي — من جديد !..

وحتى يثبت فى الصورة « الأمل » الذى يغرى بسلوك هذا السبيل الوعر والشاق ،

ذَكَرَ الناس بحال الدعوة الأولى ، عندما هبط بها الوحي وَسَطَ الشَّركِ المحيط والجاهلية المسيطرة ... « فلم تكن الدعوة في أول عهدها في وضع أقوى ولا أفضل منها الآن .. كانت مجهولة مستكبرة من الجاهلية ، وكانت محصورة في شعاب مكة ، مطاردة من أصحاب الجاه والسلطان فيها ، وكانت غريبة في زمانها في العالم كله ، وكانت تحف بها امبراطوريات ضخمة عاتية تتكرر كل مبادئها وأهدافها ، ولكنها ، مع هذا كله ، كانت قوية ، كما هي اليوم قوية ، وكما هي غدا قوية !؟ » (٧٥)

بل إننا نستطيع أن نقول : إن الرجل لم يهرب المصير الذى انتهى إليه .. بل لقد تنبأ به .. ومع ذلك سار على الدرب الذى حدده للبعث الاسلامى ، وارتضاه ... فكأنما كان يستشرف المستقبل عندما كتب :

« وتبدل الأحوال ، ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية ، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى ، وينظر إلى غالبه من عل مادام مؤمنا ، ويستيقن أنها فترة وقصوى ، وأن للإيمان كرة لا مفر منها . وهبها كانت القاضية ، فإنه لا يحى لها رأسا

إن الناس كلهم يموتون ، أما هو فيستشهد ، وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة ، وغالبه يغادرها إلى النار ، وشتان شتان ، وهو يسمع نداء ربه الكريم : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار ﴾ (٧٦) ... « (٧٧) ١١٢

نعم ... لقد تنبأ بما انتهت إليه حياته ... ولم تتعد ثقته في « قوة الدعوة » الحدود .. فما خطه سيد قطب في [معالم الطريق] تختلف فيه وحوله الآراء اختلافا شديدا لكن الذى لا خلاف عليه أن هذا التصور والنموذج « للبعث الاسلامى الجديد » ، قد تحول إلى « العبادة » التى خرجت من داخلها فصائل كثيرة ، تملأ سمع الدنيا وبصرها ، في تيار « الصحوة الاسلامية » التى تقض مضاجع الأعداء ، الذين فرضوا على أمتنا التحديات ، التى لا سبيل لمواجهتها وقهرها إلا بالاسلام !..

قد لا تكون كثير من الفصائل الاسلامية ، التى انطلقت من « خصام » سيد قطب لـ « الواقع » و« الفصام » معه ، على المستوى المطلوب لمواجهة « التحدى الحضارى »

(٧٥) [معالم في الطريق] ص ١٧٠ .

(٧٦) آل عمران : ١٩٦ - ١٩٨ .

(٧٧) [معالم في الطريق] ص ١٨٤ .

المحدقة مخاطره بكيان الأمة وذاتيتها الحضارية الاسلامية ... لكنه المخاض ، الذى يدعو إلى
ائتلاف « الفكر » و« الحركة » .. « تطويرا » و« تثويرا » للفكر الاسلامى ... و« ترشيدا »
« للحركة » الاسلامية .. فلعل فى ذلك ما يفيد فى تجاوز « المخاض » إلى وحدة الحركة
الاسلامية ، المسلحة بالاسلام .. إسلام « العدل » و« القوة » و« الثورة » ، سعيًا لأسلمة
الحياة التى يحياها المسلمون !.

وبعد

فإن « نظرة راصدة » على المعالم البازة في تيار « الصحوة الاسلامية » — وفي نطاق تصديه « للتحدى الحضارى » ، الذى فرض على أمتنا — وعبر قرنين من عمر هذا التيار — تستطيع أن ترصد عددا من الحقائق ذات الدلالة — وذات النفع أيضا ! — فى هذا الميدان :

● فإذا كان [تيار الجامعة الاسلامية] قد مثل أعظم تيارات « الصحوة الاسلامية » ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى .. وأول تيار يعم بدعوته وحركته كل ديار الاسلام .: فإن هذا التيار قد صنع أعظم إنجازاته فى :

١ - التذكير بثورية الاسلام .. وتأكيد هذه القسمة من قسماته .. فهو دين العدل والحق والقوة والثورة ..

٢ - المواجهة الكبرى مع « التخلف الموروث » بالاجتهاد والتجديد والتنوير ...

٣ - إبراز الهوية الحضارية الاسلامية المتميزة ، كسلاح فى نضال الأمة ضد تيار « التغريب » ..

٤ - وقوف « التنظيم » — عند هذا التيار — بإطار « الصفوة » غالبا .. سواء أكان ذلك فى جمعية [العروة الوثقى] أو [أم القرى] أو [جمعية العلماء] بالجزائر ...

● أما جماعة [الاخوان المسلمين] .. فلقد تميزت بـ :

١ - جماهيرية التنظيم .. مع الأخذ بنظام « المراتب » ، القائمة على المعايير « النضالية » لا « الفكرية » ..

٢ - تقلص الابداع التجديدى — إذا ما قيس بإبداع [الجامعة الاسلامية] فى التجديد — .. مع اختصاص مرشدها العام الأول بمهمة « التفكير » للجماعة تقريبا ؟!..

٣ - التركيز على تخلص الموروث من الازدواجية .. بتنقيته — بالسلفية — من الشوائب غير الاسلامية .

٤ - والتصدى للتغريب .. كى لا تفقد الأمة الهوية الاسلامية التى تميزها ..

٥ - والاستفادة من علوم الغرب ، الضرورية لقوتنا ونهضتنا ، والتى لا تشوه تميزنا الحضارى .

● أما [الجماعة الاسلامية] فلقد تمثل إبداعها الأساسى فى :

١ - نقد الموروث .. وتخلص « بقايا الاسلام » فيه من « الجاهلية » التى غلبت عليه حتى جعلت « المجتمع » مرتدا عن الاسلام ، لغياب [الحاكمية الإلهية] ..

٢ - التصدى « للتغريب » .. كى لا تفقد الأمة هويتها الحضارية التى تميزها عن غيرها من الحضارات .

٣ - الاستفادة من علوم الغرب — وخاصة البحتة — التى تزيد قوة المسلمين ، ولا تشوه تميزهم الحضارى .

● أما تيار [الرفض الكامل والثورى للواقع] فلقد تبلورت مقولاته فى :

١ - العودة — من جديد — للمنبع الأول — القرآن — وحده .. لأن تواصل الأمة ، فكريا ، قد انقطع تماما .. فكفرت « الأمة » و« المجتمع » ، وارتدا إلى « الجاهلية » ثانية .. ومنذ قرون .

٢ - والتصدى للغرب .. فقد انتهى دوره ، وأفلس فى « القيم » .. والاسلام هو المرشح للقيادة العالمية الآن ، بقيمه .. وبشمرات الابداع الأورنى فى التقدم المادى ..

٣ - والاستفادة من علوم الغرب البحتة .. والحذر والرفض لفلسفاته وتصوراته وإنسانياته ، التى تشوه تميزنا الحضارى .

» » »

لقد أجمعت كل فصائل « الصحوة الاسلامية » على أن النهضة ، وتجاوز المأزق الذى انحدرت الأمة إليه ، وخاصة بعد الغزوة الاستعمارية الحديثة ، رهن بتجديد الدين ، بالسلفية ، لتنقيته من البدع والإضافات ... وتجديد الدنيا بالدين ، لا « بالتغريب » ، الذى يمثل الخطر الأكبر على ذاتية الأمة وهويتها الحضارية وشخصيتها القومية ... ثم اختلفت هذه الفصائل فى « جزئيات » .. وفى درجة التركيز على بعض القضايا والمجالات ...

ولقد كان عنف التغريب واشتداد الخطر على الذاتية الحضارية للأمة وراء عنف الصياغات وحدة الأحكام التي قدمتها بعض فصائل الصحوة على « الفكرية » التي امتزج فيها « التغريب » بالاسلام !..

وإذا كانت هذه الصحوة قد بدأت — عند تيار [الجامعة الاسلامية] — : « ثورة اجتهاد وتجديد » في الأساس والغالب .. وتنظيم « صفوة » بالدرجة الأولى ... فإنها قد وصلت عند تيار [الرفض الكامل والثورى للواقع] : « حركة جمهورية » تستقطب جمهورا كبيرا من أبناء الأمة لـ « الحركة » و« العمل » في سبيل الاسلام .. على حين تقلص « الاجتهاد والتجديد » في هذا التيار إلى حد كبير .. إما إهمالا غير مقصود .. وإما تأجيلا له حتى تقام الدولة الاسلامية ، وتقوم ضرورات الاجتهاد — كما يقال أحيانا ؟! — .. الأمر الذى جعل « الحركة » الاسلامية المعاصرة مهددة بوضع الذى يمشى على ساق واحدة !..

والذين يعون ، جيدا ، مخاطر « التحدى الحضارى » على ذاتية الأمة المستقلة ، وهويتها الحضارية المتميزة ، ومستقبلها المسلم ، يدركون الأهمية البالغة لوقوف « الحركة الاسلامية » ونموها وتقدمها على الساقين اللتين :

ا — إبداع الصفوة المجتهدة المجددة ...

ب — والتنظيم الجماهيرى ، المستوعب لجيش العاملين لعودة حكم الاسلام ...

فبدلك تجمع الحركة المعاصرة ميزات تيار « الصحوة الاسلامية » على امتداد القرنين الماضيين

وبذلك وحده تستطيع التصدى لأعدائها — الداخليين والخارجيين — ... وفى ذلك نصر الاسلام والمسلمين ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾^(١)

صدق الله العظيم

(١) محمد : ٧ .

المصادر

● القرآن الكريم .

● كتب السنة النبوية الشريفة :

- [صحيح البخارى] طبعة دار الشعب . القاهرة .
- [صحيح مسلم] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- [سنن الترمذى] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .
- [سنن النسائى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- [سنن أبى داود] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
- [سنن ابن ماجه] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- [سنن الدارمى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- [مسند الامام أحمد بن حنبل] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .
- [موطأ الامام مالك] طبعة دار الشعب . القاهرة .
- ابن باديس : [كتاب آثار ابن باديس] إعداد وتصنيف : د . عمار طالبي . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .
- ابن حزم الأندلسى : [رسائل ابن حزم] تحقيق : د . إحسان عباس . طبعة بيروت سنة ١٤٠١ هـ سنة ١٩٨٠ م .
- ابن عساكر : [تهذيب تاريخ ابن عساكر] طبعة دمشق .
- ابن منظور : [لسان العرب] طبعة دار المعارف . القاهرة .
- أبو يعلى الفراء : [الأحكام السلطانية] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
- [كتاب الإمامة] طبعة بيروت — ضمن مجموعة نشرها : د . يوسف أبيش . تحت عنوان : « نصوص الفكر السياسى الاسلامى — الإمامة عند السنة » سنة ١٩٦٦ م .
- أحمد بن زينى دحلان : [رسالة فيما يتعلق بأدلة التوسل بالنبي وزيارته] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .
- الأفغانى (جمال الدين) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م وبيروت سنة ١٩٨١ م .
- التيفاشى : [أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار] تحقيق : د . محمد يوسف حسن ، د . محمود بسيونى خفاجى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

- جمال البنا : [الدعوات الاسلامية المعاصرة . مالهـا وماعليها] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- حسن البنا : [مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا] — طبعة دار الشهاب — القاهرة .. وفيها : [دعوتنا] و[إلى أى شىء ندعو الناس] و[نحو النور] و[إلى الشباب] و[الاخوان المسلمون تحت راية القرآن] و[دعوتنا في طور جديد] و[بين الأمس واليوم] و[رسالة المؤتمر الخامس] و[مشكلاتنا في ضوء النظام الاسلامى] و[نظام الحكم] و[النظام الاقتصادى] و[رسالة الجهاد] و[رسالة التعاليم] و[نظام الأسر] و[العقائد] و[الماثورات]
- خورشيد أحمد (دكتور) : [نموذج المودودى للبعث الاسلامى] مجلة « المسلم المعاصر » عدد ٣١ . رمضان سنة ١٤٠٢ هـ .
- الدجاني (أحمد صدق — (دكتور) : [الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .
- زكريا سليمان بيومى : [الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية في الحياة المصرية] سنة ١٩٢٨ — ١٩٤٨ م [طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م . (دكتور)
- سمير عبد الحميد ابراهيم : [أبو الأعلى المودودى . فكره ودعوته] طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩ هـ سنة ١٩٧٩ م . (دكتور)
- سيد قطب : [معالم في الطريق] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ سنة ١٩٨٠ م .
- علوى بن أحمد بن حسن : [كتاب مصباح الأنام وجلاء الظلام في رد شبه البدعى النجدى الذى أضل العوام] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ . ابن قطب الحداد
- القرطبي : [الجامع لأحكام القرآن] طبعة دار الكتب المصرية . الكواكبي (عبد الرحمن) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .
- لوثرروب ستودارد : [حاضر العالم الاسلامى] ترجمة : عجاج نويهض . تعليق : شكيب أرسلان . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .
- محمد رشاد خليل (دكتور) : [شخصية مصر التاريخية] مجلة « الدعوة » عدد ربيع الثانى سنة ١٣٩٨ هـ مارس سنة ١٩٧٨ م .
- محمد زكريا الكاندهلوى : [المودودى . مالهـا وماعليها] طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩ هـ سنة ١٩٧٩ م .

- محمد فؤاد عبد الباقي : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب . القاهرة .
- محمد عبده (الأستاذ الامام): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- محمد عبده (وآخرين) : [الاسلام والرد على منتقديه] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .
- محمد عمارة (دكتور) : [العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م والقاهرة وبيروت سنة ١٩٨٢ م .
- : [تيارات الفكر الاسلامي] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م .
- : [مسلمون ثوار] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- : [كتاب الاسلام وأصول الحكم ، لعل عبد الرازق ، دراسة ووثائق] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- : [الاسلام والثورة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م وبيروت سنة ١٩٨٠ م .
- : [الفكر الاجتماعى لعل بن ألى طالب] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
- : [العدل الاجتماعى لعمر بن الخطاب] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- : [عمر بن عبد العزيز] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م وبيروت سنة ١٩٧٩ م .
- محمد مختار باشا المصرى : [كتاب التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٤٠٠ هـ سنة ١٩٨٠ م .
- المهدى (محمد أحمد) : [منشورات المهديّة] تحقيق : د . محمد ابراهيم سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- المودودى (أبو الأعلى) : [الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
- : [الاسلام والمدنية الحديثة] طبعة القاهرة سنة ١٣٧٩ هـ سنة ١٩٧٨ م .
- : [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ترجمة : د . سمير عبد الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٤٠١ هـ سنة ١٩٨١ م .
- : [تدوين الدستور الاسلامى] ترجمة : محمد عاصم الحداد .

- طبعة بيروت — ضمن مجموعة عنوانها : « نظرية الاسلام
وهديه في السياسة والقانون » — سنة ١٣٨٩هـ سنة
١٩٦٩ م .
- : [تذكرة دعاة الاسلام] طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧هـ سنة
١٩٧٧ م .
- : [تفسير سورة الأحزاب] ترجمة : أحمد إدريس . طبعة
القاهرة سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠ م .
- : [تفسير سورتي الكهف ومريم] ترجمة : أحمد إدريس . طبعة
القاهرة سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨٠ م .
- : [تفسير سورة النور] طبعة القاهرة — بدون تاريخ — توزيع
دار المسلم .
- : [الجهاد في سبيل الله] طبعة القاهرة — ضمن مجموعة بنفس
العنوان — سنة ١٩٧٧ م .
- : [الحجاب] طبعة القاهرة . دار الأنصار . بدون تاريخ .
- : [حقوق أهل الذمة في الدولة الاسلامية] ترجمة : محمد كاظم
سباق . طبعة بيروت — ضمن مجموعة عنوانها : « نظرية
الاسلام وهديه في السياسة والقانون » — سنة ١٣٨٩هـ سنة
١٩٦٩ م .
- : [الحكومة الاسلامية] ترجمة : أحمد إدريس . طبعة القاهرة
سنة ١٣٩٧هـ سنة ١٩٧٧ م .
- : [الربا] ترجمة : محمد عاصم الحداد . طبعة القاهرة . دار
الأنصار . بدون تاريخ .
- : [الطريق إلى وحدة الأمة الاسلامية] ترجمة : د . سمير عبد
الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٤٠١هـ .
- : [القانون الاسلامي وطرق تنفيذه في باكستان] ترجمة : محمد
عاصم الحداد . طبعة بيروت — ضمن مجموعة عنوانها :
« نظرية الاسلام وهديه في السياسة والقانون » — سنة
١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .
- : [اللباس] . طبعة بدون تاريخ . وبدون تحديد لمكان الطبع .
- : [المبادئ الأساسية لفهم القرآن] ترجمة : خليل أحمد
الحامدي . طبعة الكويت سنة ١٣٩١هـ سنة ١٩٧١ م .

- : [مبادئ الاسلام] طبعة القاهرة . دار الأنصار . بدون تاريخ .
- : [المرأة ومناصب الدولة في نظام الاسلام] ترجمة : محمد كاظم سباق . طبعة بيروت — ضمن مجموعة عنوانها : « نظرية الاسلام وهدية في السياسة والقانون » — سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .
- : [مسألة ملكية الأرض في الاسلام] ترجمة : محمد عاصم الحداد . طبعة الكويت سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .
- : [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ترجمة : د . سمير عبد الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١ م .
- : [مفاهيم اسلامية حول الدين والدولة] طبعة الكويت . سنة ١٣٩٧هـ سنة ١٩٧٧ م .
- : [المفهوم الحقيقى لكلمة المسلم] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠ م .
- : [منهاج الانقلاب الاسلامى] ترجمة : مسعود الندوى . طبعة بيروت — ضمن مجموعة عنوانها : « نظرية الاسلام وهدية في السياسة والقانون » — سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .
- : [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ترجمة : محمد كاظم سباق . طبعة بيروت سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥ م .
- : [نظرية الاسلام السياسية] ترجمة : خليل حسن الاصلاحى . طبعة بيروت — ضمن مجموعة عنوانها : « نظرية الاسلام وهدية في السياسة والقانون » — سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .
- : [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ترجمة : محمد عاصم الحداد . طبعة بيروت سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥ م .
- : [الاخوان المسلمون] ترجمة : عبد السلام رضوان . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
- : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ونسك (ا.ى) وآخرين : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن سنة ١٩٣٦ — سنة ١٩٦٩ م .

للمؤلف

١ - تأليف :

- ١ - الإسلام وفلسفة الحكم
- ٢ - الإسلام بين العلمانية والسلطة الدينية
- ٣ - الإسلام وأصول الحكم [دراسة ووثائق]
- ٤ - الإسلام والسلطة الدينية
- ٥ - نظرية الخلافة الإسلامية
- ٦ - الإسلام والحرب الدينية
- ٧ - الإسلام والعروبة والعلمانية
- ٨ - الإسلام والوحدة الوطنية
- ٩ - الإسلام وقضايا العصر
- ١٠ - الإسلام والثورة
- ١١ - الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده
- ١٢ - المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية
- ١٣ - مسلمون ثوار
- ١٤ - ثورة الزنج
- ١٥ - تيارات الفكر الإسلامى
- ١٦ - تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة
- ١٧ - العرب والتحدى [تحديات لها تاريخ]
- ١٨ - الفكر الاجتماعى لعلى بن أبى طالب
- ١٩ - العدل الاجتماعى لعمر بن الخطاب
- ٢٠ - عمر بن عبد العزيز — خامس الخلفاء الراشدين .
- ٢١ - نظرة جديدة الى التراث
- ٢٢ - التراث فى ضوء العقل
- ٢٣ - دراسات فى الوعي بالتاريخ
- ٢٤ - عندما أصبحت مصر عربية
- ٢٥ - معارك العرب ضد الغزاة
- ٢٦ - الامام محمد عبده — مجدد الاسلام
- ٢٧ - تجديد الفكر الإسلامى — محمد عبده ومدرسته

- ٢٨ - الامام محمد عبده — سيرته وأعماله
- ٢٩ - قاسم أمين وتحرير المرأة
- ٣٠ - المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد
- ٣١ - القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب
- ٣٢ - فجر اليقظة القومية
- ٣٣ - العروبة في العصر الحديث
- ٣٤ - الأمة العربية وقضية الوحدة
- ٣٥ - اسرائيل .. هل هي سامية ؟
- ٣٦ - ماذا يعني الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الاسلامية ؟
- ٣٧ - الفكر القائد للثورة الايرانية
- ٣٨ - كتاب الفريضة الغائبة .. عرض .. وحوار .. وتقييم
- ٣٩ - الصحوة الاسلامية والتحدى الحضارى .
- ٤٠ - رفاة الطهطاوى
- ٤١ - على مبارك
- ٤٢ - جمال الدين الأفغانى
- ٤٣ - عبد الرحمن الكواكبي
- ٤٤ - التراث الاسلامى والمستقبل
- ٤٥ - الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل .

ب - دراسة وتحقيق :

- ٤٦ - الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى ج١ - ج٦
- ٤٧ - الأعمال الكاملة لعلى مبارك ج١ - ج١٠
- ٤٨ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ج١ - ج٣
- ٤٩ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج١ - ج٦
- ٥٠ - الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي
- ٥١ - الأعمال الكاملة لقاسم أمين ج١ ، ٢
- ٥٢ - رسائل العدل والتوحيد ج١ ، ٢
- ٥٣ - فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعة من الاتصال — لابن رشد
- ٥٤ - رسالة التوحيد — للإمام محمد عبده
- ٥٥ - التوفيقات الالهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية — لمحمد مختار باشا المصرى ج١ ، ٢ .

الفهرس

الموضوع	صفحة
تمهيد	٥
الفصل الأول : الصحوة الإسلامية	١٣
● الوهاية	١٨
● والسوسية	٢٠
● والمهدية	٢١
الفصل الثاني : الجماعة الاسلامية	٢٣
● نقد التلخف العثماني	٢٦
● والتصدى للتغريب	٣٠
● ونهضة حضارية متميزة	٣٧
الفصل الثالث : جماعة الاخوان المسلمين	٤١
● التصدى للتغريب	٤٧
● والتلخف الموروث	٥٤
● البراءة من الغلو	٥٩
● الاستقلال الحضارى	٦٠
● والتفاعل الحضارى	٦٨
● الاسلام .. والوطنية والقومية	٧٤
● وسبل التنفيذ	٧٨
الفصل الرابع : الجماعة الاسلامية	٨٥
● فى مواجهة الجاهلية الموروثة	٩٠
● وفى مواجهة الجاهلية الوافدة	٩٨
● التفاعل الحضارى	١١١
● الموقف من القومية .. وعلاقة الديمقراطية بالحاكمة	١١٤
● اداة البحث	١٣٢

١٤٣ الفصل الخامس : تيار : الرفض الكامل للواقع
١٤٩ ● الحاكمية الإلهية
١٥٤ ● وعموم الجاهلية
١٦٢ ● السبيل إلى البعث الاسلامى
١٧٣ وبعد
١٧٦ المصادر

رقم الإيـناع: ١٨٣٣ / ١٩٩١
الترقيم الدولى: ٠٠٣٧-٠٩-٩٧٧

مطابع الشـرقة

القاهرة ٨: شارع سيـبويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)



الضَّعْوةُ الإِسْلَامِيَّةُ
والتَّعَدِّي العَقْصِي